

أَصْوَلُ الْوُصُولِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م

مكتبة سوق الآخرة

هاتف

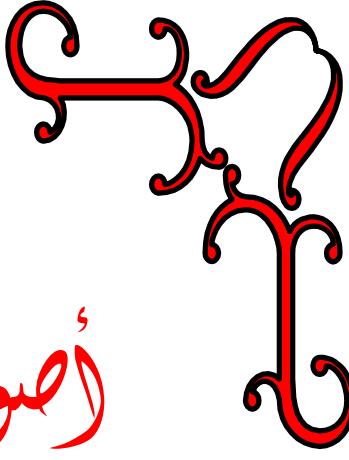
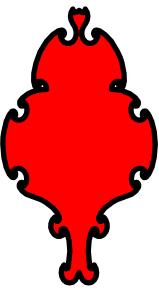
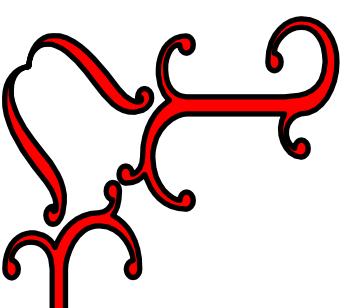
٣٢٨٧١٨٩ - ٠٢ / ١٠١٦٥٧١٧٣

توزيع

دار ابن الجوزي - درب الأتراء

خلف الجامع الأزهر

تلفون : ٥١٤٣١٤١ / ٠١١٣٣٥٠٦٩٧



أصول الرصو

إلى الله تعالى

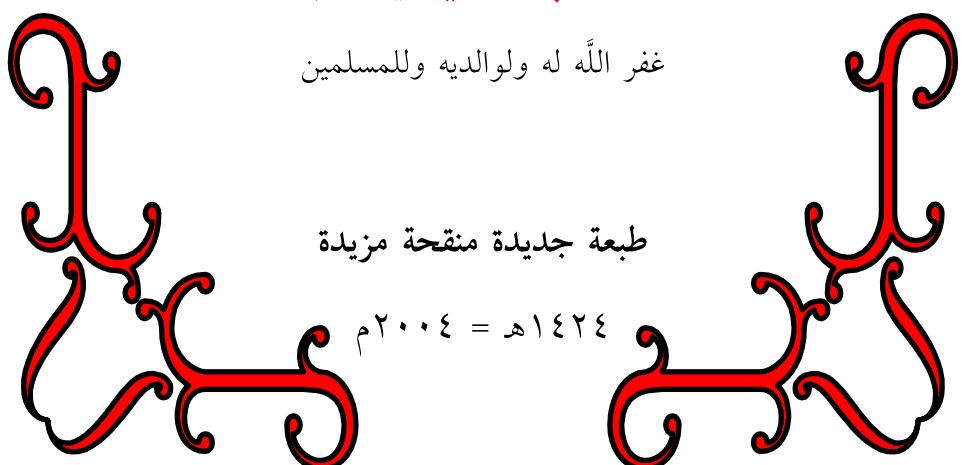
لفضيلة الشيخ

محمد بن حسين يعقوب

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

طبعة جديدة منقحة مزيدة

١٤٢٤ هـ = ٢٠٠٤ م



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلوة والسلام على أشرف المرسلين
سيّدنا محمدٌ وعلى آله وصحبه أجمعين .

رَبِّ يَسْرٍ وَأَعْنٍ وَتَمْ بِخَيْرٍ يَا كَرِيمٍ

إخوتي في الله ، والذي فلق الحبة وبرأ السسمة إني أحبكم في الله .

أخي في الله ، أين أنت من الله؟ .. أين أنت في الطريق إلى الله؟

هذا السؤال وإن كان وارداً على الجميع ؛ إلا أن أكثر الناس
يجهلونه .. ببساطة : أخي ، كم سنة مرت على التزامك ؟ ، كم سنة مرت
منذ ثبتت ؟ .. بعد مرور هذه السنة أو حتى الشهور أو قل الأيام كيف
سررت إلى الله ؟ .. إلى أين سرت ؟ .. أين بلغت ؟ .. متى تصل ؟

بالتأكيد كل هذه الأسئلة ليس لها عند كثير منا إجابة ؛ فإنه لم يعرف
الطريق أصلاً ، وإنما هو التزم كما التزم الناس .. وهذه عادة المسلمين
في حياتنا .. يتوضؤون كما يتوضأ الناس ، ويصلون كما يصلّي الناس ،
ويزكرون كما يُزكي الناس ، ويحجّون ويعتمرون كما يَحجُّ ويَعْتَمِرُ
الناس ..

أصول الوصول إلى الله تعالى

إنما هي عادات تلقّوها بالوراثة ، بلا فهم لأسرارها ، ولا إدراك لمعناها ، ولا حرص على ثمرتها ونتائجها .

هكذا أخي الحبيب - ولا تغضب من خُشونة كلامي - التزمت بمعنى أقلعت عن بعض المعاشي أو أكثرها وخصوصا الظاهرة منها ، ودخلت المسجد وحضرت درساً أو درسين ، أو سمعت شريطاً وشريطين ، وقرأت صفحاتٍ من كتابٍ أو كتابين ، وتقرأ القرآن أحياناً ، وتذكر الله في بعض الأحيان ، إلى جوار اللحية .. ثم تظن أنك ملتزم بدين الله ، وتنظر إلى أصحاب المعاشي الظاهرة على أنهم من الفجّار !!

بِاللَّهِ عَلَيْكَ، أَلَيْسَ هَذَا وَصْفُ حَالِكَ؟

إنني أدعوك إلى فهم الدين ومعرفة الطريق للوصول إلى رضا الله - سبحانه وتعالى .. يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

الناسُ قسمان : عِلْمٌ وسَفَلَةٌ ؛ فَالْعِلْمُ مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَسَلَكَهَا قَاصِدًا الْوَصْوَلَ إِلَيْهِ ، وَهَذَا هُوَ الْكَرِيمُ عَلَى رَبِّهِ . وَالسَّفَلَةُ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الطَّرِيقَ إِلَى رَبِّهِ وَلَمْ يَتَعَرَّفْ إِلَيْهَا ، فَهَذَا هُوَ الْئَيْمُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - فِيهِ : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكَبِّرٍ﴾ [الحج: ١٨] ^(١).

لذا كان هذا الكتاب - أيها الحبيب - للتعرف على معالم الطريق إلى الله - تعالى .. وهذه هي الطبعة الثانية من الكتاب .

(١) طريق الهجرتين (١٨١).

وأنا أستغفرُ اللَّهُ العظيمَ الْحَيِّ القيومَ الذي لا إلهَ إلَّا هو ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ
من أخطاءٍ وقعتُ في الطبعة الأولى ، وَأَعْتذرُ لِإخوانِي وأَحَبِّتُ فِي اللَّهِ عَنْ
سُوءِ إِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ فِي طَبْعَتِهِ الْأُولَى ، وَلِعَلَّهُمْ يَقْبَلُونَ عُذْرِي ؛ فَهَذَا
مِنْ شَيْءِ الْكَرَامِ .

وَلِلْمُصَالَحةِ .. فَإِنَّ هَذِهِ الْطَبْعَةِ غَيْرُ سَابِقَتِهَا تَمَامًا ؛ فَقَدْ أُعِيدَ ضَبْطُهَا
كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَتَمَّتْ زِيادَةُ نَصوصٍ وَمَوَاقِفٍ وَتَنْقِيحاَتٍ فِي بَعْضِ
أُصُولِهَا .. كَمَا تَمَّ تَوْثِيقُ النَّصوصِ وَعَزْوُهَا إِلَى مَصَادِرِهَا الأَصْلِيَّةِ .

وَقُمْنَا كَذَلِكَ بِتَخْرِيجِ الْأَحَادِيثِ مَرَّةً أُخْرَى بِهَذِهِ الصُورَةِ .. صُورَةُ
الاختصار في التخريج والاقتصار في الإحالات ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَهْتَمِمِينَ
بِعِلْمِ الْمُعَامَلَةِ مَعَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَقُرَاءُ هَذَا الْكِتَابِ الْمُحِبِّينَ لِأَمْرِ
التَّزْكِيَّةِ لَا يَهْتَمُونَ كَثِيرًا بِتَطْوِيلِ التَّخْرِيجِ ؛ فَلِيَسْ يَهْمُهُمْ كُثُرَةُ الإِحالَاتِ
عَلَى الْكِتَابِ .. يَكْفِي طَمَانِيَّةُ الْقَلْبِ إِلَى صِحَّةِ الْحَدِيثِ .. فَاكْتَفِيَنَا لَهُمْ
بِذَكْرِ صِحَّتِهِ ، وَتَأْكِيدِهِ لِإِحْالَةٍ وَاحِدَةٍ .. وَالرَّائِدُ لَا يَكْذِبُ أَهْلَهُ .

ثُمَّ مُقْدَمَةً لَابْدَدُ مِنْهَا ، وَهِيَ التَّمَهِيدُ الَّذِي اسْتَغْرَقَ أَكْثَرَ مِنْ سِتِّينَ
صَفْحَةً .. فَقَدْ رأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ أَنْ نَدْخُلَ فِي أَصُولِ الْوَصْولِ مُبَاشِرًا
دُونَ تَوْضِيْحٍ لِأَهْمَمِ الإِشَارَاتِ وَالْتَّنْبِيَّهَاتِ ، وَالنَّصَائِحِ وَالْتَّوْجِيهَاتِ الَّتِي
لَا بُدَّ لِلسَّائِرِينَ مِنْهَا ؛ فَقَدَّمْتُ وَمَضَاتٍ فِي طَرِيقِ السَّيْرِ ، وَآفَاتٍ عَلَى
الطَّرِيقِ ، ثُمَّ انتَهَيْتُ بِاسْتِرَاحَةِ الْمَسَافِرِ .. فَخَذَهَا عَلَى بُرْكَةِ اللَّهِ .

أصول الوصول إلى الله تعالى

إخوتي في الله ، إني - والله - أحبكم في الله ، وأسائل الله -
جل جلاله - أن يجمعنا بهذا الحب في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ،
 وأن يجعل عملنا كله صالحا ، وأن يجعله لوجهه خالصا ، وألا يجعل فيه
لأحد غيره شيئا ، وأن ينفعنا بما علمنا ، و يجعلنا أول العاملين به ..
وأستغفر الله لي لكم .

وصلَى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وكتب

الفقير إلى عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

ليلة النصف من ذي القعدة ١٤٢٤ هجرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ رُورِ
أَنفُسِنَا ، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مِنْ يَهْلِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلٌ لَهُ ، وَمِنْ يَضْلِلُ فَلَا
هَادِيٌ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ
مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنْكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

أما بعد :

فِي أَخْرَوْتِي فِي اللَّهِ ، أَوَّلًا - وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ - : إِنِّي وَاللَّهُ أَحْبَبْكُمْ فِي اللَّهِ .
وَأَصْلُّ هَذَا الْكَلَامَ بِسَيِّطٍ جَدًّا ، خَطْبَةٌ مُختَصَّرَةٌ فِي مَسْجِدِ الْفَتْحِ
بِالْمَعَادِي - عَمَّرَهُ اللَّهُ بِأَهْلِ الإِيمَانِ .

عنوانها : قواعد للسير إلى الله .

عناصرها : خمسة .

ثُمَّ تُنْوَقْلَتِ العناصرُ فِي مَجَالِسٍ ؛ فَإِذَا بَهَا تَرَبَّوْ عَلَى الْعَشَرِينَ .
سَافَرْتُ سَفْرَةً إِلَى بَلَادِ الْغَرْبِ ، وَفِي وَحْشَةِ السَّفَرِ آنْسَتُ نُورًا يَهْدِي ،
وَبَصَائِرَ تَدْلُّ عَلَى الْمَسِيرِ ؛ فَزَدَتْهَا فَتَجَاوَزَتِ السَّبْعِينَ !

أصول الوصول إلى الله تعالى

ثم في خلوة جميلة في رحاب البيت الحرام في مكة ، ومع منبع النور
فيوضات وبركات ؛ فبلغت المِلة .

وكانت هذه الأصول :

«أصول الوصول إلى الله تعالى»

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَهَا مَنَارَاتٍ هَدَى ، وَمَشَاعِلَ نُورٍ تَحْدُو السَّائِرِينَ
إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا بُرْكَةً عَلَيْنَا وَعَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

والكتابُ الذي بين يديك هو طليعةُ الأصول ، يحمل سبعةً وعشرين
أصلًا ، كُتب شرحه على عُجالَة ، وروجع في عُجالَة ؛ لندرك به المؤمنين
قبل رمضان يحدوهم إلى الله ، تُعتقد به رقابُهم من النار .

فنسأُلُ الله المسامحة على أخطاءٍ أو هفوات - إن وجدت - ، ونرجو
من أحبتني في الله الدعاء ؛ لعل الله أن ينفعنا بدعوةِ رجل صالحٍ بظاهر
الغيب .

أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، فِي السِّرِّ وَالْعُلَنِ ،
وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَا أَعْمَالَنَا وَيُثْقِلَ بِهَا مَوازِينَنَا يَوْمَ نَلْقَاهُ .

وكتب

الفقير إلى عفو ربه

محمد بن حسين يعقوب

٢٧ من شعبان ١٤٢٤ هجرية

تمهيد

ومضاتٌ على طريق السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ

اعلم - أخي الحبيب - أن للسير إلى الله أصولاً وضوابط .. وثمة أمرٌ مهم .. وهو أن السائرين إلى الله هم المصطفون من خلق الله ؛ قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا أُورَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أُصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يَأْتِيَنَّ اللَّهُ ذَلِيلًا هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] .. فكُلُّهم مصطفون مختارون لسلوك هذه الطريق .. فإن سلكت فأبشر ؛ ولكن انضبط واشكر كي لا تُطرد .

ومن سُنَّة البشر في حياتهم ، أنَّ الطُّرُقَ لا يمكن أن تُسلك إلا بعلاماتٍ للاهتداء ، وإشاراتٍ للمسير ، توضّح المراحل ، وتَدْفع المخاطر ، وتُسَهِّل اجتياز العقبات ، وتُيسِّر قطع الفَلَوَات ، وقد تكون هذه العلامات سمعية أو بصرية ، كما أنها قد تكون للتوضيح والإرشاد ، أو للتنبيه والاعتراض ، وهكذا فإنَّ المسافر في طريق الوصول إلى الله يحتاج إلى التوعية والتنبيه بمواعظ هي إشارات ساطعة في دربه الطويل ، وتنبيهات تَقِيهِ شَرَّ المنعطفات^(١) .

وهذه الطريق - أيها الأخُ الكريم - تحتاج إلى علمٍ مهمٍ جدًا

(١) انظر : مسافر في قطار الدعوة ، للشُّويخ (٢١١) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وخطير .. هو علم السُّلوك .. يقول ابن القِيَم - عليه رحمة الله - في «طريق الهجرتين» :

«السائر إلى الله - تعالى - والدار الآخرة ، بل كل سائر إلى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . وبالقوة العلمية ينصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها ، ويتجنب أسباب الهالك ومواضع العَطَب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقوّتُه العلمية كثُورٍ عظيمٍ بيده يمشي به في ليلة مظلمة شديدة الظلمة ؛ فهو ينصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتألف ، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضلُّ عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطيها . وبالقوة العملية يسير حقيقةً ؛ بل السير هو حقيقة القوة العملية ؛ فإن السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر إلى ربِّه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاشر والوهاد والطرق الناكبة عنها ؛ فقد حصل له شطرُ السعادة والفرح ، وبقيَ عليه الشطرُ الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويسْمُرَ مسافرًا في الطريق قاطعاً منازلها منزلةً بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعدَّ لقطع الأخرى ، واستشعرَ القربَ من المنزل فهان عليه مشقةُ السَّفَر»^(١) .

نعم - أيها الحبيب المحب - : إنَّ الطريق إلى الله - تعالى - تقطع بالقلوب لا بالأقدام .. نعم : هي طريق طويلة ، ونعم : هي مأهولة ؛ فقد

(١) طريق الهجرتين (١٨٧).

سارها قبلك المصطفون الأخيار من خيرة خلق الله على مدار العصور .. ولكن هذه الطريق في عصرنا صارت مجهملة لأكثر الناس ؛ وذلك لإعراض الناس عنها بل وتتكبّهَا .

فلذا أنت تحتاج إلى علم .. علم حقيقي بهذه الطريق ، وهمة عالية تقطع بها هذه الطريق .. وكما ذكر ابن القيم - عليه رحمة الله - أنك تحتاج إلى قوة علمية ؛ يعني أن تتعلم .. ولا يظنّ ظان أن السائر إلى الله لا علاقة له بطلب العلم .. فما له والعقيدة أو الفقه أو المصطلح أو الأصول ؛ بل وما أشغله عن الدعوة إلا الله .

وقد هذا الظن من أحوال الصوفية ؛ فقد اعتقد أكثر الناس أن معنى «سائر» و«الطريق» وغيرها من هذه الكلمات هي الصوفية ، وهي مرتبطة بالابتداع .. وما حصل هذا الابداع إلا بسبب الجهل والانحراف عن العلم والاكتفاء بمجرد الرياضيات الروحية .

ولكن عندنا وفي منهجنا أن طلب العلم أصل الوصول وهو لا يفارق السائر أبدا .. فلا بد أولاً من منهج علمي منضبط^(١) ذي مراحل في كل فروع العلم : عقيدة وفقه وتفسير وسيرة وحديث .. العلم قبل القول والعمل وإلا ضلللت ولم تصل .. لابد من قوة علمية ، ثم القوة العملية : أن تبدأ تنفيذ هذا العلم في الواقع .. أن تسير حقيقةً .

وإنني أطالبك - أيها الحبيب - أن تستشعر هذا المعنى : أنك سائر ..

(١) راجع هذا المنهج مفصلاً في كتابنا «منطقات طالب العلم» (٣٦٧ - ٣٨٥) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

أنك مسافر .. أنك راحل .. ﴿يَأَيُّهَا أَيُّهَا إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدَّحًا فَمُلْقِيْهِ﴾ [الإنشقاق: ٦] .. «مالي وللدني إنما أنا كراحل» .. هذا شعراً في هذه الدنيا .. ولابد أن تتواءز وتتوازن القوتان العلم والعمل ؛ وإلا فهلاك آخر وضلال من نوع آخر ، والجنون فنون ؛ يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

«ومن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاشرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفاً في القوة العملية ؛ يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المخالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقفاها ، فهو فقيهٌ ما لم يحضر العمل ، فإذا حضر العمل شارك الجهل في التخلف وفارقهم في العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله .

ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه ، وتقضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأوّل ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله ، وداء الأوّل من فساد إرادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتضوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق والوجود والعادة ، يُرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا

يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجوده ، وتارة يعبده بعاده قومه وأصحابه من لُبِسٍ مُعَيْنٍ أو كشفِ رأس أو حلقٍ لِحْيَةٍ ونحوها ، وتارة يعبد بالأوضاع التي وضعها بعض المتخاذلين وليس له أصل في الدين ، وتارة يعبده بما تحبُّه نفسه وتهواه كائناً ما كان . وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهو لاءٌ كُلُّهُمْ عُمَىٰ عن ربهم وعن شريعته ودينه ؛ لا يعرفون شريعته ودينه الذي بعث به رسلاه وأنزلَ به كتبه ولا يقبل من أحد دينًا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التي تعرَّف بها إلى عباده على ألسنةِ رسليه ودعاهم إلى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له .

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله - تعالى - ورجيَّ له النفوذ ، وقوَّى على ردِّ القواطع والموانع بحول الله وقوَّته^(١) .

وهكذا - أخي الحبيب - فهمت أن بعض الناس له قوَّةٌ عِلمِيَّةً .. يعني تعلَّمَ العلمَ وعرَفَ الطريقَ ثم لم يسلِّكها ، فهو منافقٌ عليمٌ النفاق ؛ قال - سبحانه - : ﴿مَتَّلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا الْتَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثُلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِيَقِنَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة : ٥] .

والذي عنده قوَّةٌ عِملِيَّةً بدون علم .. يعني هو نشيطٌ في العبادة جدًا ، مُتَحَمِّسٌ للدين جدًا ؛ فإنه بلا شك سيخطئ ويبيتدع .. ولذلك فلا بد في هذا الطريق أيها - الأخُ الكريم - أن تتواءز القوتان العلمية والعملية ، وأن

(١) «طريق الهجرتين» (١٨٨ - ١٨٩) .

يكون لك منهج للعلم ومنهج للعبادة والعمل^(١) وي sisir المنهجان في ذات الوقت ، وتم المتابعة عليهما ، ويكون التدرج فيهما حتى يتم الوصول . وثمة شروط أخرى .. هذه الشروط هي أولى الومضات التي تُنير لك الطريق فِي شُرُوطِ الْطَّرِيقِ بها .. فَيَسِّهُلُ الْمَسِيرُ إِلَى اللَّهِ .. إِنْ شَاءَ اللَّهُ

* الْوَمْضَةُ الْأُولَى : شُرُوطُ الْطَّرِيقِ :

أوَّلًا : الدَّلِيلُ .. وهو الشيخ المربي والعالم العامل والأستاذ السابق والخبير المجرّب ..

إنك تحتاج في طريقك إلى شيخ ذي بصيرة نافذة .. يُدْلِلُ وينصح .. يُهذّب ويتابع .. يستشِفُ ويستتّجُ .. يلاحظ ويعرف .. إنه مجرّب خرّيت ..

إنه ليس دليلك على الطريق فقط ؛ إنما هو دليلك على نفسك ماذا تصلح وكيف تصلح .. يصبحك في سيرك ويربيك بالمعاصرة .

أيها الإخوة ، إنَّ الطَّرِيقَ هَذِهِ طَرِيقٌ وَاسِعَةٌ .. وَهَذَا شَرْطٌ فِي صَفَةِ الصِّرَاطِ ؛ أَنْ يَسْعَ جَمِيعَ السَّائِرِينَ .. وَلَيْسَ كُلُّ السَّائِرِينَ عَلَى طَبِيعَةِ وَاحِدَةٍ ؛ فَاللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - خَلَقَ الْخَلْقَ فَتَفاوتَتْ هَمْمُهُمْ وَتَنَوَّعَتْ مَوَاهِبُهُمْ وَاخْتَلَفَتْ طَاقَاتُهُمْ وَقَدْرَاتُهُمْ .. ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلِيفَ الْأَرْضِ وَرَقَّعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَتِ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا أَتَنَّكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(١) راجع أيضًا منهج العمل والعبادة بتفصيل في «منطلقات طالب العلم» (٣٤٧ - ٣٦٦).

فأين تسير؟ .. وكيف تسير؟ .. ومن أين تبدأ؟ .. وفيما تستمر؟ ..
وممتى تتوقف وإلى متى؟ .. هذا عمل الدليل ووظيفته .. ماذا تصلح
وبماذا تهتم وفيما تتخصص؟

* طبيعة الطريق :

ولكي يتضح كلامنا في حاجتك إلى هذا المربّي؛ فلابد أن تعرف
أو لا طبيعة الطريق .. فاقرأ معي ما قاله ابن القيم - عليه رحمة الله
وبركاته - ^(١) :

«الطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه ، وهو صراطه
المستقيم الذي نصبه موصلاً لمن سلكه إليه ، قال الله - تعالى - : ﴿وَإِنَّ
هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَنْتَهُوا أَسْبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ؛ فوحد سبيله
لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه ، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة
متعددة ، كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطًا ثم قال : «هذا سبيل الله» . ثم
خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ثم قال : «هذه سبل ، على كل سبيل
منها شيطان يدعو إليه» ، ثم قرأ ﴿وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا
تَنْتَهُوا أَسْبُلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ^(٢) .

ومن هذه قول الله - تعالى - : ﴿اللَّهُ وَلِئِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ

(١) طريق الهجرتين (١٨١ - ١٨٤) .

(٢) أخرجه : أحمد (١/ ٤٣٥ ، ٤٦٥) ، والحاكم (٢/ ٣٨١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وهو حديث صحيح : صححه الحاكم ووافقه الذهبي وأحمد شاكر - رحمة الله عليهم .

الظُّلْمَةُ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلَى أُهُمُ الظَّاهُورِ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلْمَةِ [آل عمران: ٢٥٧]، فوحد النور الذي هو سبيله ، وجمع الظلمات التي هي سُبُلُ الشيطان ، ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله - تعالى - : **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلْمَةَ وَالنُّورَ** [آل عمران: ١]؛ مع أن فيه سرًا أطف من هذا يعرفه من عرف منبع النور ومن أين فاض وعماذا حصل وأن أصله كله واحد ، وأما الظلمات فهي متعددة ببعد الحجب المقتضية لها . وهي كثيرة جدًا لكل حجاب ظلمة خاصة ، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي - جل جلاله - أصلًا : لا وصفًا ولا ذاتًا ولا اسمًا ولا فعلًا ؛ وإنما ترجع إلى مفعولاته - سبحانه - ، فهو جاعل الظلمات ، ومفعولاتها متعددة متكثرة ، بخلاف النور فإنه يرجع إلى اسمه وصفته - جل جلاله - ، تعالى أن يكون كمثله شيء ، وهو نور السموات والأرض . قال ابن مسعود : «ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه» ، ذكره الدارمي عنه . وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، هل رأيت ربك ؟ قال : «نور ، أَنَّى أَرَاه !»^(١) .

ومقصود أن الطريق إلى الله - تعالى - واحد ، فإنه الحق المبين ، والحق واحد ، مرجعه إلى واحد . وأما الباطل والضلالة فلا ينحصر ، بل كل ما سواه باطل ، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل . فالباطل متعدد ، وطرقه متعددة . وأما ما يقع في الكلام بعض العلماء أن الطريق إلى الله

(١) أخرجه : مسلم (١٧٨) .

متعددة متنوعة ، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واحتلافها رحمةً منه وفضلاً ، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق . وكشف ذلك وإيضاحه أنَّ الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله . وما يرضيه متعدد متنوع ؛ فجميع ما يرضيه طريق واحد ، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال ، وكلُّها طرق مرضاته . فهذه التي جعلها الله - سبحانه وحكمته كثيرة متنوعة جدًا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم ، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأذهان والعقول وقُوَّة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد ؛ ولكن لِمَا اختلفت الاستعدادات تنوَّعت الطرق ؛ ليس لكَ كُلُّ امرٍ إلى ربه طرِيقًا يقتضيها استعداده وقُوَّته وقبُوله .

ومن هنا يُعلم تنوع الشرائع واحتلافها مع رجوعها كلُّها إلى دينٍ واحد؛ بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه ، ومنه الحديث المشهور «الأنبياء أولاد علات دينهم واحد»^(١) ؛ فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأمهات متعددة ، فشبَّه دين الأنبياء بالأب الواحد ، وشرائعهم بالأمهات المتعددة ؛ فإنها وإن تعددت فمرجعها كلُّها إلى أبٍ واحد .

١- وإذا عُلِمَ هذا ؛ فمن الناس من يكون سيدُ عملِه وطريقُه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم ، قد وفر عليه زمانه مبتغاً به وجهه الله ، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك

(١) متفق عليه : البخاري (٣٤٤٢) ، ومسلم (٢٣٦٥) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

الطريق إلى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص ، أو يموت في طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته ؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَنْ يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حُكِيَ عن جماعةٍ كثيرةٍ ممن أدركه الأجل وهو حريصٌ طالبٌ للقرآن أنه رُؤيَ بعد موته وأخبر أنه في تكميل مطلوبه وأنه يتعلم في البرزخ ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه .

٢ - ومن الناس من يكون سيد عمله **الذكر** ، قد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لماله ، فمتى فَتَرَ عنه أو قصر رأيًّا أنه قد غَيَّرَ وخسر .

٣ - ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه **الصلاه** ، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقتٌ وهو غير مشغول بها أو مستعدٌ ؛ لها أظلم عليه وقته وضاق صدره .

٤ - ومن الناس من يكون طريقه **الإحسان والنفع المتعدي** ؛ كقضاء الحاجات وتغريج الكربات وإغاثة الملهفات وأنواع الصدقات ، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه .

٥ - ومن الناس من يكون طريقه **الصوم** ، فهو متى أفتر تغيير عليه قلبه وساعت حاله .

٦ - ومنهم من يكون طريقه **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر** ، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه .

٧ - ومنهم من يكون طريقه الذي نفذ فيه **الحجّ والاعتمر** .

-٨- ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق ، وتجريد الهمة ، ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر ، وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة .

٩- ومنهم جامع المُنْفَدِ ، السالك إلى الله في كُلِّ واد ، الواصل إليه من كل طريق ؛ فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ، ونَصَبَ عينيه يؤمُّها أين كانت ويسير معها حيث سارت ، قد ضرب من كُلِّ فريقٍ بسُبُّهم ، فأين كانت العبودية وجَدْتَه هناك : إن كان علم وجَدْتَه مع أهله ، أو جهاد وجَدْتَه في صَفَّ المجاهدين ، أو صلاة وجَدْتَه في القانتين . أو ذكر وجَدْتَه في الذاكرين ، أو إحسان ونفع وجَدْتَه في زُمرة المحسنين ، أو مراقبة ومحبة وإنابة إلى الله وجَدْتَه في زمرة المحبين المنبيين ، يَدِينُ بدين العبودية أنَّى استقلت ركابُها ، ويتوجَّهُ إليها حيث استقرت مصاربُها ، لو قيل له : ما تريده من الأعمال؟؛ لقال : أريد أن أُنْفَدَ أوامر ربِّي حيث كانت وأين كانت ، جالية ما جَلَبْتُ مقتضيةً ما اقتضت جَمَعَتْني أو فَرَقَتْني ، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها ، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر ، قد سَلَّمْتُ إليه المَبِيع متطرضاً منه تسليم الثَّمن ﴿إِنَّ اللَّهَ أَشَرَّى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ يَأْتِي لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبه: ١١١].

فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقةً ، ومن النفوذ إليه أن يتصل به قلبه ويعُلق به تَعْلُقُ الْمُحِبِّ التَّامُ الْمَحَبَّةُ بمحبوبه ؛ فيسلو به عن جميع المطالب سواه ، فلا يبقى في قلبه إلا محبة الله وأمره وطلب التقريب إليه .

فإذا سلك العبد على هذا الطريق عَطَفَ عليه رَبُّه فَقَرَبَه واصطفاه ،

أصول الوصول إلى الله تعالى

وأخذ بقلبه إليه ، وتوّلاه في جميع أموره في معاشه ودينه ، وتوّلى تربيته أحسن وأبلغ مما يربّي الوالد الشقيق ولده ؛ فإنه - سبحانه - القِيُومُ الْمُقِيمُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْمُخْلوقات طائِعَهَا وعاصِيهَا ، فكيف تكون قِيُومِيَّةُ بَمِنْ أَحَبَّهُ وَتَوَلَّهُ وَأَثْرَهُ عَلَى مَا سَوَاهُ ، وَرَضِيَّ بِهِ مِنَ النَّاسِ حَبِيبًا وَرَبِّا وَوَكِيلًا وَنَاصِرًا وَمَعِينًا وَهَادِيًّا !! ، فلو كشفَ الغطاء عن الطافه وبره وصُنعه له من حيث يعلمُ ومن حيث لا يعلم ؛ لذَابَ قلْبُه حَبًّا له وشُوقًا إِلَيْهِ وَلَتَقْطَعَ شُكْرًا لَه ؛ ولكن حَجَبَ القلوبَ عن مشاهدةِ ذلك إِخْلادُهَا إِلَى عَالَمِ الشهواتِ والتَّعْلُقِ بِالْأَسْبَابِ ، فَصُدِّتْ عَنْ كَمَالِ نَعِيمِهَا ، وَذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَإِلَّا فَأَيُّ قَلْبٍ يُذُوقُ حلاوةَ معرفةِ اللَّهِ وَمَحْبَبَتِهِ ثُمَّ يَرْكُنُ إِلَى غَيْرِهِ وَيَسْكُنُ إِلَى مَا سَوَاهُ ؟ ! هَذَا مَا لَا يَكُونُ أَبْدًا » اهـ .

استبانَتِ الطَّرِيقُ .. رَحِمَكَ اللَّهُ يا شِيخِ الإِسْلَامِ وَيا عَلَمِ الْأَعْلَامِ ابنَ الْقِيَمِ ، فِيَا لَكَ مِنْ عَالَمَةٍ مُرَبِّ .. وَرَأَيْتَ تَنَوَّعَهَا فَإِلَى أَيْنَ تَذَهَّبُ ، وَكَيْفَ تَذَهَّبُ؟ .. وَمَنِ الَّذِي يُوجِّهُكَ وَيَحْثُكُ؟ .. وَيُرِيشُدُكَ وَيُسْتَشِرُكَ غَيْرُ الْمُرَبِّ؟ ! .. قَالُوا : وَاللَّهِ لَوْلَا الْمُرَبِّ مَا عَرَفْتُ رَبِّي .

إِذَا فوَظِيفَهُ هَذَا الْمُرَبِّ أَنْ يَخْتَارَ لَكَ ، وَأَنْ يَقْتَرَحَ عَلَيْكَ ؛ بَلْ قَدْ يُلْزِمُكَ أَحْيَا نَا بِمَا يُخَالِفُ هَوَاكَ وَتَظَنُّ أَنَّكَ لَا تُفْلِحُ فِيهِ وَأَنَّكَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لَهِ .

وَقَدْ تَصْبِحُ - أَيَّهَا الْأَخُ الشَّابُ الْكَرِيمُ الْمِفْضَالُ - وَتَرَفُّ عَقِيرَتَكَ سَائِلًا : أَيْنَ الْمُرَبِّ؟ أَيْنَ الْمُرَبِّ؟ .. وَأَنَا أَقُولُ لَكَ : ﴿وَمَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَخْرَجًا ﴾ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسِيبٌ وَإِنَّ اللَّهَ بَلَغَ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣-٢] .

إِنَّكَ - أَيُّهَا الطَّيِّبُ - تبحثُ عن المشاهيرِ الأعلامِ وتظنُّ أنه لا يَصلُحُ
لتربيتكَ إِلا هؤلاء .. وهذا من الغرورِ والسفَهِ ؛ فالمشاهيرُ من الدُّعَاءِ والعلماءِ
والأركانِ وطلبةِ العلم ، يدفعون ضريبةَ الشُّهْرَةِ ؛ فلا وقتَ عندهم لأحد ..
تكتفيَّهم همُوْهُم ومشاغلُهُم .. وَهُمْ معدورون - غفرَ اللَّهُ لَنَا وَلَهُمْ .

فتواضعُ - أخِي الكَرِيم - وابحث عن هذا المُرَبِّي .. أخٌ مغمورٌ
لا يُعرَفُ .. لا يُؤْبَهُ له؛ ولكنه قديم .. يبدو في وجهِه سُمْتُ
الصَّالِحِين .. عابدٌ قلماً تراه يخالطُ النَّاسَ فيما يخوضون فيه .. سابقٌ
بالخيرات .. التزم مُنْذُ سنينٍ وسَبَرَ أغوارَ الطريق .

قل لي : لن أجده .. وأنا أقول لك : سوف تجد ؛ قال - سبحانه - :
 ﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَهُدِينَهُمْ سُبُّلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ..
وهذه أيضًا من قوانين هذا الطريق .. أنه لا يُعطى مِنْحَةَ السير فيه إِلا مَنْ
حَرَصَ وبدَلَ وضَحَّى .. ابْحُثْ واصْدُقْ واحْرُصْ واصْبِرْ تُعَطَ .. تلك
أصْوْلُك يا مسكيـن .

ثانيًا : الصَّاحِبُ .. في الهجرة دروسٌ وأسرار .. لمَّا أراد رسولُ اللَّهِ
أن يهاجر اصطحبَ رجليـن .. رجلين فقط .. دليلاً وصاحبـاً ..
الدليلُ كان خـريـتاً بصيراً بالطرق ، وهذا مهمته تنتهي عند ذلك .. أن يَدْلُـلَ
على الطريق .. أمَّا الصَّاحِب فكانت الشُّروطُ فيه كثيرةً جدًّا ..

لـكَ أن تتساءل لـمَ لـم يصطحبُ عـمر وهو أشـجع ، وـسفرـة مـثلـ هذه
يـحتاجـ فيها إـلى الشـجـاعة ، أو لـمَ لـم يـصطـحبـ عـلـيـاً وهو أـشـبـ وـمنـ
الـأـهـلـ ، وـالتـضـحـيـةـ بـهـ أـسـهـلـ ؛ بـدلـيلـ أـنـ نـامـ فـيـ فـراـشـهـ .

أصول الوصول إلى الله تعالى

لَمْ اخْتَارْ أَبَا بَكْرَ دُونَ النَّاسِ؟ .. إِنَّ الصُّحْبَةَ فِي طَرِيقِ السَّفَرِ تَحْتَاجُ إِلَى شَخْصٍ عَلَى الْمَنْهَجِ؛ لَذَا اخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ رَجُلًا قَلْبُهُ قَرِيبٌ مِّنْ قَلْبِهِ فَلَمْ يَخْتَلِفَا مَرَّةً .. انْظُرْ مَعِي إِلَى حادِثَةِ الْغَارِ :

لَمَّا قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَوْ نَظَرَ أَحَدُهُمْ تَحْتَ قَدَمِيْهِ لَرَأَانَا ؛ فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

«لَا تَحْزُنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» ، فَمَاذَا كَانَ رَدُّ أَبِي بَكْرٍ أَوْ تَعْلِيقُهُ عَلَى هَذِهِ الْمَقْوُلَةِ؟ .. بِالْتَّأْكِيدِ لَا شَيْءٌ .. انتَهَتِ الْقَضِيَّةِ .. سَلَّمَ .

وَأَنَا مُتَأْكِدٌ أَنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُ أَبِي بَكْرٍ لَظَلَّ قَلْقًا وَأَعَادَ الْمَسْأَلَةَ ؛ وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ قَلْبُهُ عَلَى قَلْبِهِ سَلَّمَ .. وَاسْتَرَاحَ الرَّسُولُ وَاسْتَرَاحَ أَبُو بَكْرٍ .

الخلاصة : إنني أقول لك : لابد من صاحب في هذا الطريق على نفس المنهج قلبك كقلبك ؛ لأنني أراك - أيها الحبيب المحب - قد خدعوك .. فقالوا : ابحث عنمن يشدك .. وتفاجأ بأنَّ كُلَّ الناس يبحثون عنمن يشدُّهم هذه الأيام .. وتفاجأ أنَّ الشدَّ إلى أسفل لا إلى أعلى .

إنني أريد - أيها الحبيب - أن تبحث عن مسكين مثلك يبحث عن الطريق إلى الله ويريد أن يصل إلى الله .. هذا شرطه .. إنه حريص على طاعة الله يريد الوصول إلى الله .. ابحث عنه وارض به ولا تشترطه من الكمال ؛ فمن لم تكمل نفسه لا ينبغي له أن يبحث عن الكمال عند الآخرين .

قال الفضيل بن عياض : من طلب أخا بلا عيب ؟ صار بلا أخي .

إذا لا ينبغي أن يزهد السائر إلى الله في أخيه السائر معه على الطريق لخُلُقِ أو حُلُقين يُنكِّرُهما فيه ، إذا رضي سائر أخلاقه ؛ لأنَّ اليسير مغفور والكمال مستحيل .

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضِي سِجَایَاهُ كُلُّهَا
كَفِى الْمَرءَ نُبْلًا أَنْ تُعَدَّ مَعَايِّبُه

وَقَالَ أَبُو الدَّرَداءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : مَعَاتِبُ الْأَخْ خَيْرٌ لَكَ مِنْ فَقِيدِهِ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحَكَمَاءِ : طَلْبُ الْإِنْصَافِ مِنْ قِلَّةِ الْإِنْصَافِ .

وَقَالَ بَعْضُ السَّلْفِ : « لَا يُزِهدَنَّكَ فِي رَجُلٍ حَمِدْتَ سِيرَتَهُ ،
وَارْتَضَيْتَ وَتِيرَتَهُ ، وَعَرَفْتَ فَضْلَهُ ، وَبَطَّنْتَ عَقْلَهُ ، عَيْبٌ خَفِيٌّ ، تُحِيطُ بِهِ
كُثْرَةُ فَضَائِلِهِ ، أَوْ ذَنْبٌ صَغِيرٌ تَسْتَغْفِرُ لَهُ قُوَّةُ وَسَائِلِهِ » ^(١) .

وَلَا أَعْدِمُكَ (أَخْرِمُكَ) النَّصِيحَةِ .. قَدْ يَكُونُ هَذَا الصَّاحِبُ زَوْجَتَكَ
أَوْ وَالَّدَكَ أَوْ شَقِيقَكَ أَوْ شَقِيقَتَكَ حَتَّىٰ وَإِنْ كَانَ ابْنَكَ أَوْ بَنْتَكَ .. وَعِنْدَهَا
يَصِيرُ الْأَمْرُ أَقْوَىٰ .. لِأَنَّ الْمَعَاشَةَ وَطُولَ الصَّحَّةِ وَالْتَّطْبِعَ بِطَبَاعِ السَّفَرِ
مِنْ لَوَازِمِ هَذَا الطَّرِيقِ .. وَلَكِنَّ كَمَا ذَكَرْتَ لَكَ عَلَىٰ قَلْبِ وَاحِدٍ ؛ لِأَنَّ
الْخَلَافَ كُلُّهُ شَرٌّ ، وَالطَّرِيقُ مَشْغَلٌ ، وَالْأَنْشَغَالُ عَنْهَا مَهْلَكَةٌ - ؛ فَلَا
تَصَاحِبْ إِلَّا موافِقاً كَيْ لَا يَزِيدَ الْجَدْلُ وَيَكْثُرُ الْخَلَافُ وَيُضِيِّعَ الطَّرِيقَ .

* رُفْقَةُ الطَّرِيقِ :

قَدْ ذَكَرْتَ لَكَ أَنَّهُ صَاحِبٌ .. وَلَمْ لَا يَكُونُوْنَ صُحْبَةً؟ .. قَالَ -

سَبَحَانَهُ - : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشَدُاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَهُمْ
رُكَعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ
مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرِثَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَعَ أَخْرَجَ شَطَئَمُ فَازَرَهُ فَاسْتَغَاظَ فَأَسْتَوَىٰ
عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩] .

(١) أدب الدنيا والدين ، للماوردي (١٧٤) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

نعم : لابد لك - أيها الحبيب الساير إلى الله - من رفقة وصحبة في هذا الطريق .. لابد لك من مجموعة تائس بها ؛ لذهب عنك وحشة التفرد ، وتصح لك الأخطاء ، وتوضح لك عقبات الطريق .

وإذا كانت الرفقة مهمّة ومطلوبة في سفر الدنيا ، فكيف بأسفار الآخرة ، التي يكون فيها المؤمن أشد حاجة إلى المعين الصالح ، والمشارك الموافق ، الذي يكون مع شريكه كاليدين تغسل إحداهما الأخرى .. فالزم الركب - أيها الحبيب - ؛ فلركب خيرية .

« وإن لرفقاء ذرب الآخرة خصائص ومواصفات لابد منها ؛ فرفقاء الطريق إلى الله - تعالى - هم الذين علّت هممهم ، وصفت نياتهم ، وصح سلوكهم ، حتى سبقو الناس وتركوا السكون ، وتزاحموا على ركوب القافلة ركبًا إلى الله - تعالى - ، وتسارعوا إلى مرضاته ، ﴿وعجلت إلَيْكَ رَبِّ لِرَضَى﴾ [طه: ٨٤]؛ فلم يوقف لهم على رسم ، ولم يتزموا باسم ، ولم يتتظروا أن يشار إليهم بالأصابع ، أو ترفع لهم الأعلام ، فقد علت منهم الهمة التي لا تقف دونها حركة السفر ، ولا يرضى صاحبها بغير الخالق عوضًا ، كما صفا منهم القصد الخالص من الشوائب حتى لا تعوق عن المقصود ، وكان منهم التجدد التام للعبد ، وعلامة أخرى لرفقاء الطريق هؤلاء ، ألا وهي صحة السلوك السالم من الآفات والعوائق والقواعد والحبج»^(١) .

(١) مسافر في قطار الدعوة ، للشווيخ (٨١) بتصرف يسير .

وصحة السلوك السالم هذه لا تكون إلا بثلاثة شروط هي تمام خصائص إخوان الدرك وخلان الطريق :

«أحدها : أن يكون الدرك الأعظم الدرك النبوى المحمدى ، لا على الجواب الوضعية .. الثاني : أن لا يُجَبِّب على الطريق داعي البطالة والوقوف والدعة .. الثالث : أن يكون في سلوكه ناظراً إلى المقصود .. ف بهذه الثلاثة يَصْحُّ السُّلُوك ، والعبارة الجامعه لها أن يكون واحداً لواحد ، في طريق واحد»^(١).

* الْوَمْضَةُ التَّانِيَةُ : حَدَّدْ هَدَفَكَ :

تُرَى كيف يسافر المسافر وهو بلا مقصد؟ .. فبالنسبة يتَحدَّد السفر وتتوَضَّح الوجهة وعلى أساسها يُخططُ منهج الرحلة طالت أم قصرت ، وعلى صدقها يُحمل الزاد .. وهكذا سفر المؤمن لابد له من النية الصادقة ؛ قال رسول الله ﷺ : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا ، أَوْ امْرَأَةٌ يُنِكِّحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»^(٢).

فحَدَّدْ هَدَفَكَ - أخي الكريم .. ماذا تريد بهذا الطريق .. تحديداً واضحاً لا لبس فيه ؛ حتى تستطيع الوصول إلى ما حَدَّدْتَهُ .

آلزمنت لتكون شيئاً مشهوراً أو زعيماً متبوعاً .. آلتزمت وسلكت هذا

(١) تهذيب مدارج السالكين (٩٠٦/٢).

(٢) متفق عليه : البخاري (١) ، ومسلم (١٩٠٧).

أصول الوصول إلى الله تعالى

الطريق لفشلك في الحصول على الدنيا ، فأردت أن تحصل عليها بزَعْمِ الآخرة .. حَدَّد هدفك أيها المسكين ، واعلم أنَّ العليمُ الخبير بالنوايا بصير .

لَمَّا ذَهَبَ أَعْرَابِيًّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْجَهَادِ فَقَسَمَ لَهُ قَسْمًا مِنَ الْفَيْءِ؛ قَالَ الرَّجُلُ: «مَا عَلَى هَذَا تَبْعِثُكَ!».. فَحَرَرْ زَيْتَكَ: عَلَامَ اتَّبَعْتَنَا؟!

«وَالنِّيَّةُ - أيها الحبيب - أصل العبادات ، وبها يتميز الصحيح من السقيم ، والخالص من غيره ، وبالنية تتحدد منازل السالكين ، ووجهة القاصدين ، ومن يريد بها وجه الله - تعالى - ، أو يريد السفر بأي نوع كالهجرة ؛ إذ إنها قد تكون لمصلحة دنيوية ، أو دنيا يصيّبها أو امرأة ينكحها ، وبهذه النية تتحدد الإخلاص الذي به يؤجر المرء على متاعِ الطريق ، وبه يَسْتَعْذِبُ العذاب ، وبه تَهُونُ مَسَاقُ الطريق .

وَالإخلاصُ وحدهُ يقودُ إلى شفافية القلب ، وصفاء الوجدان ؛ لأنَّ المؤمن لا يفکّر بعده إلا في عظمة ربِّه ولا يتوجه إلا إلى خلقه .. فلا يُضِيرُه متاعُ المتبطّلين ، ولا نداء المرجفين ، ولا يُقْعِدُهُ فتورُ الهاهابطين»^(١) .

يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - :

«فَالإخلاصُ سَبِيلُ الْخَلاصِ ، وَالإِسْلَامُ هُوَ مَرْكَبُ السَّلَامَةِ ، وَالإِيمانُ شَاطِئُ الْآمَانِ»^(٢) .

(١) مسافر في قطار الدعوة (٢٢) بتصرف يسير .

(٢) مفتاح دار السعادة (٧٢) بتصرف يسير .

إِذَا تَحْدَدْتُ وِجْهُكَ - أَيْهَا السَّائِرَ - وَعُلِمَ مَقْصِدُكَ بِتَوْحِيدِيْنِ : هَمَا تَوْحِيدُ الْقَصْدَ وَتَوْحِيدُ الْمَقْصُودَ ؛ فَالْمَقْصُودُ هُوَ اللَّهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، وَالْقَصْدُ إِرَادَةُ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ .. إِذَا تَحْدَدْتُ وِجْهُكَ هَذِهِ وَعُلِمَ مَقْصِدُكَ هَذِهِ ؛ فَقَدْ اسْتَرْحَتْ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ .. وَسِيَتَبَيَّنُ لَكَ ذَلِكَ حِينَ نَذْكُرُ فِيمَا بَعْدِ أَنَّ الْمُشَغِّلِينَ كَثِيرٌ ، وَالسُّبْلُ مُدْلِهَمَةٌ ، وَالْعَوَارِضُ تُفْتَرُ الْعَزَيْمَ .. إِذَا حَصَلَ تَوْحِيدُ الْقَصْدَ وَتَوْحِيدُ الْمَقْصُودَ لَمْ يُلْتَمِّسْ إِلَى الْأَغْيَارِ .

فَالنِّيَّةَ - أَخِي السَّافِرُ - النِّيَّةُ .. النِّيَّةُ بِدَائِيْهِ الطَّرِيقِ .. فَطَهَرْ قَلْبَكَ لِتَسْتَعِدَ لِلِّسَافَرِ .

* الْوَمْضَةُ التَّالِثَةُ : مُقَوِّمَاتُ السَّافَرِ :

إِذَا كُنْتَ - أَخِي السَّالِكَ - لَا زِلْتَ مُصْرَّاً عَلَى الإِتِّمامِ ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ مُقَوِّمَاتِ السَّافَرِ : الْمَنْهَجُ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْهُجَنَا مَعْصُومٌ ؛ فَلَا مَجَالٌ لَنَا لِلْاجْتِهَادِ فِيهِ ؛ إِذَا تَفَقَّدَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادَاتِ تَوْقِيفِيَّةٌ ؛ الظَّاهِرُ مِنْهَا وَالبَاطِنُ ، وَلَذَا فَقَدْ تَكَفَّلَ الشَّرْعُ - كِتَابًا وَسُنْنَةً - بِوَصْفِ الْمَنْهَجِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ وَصَفَّا لَا يَرِيْدُ عَنْهِ إِلَّا هَالِكَ .

قَالَ - سُبْحَانَهُ - : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَهُدَى﴾ [اللَّيل: ١٢] .. . وَإِذَا قَالَ : ﴿عَلَيْنَا﴾
 فَقَدْ وَجَبَتْ .. . وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - : ﴿وَهَدَنَا إِلَيْهِ النَّاجِدِينَ﴾ [الْبَلد: ١٠]
 وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - حَاكِيًّا عَنْ مُوسَى لَمَّا سُئِلَ عَنْ رَبِّهِ أَنَّهُ عَرَفَهُ فَقَالَ :
 ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَانَا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - :
 ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَنَاهُمْ حَتَّى يَبْيَنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾
 ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التُّورَة: ١١٥] ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيَنَا

أصول الوصول إلى الله تعالى

**إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَبِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ يُبَارِدُ لَخَيْرِ
بَصِيرٍ** [فاطر: ٣١].

وقال رسول الله ﷺ: «تركتكم على المَحَاجَةِ البيضاء»، وفي رواية
«بيضاء نقية كالشمس لا يزيغ عنها إلا هالك»^(١).

وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً
كتاب الله وسُنتِي»^(٢) وقال ﷺ: «إنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً
كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عَضُوا عليها بالنواجد، وإياكم
ومحدثات الأمور؛ فإن كُلَّ محدثة بدعة، وكُلَّ ضلالٍ في النار»^(١).

بهذه النصوص وإجماع الأمة يتبين لنا يقيناً لا شك فيه أن الدين
كُمل .. والطريق وُصفت .. والمَعَالَمُ نُصِبَت .. والأصول وُضِعَت ..

فلا مجال لهُرُسُ الهرائسة، ولا لقرْمَطَةِ القرامطة .. لا مجال لفرْلَكَةِ
المتفزلكين، ولا مَنْظَرَةِ المغوروين المُعْجَبِين .. لا مجال لتحديثِ
الدين ، ولا للفَهْمِ المستنير - زعموا - ، ولا لِيداعِ أهْلِ الأهواء .. الدين
دينُ مُحَمَّدٍ وما كان عليه وأصحابه ..

قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة
وافتربت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلثٍ

(١) أخرجهُ : أحمد (١٢٦/٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذني (٢٦٧٦) وقال : حسنٌ
صحيح ، وقال الألباني - رحمه الله - : صحيح .

(٢) أخرجهُ : أحمد (٥٩/٣)، والترمذني (٣٧٨٦) وقال : حسنٌ غريب ، وانظر
«الصحيحة» (١٧٦١).

وسبعين فرقة كُلُّها في النار إِلَّا واحِدة ؛ ما أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي ، وَلَيَكُونَنَّ مِنْ أَمْتِي أَقْوَامٌ تَجَارِي بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءِ كَمَا يَتَجَارِي الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مِفْصَلٌ إِلَّا دَخَلَهُ»^(١) .

وإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ وَأَمْثَالَهُ لِيَزِيدُ الْمُؤْمِنَ إِيمَانًا - وَاللَّهُ - حِينَ يَرَى تَجَارِيَ الْأَهْوَاءِ بِالْقَوْمِ .. فِي أَيُّهَا السَّائِرُ الْكَرِيمُ ، الْمَنْهَجُ مَعْصُومٌ لَا مَجَالٌ لِلْجَهَادِ فِيهِ .. عَلِمْتَ هَذِهِ أَوَّلًا فَخَذِ الْثَّانِيَةَ .

إِذَا كَانَ الْمَنْهَاجُ مَعْصُومًا فَلَا بُدُّ مِنَ الْمَنْهَاجِ ؛ فَالْبَدِيَّةُ - بَدِيَّةُ السَّيِّرِ - غَيْرُ الْمَنْهَاجِيَّةِ تَؤْدِي إِلَى الْفَتُورِ وَتَقْوُدُ إِلَى الْإِنْتِكَاسِ ، ثُمَّ تُكْثِرُ الشَّكُورِ وَلَا سَمِيعٌ وَلَا مُجِيبٌ .

لَا بُدُّ مِنْ مَنْهَاجٍ حَقِيقِيٍّ فِي السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، وَفِي أَصْوَلِ التَّعْبُدِ : الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجَّ وَالْعُمْرَةُ وَنَوَافِلُهَا .. أَقْصِدُ أَنْ تُحَدِّدَ لِنَفْسِكَ مَنْهَاجًا : مَاذَا سَتَفْعُلُ ، وَكَمْ ، وَمَتَى ، وَكَيْفَ؟ ، وَتَلْتَزِمُ بِهَذَا الْمَنْهَاجَ وَتَتَّبَعُ عَلَيْهِ مَحَاسِبَةً شَدِيدَةً .

مَثَلًا .. كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي الْيَوْمِ أَرْبَعِينَ رَكْعَةً ؛ سَبْعَةَ عَشْرَةَ فَرَائِضٍ ، وَاثْتَيْ عَشْرَةَ رَوَاتِبٍ ، وَإِحدَى عَشْرَةَ تَهْجُدًا وَكَانَ إِذَا فَاتَهُ شَيْءٌ مِنْهَا قَضَاهُ .. حَتَّى ثَبَّتَ أَنَّهُ قَضَى سُتَّةَ الظَّهَرِ بَعْدَ الْعَصْرِ .. إِنْ كُنْتَ تُطِيقُ هَذَا وَتَلْتَزِمُهُ فَالْتَّزِمْ وَلَا تُفَرِّطْ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْهَالَ الْأَسْتِسْهَالِ .

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ (٤/١٠٢) ، وَأَبُو دَاوُدَ (٤٥٩٧) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ - فِي «الصَّحِيفَةِ» (٢٠٣) ، (٢٠٤) .

ومثلاً آخر . . كان الصحابة يحزبون القرآن ؛ أي يختمون كل جمعة مرّة . . يبدأون من عصر الجمعة ويختمون عصر الخميس بمعدل خمسة أجزاء يومياً . . أفتطّيق هذا؟ . . التزم ولا تفرط . . وإياك وإسهال ولا استهسال .

على هذين المثالين فقس في أجنحة المنهج الثلاثة : طلب العلم ، والعبادة ، والدعوة إلى الله . . اجعل لك منهجاً واضحاً . . كم ركعة ستصلّي في اليوم؟ ، وكم يوماً ستصوم في الأسبوع؟ ، وكذلك ورثتك في الذكر . . وكذا العلم والدعوة . . حدد ماذا ستفعل لتحاسب على ما حددت ولا ترك الأمور مبهمة . . ولا تنس : المنهج معصوم . . كن سلفياً على المنهج .

* الْوَمْضَةُ الرَّابِعَةُ : وَتَزَوَّدُوا :

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله عنه :

«إِنَّ لِكُلِّ سَفَرٍ زَادًا لَا مَحَالَةً ، فَتَزَوَّدُوا مِنَ الدُّنْيَا لِلآخِرَةِ ، وَكُونُوا كَمَنْ عَائِنَ مَا أَعْدَ اللَّهُ - تَعَالَى - مِنْ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ ، تَرْغِبُونَ وَتَرْهِبُونَ ، وَلَا يَطُولُنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمْدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ ، وَتَنْقَادُوا لِعَدُوكُمْ ، فَإِنَّهُ - وَاللَّهُ - مَا بَسْطَ أَمْلُ مَنْ لَا يَدْرِي ، لَعْلَهُ لَا يَصْبَحُ بَعْدَ مَسَائِهِ ، وَلَا يَمْسِي بَعْدَ صَبَاحِهِ ، وَرَبِّمَا كَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ خَطْفَاتُ الْمَنَيَا ، فَكُمْ رَأَيْنَا وَرَأَيْتُمْ مَنْ كَانَ بِالْدُّنْيَا مُغْتَرًّا ، وَإِنَّمَا تَقْرُ عَيْنُ مَنْ وَثِيقَ بِالنَّجَاهَةِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا يَفْرَحُ مَنْ أَمِنَ مِنْ أَهْوَالِ الْقِيَامَةِ»^(١) .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (٢٥٨) .

وقال ابن الجوزي - رحمة الله :

«عجبًا لراحل مات وما تزود للرحلة ، ولمسافر ما جاج وما جمع للسفر
رحله ، ولم يتنقل إلى قبره لم يتأهب للنفقة ، ولم يقرّط في أمره لم يستشر
عقله .. إخواني ، مر الأقران على مدرجات ، وخيول الرحيل للباقين
مُسْرَجَة ، سار القوم إلى القبور هملجَة ، وباتت أرواح من الأشباح
مُسْتَخْرَجَة ، إلىكم هذا التسويف والمجمحة ، بضائعكم كُلُّها بهرجَة ،
وطريقكم صعبَة عوْسَجة ، وستعرفون الخبر وقت الحشرَجة»^(١) .

إِيْ - وَاللَّهِ - صدقت يا ابن الجوزي .. وسبحانَ الْمَلِك ! ، كم فضلُ
علم السَّلْف على علم الخلف .. انظر إلى كلام الرجل ترى رجلاً خَبَرَ
وسَبَرَ ، فتكلّم عن رؤيهِ ونظر .

فانطلق في رحلتك على بصيرة وكفاكَ مَجْمَجَة ولَجْلَجَة وعَوْجَجَة .

واعلم - أخي الحبيب - أنَّ من بركات السفر إلى الله - تعالى -
ما يُتَمَّ به من إسباغ النعمة على العبد ، وما قد يفتح الله على عباده من
أبواب وخزائن النعم ، وما يتفضل به على عباده من الرحمة التي لا تخطر
على بالِ بشر إلا من عاش لذتها وارتشفَ من معينها .

* سَيِّلُ التَّزْوُد :

١ - التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ :

إِنَّـي - أيها الحبيب - حين طالبتك بالتزود والتفتَّ عنِي بِزَعْمِ أَنَّـكَ

. (١) المُدْهِش (٢١١).

أصول الوصول إلى الله تعالى

لا تَمْلُكُ ، وَفَتَرَكَ الشَّيْطَانُ بِالْفَتْتِ فِي عَصْدِكَ بِادْعَاءِ أَنَّكَ لِلَّهِ عَاصٍ .. لَمْ أَطْالِبُكَ حِينَ طَالَبْتُكَ مِنَ الرَّادِ غَيْرَ : التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ .. ثُمَّ يُعْطِي اللَّهُ الْبَرَكَةَ فِيهِمَا لِلمسافِرِينَ ، وَيُمْحِقُ الْبَرَكَةَ مِنَ الْجَهَلَةِ الْبَطَالِينَ .

إِنَّ حَلاوةَ الإِيمَانِ أَعْظُمُ زَادٍ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ ، وَلَا يَتَذَوَّقُ حَلاوةَ السِّيرِ وَلَذَّةَ هَذَا العِيشِ إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ نَصِيبٌ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَعَاشَ حَقَائِقَ الْإِيمَانِ ، وَجَرَبَ هَذِهِ اللَّذَّةِ ..

«إِنَّ اللَّذَّةَ وَالْفَرَحَةَ وَالسُّرُورَ وَطِيبَ الْوَقْتِ وَالنَّعِيمِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ ؛ إِنَّمَا هُوَ فِي مَعْرِفَةِ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَتَوْحِيدِهِ وَالإِيمَانِ بِهِ ، وَانْفَتَاحِ الْحَقَائِقِ الإِيمَانِيَّةِ ، وَالْمَعَارِفِ الْقُرَآنِيَّةِ ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الشِّيُوخَ : لَقَدْ كُنْتَ فِي حَالَةٍ أَقْوُلُ فِيهَا : إِنْ كَانَ أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ إِنْهُمْ لَفِي عِيشٍ طَيِّبٍ ، وَقَالَ آخَرُ : لَتَمُرُّ عَلَى الْقَلْبِ أَوْقَاتٌ يَرْقُضُ فِيهَا طَرَبًا»^(١) ، وَيَقُولُ الْآخَرُ مَعَ فَقْرِهِ : لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ لَجَالَدُونَا بِالسُّيُوفِ .. اللَّهُمَّ لَا تَحْرَمْنَا لَذَّةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَ الإِيمَانِ وَحَلاوةَ الإِيمَانِ .. آمِينَ .

- اليقين :

وَأَنَا إِنَّمَا أَقْصِدُ - أَيُّهَا الْحَبِيبُ - أَنَّهُ فِي الْبِدايَةِ يَكْفِي مِنَ الزَّادِ الْيَسِيرِ ثُمَّ بِرَكَةُ اللَّهِ - تَعَالَى - يَبْارِكُ فِي الْقَلِيلِ فَيَصِيرُ كَثِيرًا .. فَتَزَوَّدُ لِهَذَا السَّفَرِ ابْتِدَاءً بِعُدُّهِ هِيَ الْيقِينُ .. يَقُولُ ابْنُ الْقِيمِ - عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ - :

(١) الفتاوى ، لابن تيمية (٢٨/٣١) .

«وفي الطريق أودية وشعوب ، وعقبات ووهود ، وشوك وعوسمج ، وعليق وشبرق ، ولصوص يقطعون الطريق على السائرين . ولا سيما أهل الليل المدلجين . فإذا لم يكن معهم عدد الإيمان ، ومصابيح اليقين تتقد بزينة الإخبار ؛ وإلا تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبت بهم تلك القواطع . وحالت بينهم وبين السير»^(١) .

فلا بد ابتداءً من يقين ينير لك الطريق .. فاليقين نور .. هذه هي العدة الثانية من الرزاد .. اليقين في الله - تعالى - ، واليقين في رسول الله ﷺ دليلاً ، واليقين في المنهج موصلاً .

«ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نوراً وإشراقاً . وانتفى عنه كُلُّ رِيبٍ وسخطٍ ، وهم وغم . فامتلأ محبة لله ، وخوفاً منه ، ورضا به ، وشكراً له ، وتوكلًا عليه ، وإنابة إليه . فهو مادةً جمِيع المَقامات والحاصل لها»^(٢) .

٣- التقوى :

وتزود - أيها السائرون - أيضاً بتقوى الله في السر والعلانية ؛ فإنها السبيل الأوحد للإخلاص .. وهي : طاعة الله ؛ بلزوم الأمر والنهي .. قال - سبحانه - : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ حَيْثَ الْزَادَ الْقُوَّىٰ وَأَنَّمُونَ يَتَأْوِلُ إِلَّا لَبَّى﴾ [البقرة: ١٩٧] .

تزودوا - أيها السائرون - كلًّا ساعة ؛ فإن «الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها منها الظعن ، فكم عامرٍ

(١) مدارج السالكين (٨/٢) بتصريف يسير .

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٧٢٧/٢) .

موثق عمّا قليل يخرب ، وكم مقيم معتبر عمّا قليل يظعن ، فأحسنوا - رحmkm اللـهـ - منها الرحلة ، فأحسنـ ما يحضر بـكم من النـقلة ، وتزـدواـ فـإنـ خـيرـ الزـادـ التـقوـيـ ، إنـماـ الدـنـيـاـ كـفـيـ ظـلـالـ قـلـصـ فـذـهـبـ ، بـيـنـماـ اـبـنـ آـدـمـ فـيـ الدـنـيـاـ مـنـافـسـ .. إنـ الدـنـيـاـ لـاـ تـسـرـ بـقـدرـ ماـ تـضـرـ ، إـنـهاـ تـسـرـ قـلـيـلاـ ، وـتـجـرـ حـزـنـاـ طـوـيـلاـ»^(١) .. إـخـوـتـاهـ ، هـنـيـئـاـ لـمـ تـزـوـدـ مـنـ الدـنـيـاـ إـلـىـ الـآـخـرـةـ ، وـمـنـ الـمـحـطـةـ الـعـاجـلـةـ إـلـىـ الـمـحـطـةـ الـأـجـلـةـ ، وـمـنـ ضـيـقـ الـمـعـاشـ إـلـىـ سـعـةـ الـمـعـادـ ، وـمـنـ دـارـ الـرـحـيلـ إـلـىـ دـارـ الـبـقـاءـ .

٤- الإخلاص :

أما الإخلاص ؛ فنبأه عجيب وخطره عظيم .. وهو زادك الرابع الذي لا يصلح هذا الطريق إلا به وهو أساس التزود ومتنهاه .. وحصر الوصول في المخلصين ؛ قال - سبحانه وتعالى - : ﴿قَالَ فَإِنَّكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

ومعلوم أنَّ الإغواء للغاوين الذين عرفوا الطريق فلم يسلكوها .. فالناسُ ثلاثة : راشدٌ وضالٌ وغاوٌ ؛ فالراشدُ مَنْ عَرَفَ الطَّرِيقَ وَسَلَكَهَا ، والضالُّ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الطَّرِيقَ فَضَلَّ عَنْهَا ، والغاوي هو الذي عَرَفَ الطَّرِيقَ وَلَمْ يَسْلُكْهَا .. فالإخلاصُ زادَ خطرـ .. فتزـوـدـ أـيـهـ السـائـرـ .

٥- الخبيئة :

ومن الزاد خبيئة .. خبيئة مِنْ عمل صالح لم يطلع عليه بـشـرـ ، يـصلـحـ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي (٢٥٨).

للتسلل به في محطات الطريق ومطباته ، كما توسل الذين أتوا إلى الغار -
فانطبقت عليهم الصخرة - بخياباً أعمالهم الخالصة .

٦- الصبر :

وآخر الزاد الصبر .. الصبر في الطريق .. قال رسول الله ﷺ :
 «السفر قطعة من العذاب»^(١) .. فإذا كان سفر الدنيا يسبب المشقة
 والتعب ؛ فكيف بسفر الآخرة الذي فيه للأواء والنصب !!
 قال - تعالى - : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

قال الفخر الرازي : في الكبد وجوه :

أاما الأول : أي خلقناه أطواراً كُلُّها شدة ومشقة ؛ تارةً في بطنه الأم ،
 ثم زمان الإرضاع ، ثم إذا بلغ ففي الكبد في تحصيل المعاش ، ثم بعد
 ذلك الموت .

وأاما الثاني : وهو الكبد في الدين ؛ فقال الحسن : يكابد الشكر على
 السراء ، والصبر على الضراء ، ويکابد المحن في أداء العبادات .

وأاما الثالث : وهو الآخرة ؛ فالموت ومسألة الملك وظلمة القبر ، ثم
 البعث والعرض على الله إلى أن يستقر به القرار إما في الجنة وإما في النار .

وأاما الرابع : وهو أن يكون اللفظ محمولاً على الكل فهو الحق ،
 وعندني فيه وجه آخر ، وهو أنه ليس في هذه الدنيا لذة البتة ؛ بل ذاك يظن
 أنه لذة فهو خلاص عن الألم ؛ فإن ما يتخيل من اللذة عند الأكل فهو

(١) متفق عليه : البخاري (١٨٠٤) ، ومسلم (١٩٢٧) .

خَلَاصٌ عِنْدَ أَلْمِ الْجُوعِ ، وَمَا يُتَحِيلُ مِنَ الْلَّذَاتِ عِنْدَ الْمَلْبِسِ فَهُوَ خَلَاصٌ عِنْ أَلْمِ الْحَرْ وَالْبَرْدِ ؛ فَلَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا أَلْمٌ أَوْ خَلَاصٌ عِنْ أَلْمِ وَانتِقَالٍ إِلَى آخَرِ ، فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ : «لَقَدْ خَلَقْنَا إِلَيْنَاهُ كَبَدًا» [الْبَلْدَ: ٤] اهـ^(١) .

فَاعْلَمْ - أَيُّهَا الْحَبِيبُ - أَنَّ اللَّهَ يَخْتَبِرُ عَبْدَهُ بِالصَّبْرِ ؛ حَتَّى تَظَهَرَ جَوَاهِرُهُمْ ، كَمَا حَصَلَ لِلْأَنْبِيَاءِ .. «وَهَذَا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُضْرَبُ حَتَّى يُغَشَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَنْجُو فِي السَّفِينَةِ وَيَهْلِكُ أَعْدَاؤُهُ ، وَهَذَا الْخَلِيلُ يُلْقَى فِي النَّارِ ثُمَّ بَعْدَ قَلِيلٍ يَخْرُجُ إِلَى السَّلَامَةِ ، وَهَذَا الْذَّبِيعُ يَضَجِعُ مُسْتَسِلًّا ثُمَّ يَسْلُمُ وَيَبْقَى الْمَدْحُ ، وَهَذَا يَعْقُوبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَذَهَبُ بِصَرْرَهُ بِالْفِرَاقِ ثُمَّ يَعُودُ بِالْوَصْولِ ، وَهَذَا الْكَلِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَشْتَغِلُ بِالرَّعْيِ ثُمَّ يُرْقَى إِلَى التَّكْلِيمِ»^(٢) .

وَالصَّبْرُ دَوَاءٌ .. وَقَدْ قَالَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعْرِيفِهِ : حَبْسُ الْقَلْبِ عَنِ التَّسْخُطِ ، وَحَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَىِ .

فَالطَّرِيقُ طَوِيلٌ وَالْمَآسِي عَلَى الطَّرِيقِ كَثِيرٌ وَالْعَلاجُ الصَّبْرُ ؛ فَإِنَّ الْمُبْتَدَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهَرًا أَبْقَى .. وَمَا تَبَيَّنَتْ مَنَازِلُ أَصْحَابِ الْهَمِ إِلَّا بِتَبَيْنِهِمْ بِطُولِ الصَّبْرِ حَتَّى نَهَايَةِ الطَّرِيقِ . فَنَزَوَّدُ أَيُّهَا السَّائِرِ .

وَبَعْدُ : فِيَا سَعَادَةَ مَنْ اسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الْبُرُوقِ وَالْأَنْوَارِ ، وَاسْتَهْلَمَ مِنْ تَلِكَ الْإِشَارَاتِ وَالْتَّبَيِّنَاتِ ، فَعَرَفَ الطَّرِيقَ ، وَأَبْصَرَ الْمَسَارَ ، وَكَانَ نَعَمَ الْمَسَافِرُ فِي قَافْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

* * *

(١) التفسير الكبير (٣١ / ١٦٥).

(٢) صيد الخاطر ، لابن الجوزي (١٦٣).

آفات على الطريق

أخي السَّائِر إِلَى اللَّهِ ، الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ كَالطَّرِيقِ الْحِسِيَّةِ تَمَامًا .. تَجِدُ فيها أَنفَاقًا مُظْلِمَةً ، وَمُنْحَنَّاتٍ خَطِيرَةً ، وَمَطَبَّاتٍ مُرْهَقَةً ، وَكَبَارِيَّةً .. كَمَا تَجِدُ أَحِيَاً عَلَى جَبَانَتِيَّ الطَّرِيقِ حَدَائِقَ فَاتِنَةٍ وَسُبُلًا مُتَقَرِّعَةً .. وَمَنْ لَمْ يَتَبَهَّ لِمَثْلِ هَذَا وَلَمْ يَقُدُّهُ لِلْخُرُوجِ مِنْهَا خَبِيرٌ بِصِيرٌ ضَلَّ وَلَا بَدِ في الطَّرِيقِ أَوْ انْقَطَعَ .

أخي الْكَرِيمُ ، إِنَّ مَعْرِفَةَ آفَاتِ الطَّرِيقِ مِنَ الْمَهَمَّاتِ الَّتِي تَبْغِي لِلسَّائِرِ .

قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

«وَلَا يَتِمُ الْمَقْصُودُ إِلَّا بِالْهُدَى إِلَى الطَّرِيقِ ، وَالْهُدَى فِيهَا ، وَأَوْقَاتُ السَّيِّرِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَزَادَ الْمَسِيرُ ، وَآفَاتُ الطَّرِيقِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ - تَعَالَى - : ﴿إِلَّا كُلُّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [الْمَائِدَةَ: ٤٨] - قَالَ : سَبِيلًا وَسُنْنَةً . وَهَذَا التَّفْسِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَفْسِيرٍ ؛ فَالسَّبِيلُ : الطَّرِيقُ ، وَهِيَ الْمَنْهَاجُ . وَالسُّنْنَةُ : الشُّرُوعَةُ ، وَهِيَ تَفاصِيلُ الطَّرِيقِ ، وَحُزُونَاتِهِ ، وَكِيفِيَّةِ الْمَسِيرِ فِيهِ ، وَأَوْقَاتِ الْمَسِيرِ ، وَعَلَى هَذَا ، فَقَوْلُهُ : «سَبِيلًا وَسُنْنَةً» يَكُونُ السَّبِيلُ : الْمَنْهَاجُ ، وَالسُّنْنَةُ : الشُّرُوعَةُ ، فَالْمُقَدَّمُ فِي الْآيَةِ لِلْمُؤَخَّرِ فِي التَّفْسِيرِ ، وَفِي لَفْظٍ آخَرَ : سُنْنَةً وَسَبِيلًا ؛ فَيَكُونُ الْمُقَدَّمُ لِلْمُؤَخَّرِ ، وَالْمُؤَخَّرُ لِلْمُؤَخَّرِ»^(١) .

(١) شفاء العليل (٨٢).

أصول الوصول إلى الله تعالى

فجعلَ من الهدایةِ في الطريق التخلُّصُ من آفات الطريق وحزُوناته^(١) ..
ومعرفة تفاصيل تلك الحُزُونات ..

فانتبه معي لأخطر هذه الآفات - عافانا الله وإياك منها - :

* الآفة الأولى : الخوف من وحشة التفرُّد :

قال بعض السَّلْفِ : عليك بطريق الْهُدُى ولا يضرُّنَكَ قِلَّةُ السَّالِكِينَ ،
وإيَّاكَ وطُرُقَ الضَّلَالَةِ ولا يغُرِّنَكَ كُثُرُ الْهَاكِينَ .

ومن سُنَّنَ اللَّهِ الرَّبَانِيَّةِ الْكُوْنِيَّةِ أَنَّ أَهْلَ الْحَقِّ دَائِمًا قِلَّةً .. هَذَا أَصْلُ
يَنْبَغِي أَلَا يَفْوِتُكَ ؛ قَالَ - سَبَحَانَهُ - : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] ، وَقَالَ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِي
الشَّكُورُ﴾ [سباء: ١٣].

وعلى العكس : تجِدُ وصفَ الْكَثْرَةِ دُومًا مع أهل الباطل ؛ قَالَ -
سَبَحَانَهُ - : ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدِهِ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَسِيقِينَ﴾
[الأعراف: ١٠٢] ، وَقَالَ - سَبَحَانَهُ - : ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَضَتِ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣] ، وَقَالَ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَإِنْ قُطِعَ أَكْثَرُ مَنْ
فِي الْأَرْضِ يُضْلُلُوكَ﴾ [الأنعام: ١١٦] ، وَقَالَ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - : ﴿وَإِنَّ
كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَسِيقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

فإذا تبيَّنَ لك ذلك ؛ فإيَّاكَ أَنْ تستوْجِحْ من قِلَّةِ السَّائِرِينَ مَعَكَ على
الطريق ؛ فإنَّ أَكْثَرَ السَّائِرِينَ نَكْصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ حِينَ رَأُوا الْجَمْهُرَةَ الْغَالِبَةَ

(١) الحُزُونَةُ : الخُشُونَةُ ، والحزُنُ : المَكَانُ الْغَلِيظُ الْخَيْسُنُ .

على عكس طريق السير أو على جنبات هذا الصراط.. فائبت ولا تحزن.

* الآفة الثانية: فضول الكلام والخلطة:

وهذه أخطر تلك الآفات.. فضول الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.. أن يصير لقاء الناس شهوةً وعادةً ينقطع بها عن المقصود.. وقد قيل: إذا رأيت نفسك تأنس بالخلق وتستوحش من الخلوة؛ فاعلم أنك لا تصلح لله.. وإن من علامات الإفلاس الاستئناس بالناس.

وللعزلة - أيها الأخ الكريم - مزايا؛ فإن الاجتماع بالناس لا يخلو من آفات أهونها أن تنزّن للخلق.. وقد ذكر عن بعض أهل الحديث أنه قال لأن القى الشيطان أحبت إلى من أن القى حذيفة المرعشى؛ أخشى أن تنزّن له فأُسقط من عين الله.

* الآفة الثالثة: النفق المظلم:

قد يصادف السائر في طريقه نفقاً مظلماً لا يستطيع أن يميز فيه طريقه من الطريق الأخرى؛ ما لم تكن أصوات اليقين كاشفة، ومسالك الطريق معروفة؛ كيلا يضيع السائر مساره، أو يتناثر أشلاء تحت وقع الكارثة، أو يسرف في التفاؤل عندما يبصر نوراً في آخر النفق قد يكون وهم سراب.

إن مثل هذا النفق كفتن الخلاف بين المسلمين؛ إذ بينما يسير السائر في ركب الميمون، والطريق سالكة وهو يتضرر الوصول إلى المحطة التالية؛ فجأة يُظلم الطريق تماماً كالذي يدخل النفق.. يفاجأ بالظلم الدامس بعد النور المبهر.. اصطدم بعض المسلمين فيما بينهم، وبغى بعضهم على بعض؛ فالنقمت الظلمات، وانطفأت الأنوار.

أصول الوصول إلى الله تعالى

ويضطرُ السائر المِسْكين إلى ركوب الظلمة ودخول النَّفق ، فإذا لم تكن البصائر على يقين والأبصار على وضوح ؛ فالكارثة ستقع لا محالة ، ويكون التَّيُّه الذي لا يُدرِّي فيه ما المَخْرَج .

ولذا فالأنوار الكاشفة في هذا النفق تمثل في الاستمساك بوضوح المنهج : الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ؛ قال الله - سبحانه وتعالى - :

﴿وَالسَّيِّفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ أَتَبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

لابد أن تنتبه إلى ﴿وَالَّذِينَ أَتَبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ ؛ فالإحسان : الرؤية ، ليس مجرد الاتباع ؛ وإنما إحسان الاتباع .. والإحسان أن ترى ؛ قال ﷺ :

«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»^(١) .. هذا أول مَخْرَج من النَّفق .

أما الثُّور الثاني للمَخْرَج من هذا النفق المظلوم فهو ألا تشغَل نفسك بالمنافشات والجدال والرُّدود ؛ وإنما ﴿بَلِ الْإِذْنُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] .. اعرف طريقك وامض ، فإن كان ولا بد فألقِ النصيحة وانطلق .. فأخسر الناس صفةً من انشغال الناس عن نفسه ، وأخسر منه صفةً من انشغال بنفسه عن الله .. فاعرف كواشف الأنفاق .. لتخرج من هذا الظلام بسلام .

* الآفة الرابعة : جسر على الطريق :

وفي الطريق - أيها السائرون الحبيب - جسر لا بد من تجاوزه وعبوره ؛

(١) متفق عليه : البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩) .

إذ إنَّ هذا شأن السالكين إلى الله - تعالى - في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ بل وإنَّه من شأن الأنبياء والمرسلين .. ذلكُ الجسرُ هو الابلاءُ والمحنَّ التي تصيّبُ السائرَ .

فلا بدَّ في هذا الطريق أن يصقله الابلاء وأن تُظهرَ معدنه المحنَّة؛ قال الله - تعالى - : ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا إِيمَانًا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَفُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَذَّابِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣] .. وكان أولُ بشيرِ الرسول ﷺ بالنبوة إنذارُه بالإخراج .. قال ورقةً : ما أتى رجلٌ بِمِثْلِ مَا أُوتِيتَ به إِلَّا عُودِي .. وقال الرَّاهب للغلام : أنت اليوم أفضَّلُ مني وإنك ستبُتلَى .. وقيل للشَّافعيَّ : أحبَّ إِلَيْكَ أَنْ يُمَكِّنَ الرَّجُلُ أَوْ يُبْتَلَى ؛ قال لا يُمَكِّن حتى يُبْتَلَى .

فالجسرُ إلى التميكن في هذا الطريق هو الابلاء .. ولا بدَّ من الصبر فيه والاحتساب ، والرضا عن الله - تعالى - وبه ؛ فإنه جسرُ الوصول .. وقد حفتِ الجنةُ بالمكارِه .. يقول ابنُ القِيمِ :

«إنْ تَأْمَلْتَ حِكْمَتَهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فِيمَا ابْتَلَى بِهِ عَبَادُهُ وَصَفَوْتَهُ بِمَا سَاقَهُمْ بِهِ إِلَى أَجَلِّ الغَایَاتِ ، وَأَكْمَلَ النَّهَايَاتِ الَّتِي لَمْ يَكُونُوا يَعْبُرُونَ إِلَيْهَا إِلَّا عَلَى جِسْرٍ مِنَ الابلاءِ وَالامْتِحَانِ ، وَكَانَ ذَلِكَ الْجَسْرُ لِكَمَالِهِ ، كَالْجَسْرِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى عَبُورِهِمْ إِلَى الْجَنَّةِ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ الابلاءُ وَالامْتِحَانُ عِنْدَ الْمَنْحَةِ فِي حَقِّهِمْ ، وَالْكَرَامَةِ ، فَصُورَتُهُ صُورَةُ ابْلَاءِ وَامْتِحَانٍ ، وَبِاطْنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَالنِّعَمَةُ ، فَكُمْ لِلَّهِ

أصول الوصول إلى الله تعالى

من نِعْمَةٍ جسيمة ، وَمِنَّةٍ عظيمة ، تُجْنِي من قُطُوفِ الابلاء والامتحان»^(١).

وللمَحَنِ في هذا الطريق خصائصٌ ومميزات ، فكما أن المسلم يجب
ألا ينفك عن عبادة ما .. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاةً وَسُكُونًا وَمَحَيَاً وَمَمَاتِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]؛ فلابد أن يكون شعوره بالابلاء هكذا : أنه في
عبادة ، يدوم معه في كُلِّ حركاته وسكناته ؛ حتى يستصحب نَيَّةُ العبد على
البلاء ، واحتساب الأجر عند السميع البصير ﴿الَّذِي يَرَكَ حِينَ تَقُومُ
وَتَقُبَّكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩].

وهذا الجسر خطير .. جسرُ الابلاء .. فإن كثيراً من السالكين
ضُعِفتْ قُوَّته عن عبوره فرجعَ القَهْقَرِي وَتَرَكَ الطريق .

ثم يطالِعُكَ جِسْرٌ آخر على الطريق .. وهو النفس - نعوذ بالله تعالى -
من شرورِ أنفسنا ومن سَيِّئَاتِ أعمالِنا .. **يقول ابن القِيم في المدارج :**

«فالنفسُ جَبَلٌ عظيمٌ شاقٌ في طريق السَّيِّرِ إلى الله - عز وجل . وكلُّ
سائِرٍ لا طريق له إلا على ذلك الجبل . فلابد أن يتنهى إليه ، ولكن منهم
من هو شاقٌ عليه . ومنهم من هو سهلٌ عليه . وإنه ليسيرٌ على من يَسِّرُه
اللهُ عليه .

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشُعُوبٌ ، وعقباتٌ ووُهُودٌ ، وشوكٌ وغُوسجٌ ،
وعُلَيقٌ وشَبَرْقٌ ، ولصوصٌ يقطعون الطريق على السائرين . ولا سِيَّما أهلِ
الليلِ المُدْلِجِين . فإذا لم يكن معهم عَدْدُ الإيمان ، ومصابيحُ اليقين تتقدُّ

(١) مفتاح دار السعادة (٢٩٩/١).

بزيت الإخبات ؛ وإنما تعلقت بهم تلك الموانع . وتشبت بهم تلك القواطع . وحالت بينهم وبين السير .

فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان على قلبة ذلك الجبل . يحدّر الناس من صعوده وارتفاعه . ويُخوّفهم منه . فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوف على قلبه ، وضعف عزيمة السائر ونيته . فيتولّد من ذلك : الانقطاع والرجوع . والمعصوم من عصمه الله .

وكلما رقى السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع ، وتحذيره وتخويفه . فإذا قطعه وبلغ قلبه ؛ انقلب تلك المخاوف كلّهن آماناً . وحينئذ يسهل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ، ومشقة عقباتها . ويرى طريقاً واسعاً آمناً . يفضي به إلى المنازل والمناهل . وعليه الأعلام . وفيه الإقامات ، قد أعددت لركب الرحمن .

فيین العبد وبين السعادة وال فلاح : قوة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس ، وثبات قلب . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم»^(١) .

فالنَّفْسُ أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ، داعية إلى المهالك ، طامحة إلى الشهوات ؛ ولذا فهي أيضا جسر لا بد من عبوره .. أتى رجل إلى أبي علي الدقاق فقال : قطعت إليك مسافة ؟ فقال : ليس هذا الأمر بقطع المسافات ، فارق

(١) مدارج الساركين (٢/٨).

أصول الوصول إلى الله تعالى

نفسك بخطوة تصلك إلى المطلوب . فلا بد من عبور جسر النفس .. شهواتها .. وملذاتها .. أهواها .. وأمالها .. لابد أن تعبّر مرحلة «نفسي وما تشتهي»؛ لتصلك عبر جسر نفسك إلى ما يرضي ربّك .

ويزيدك بصيرة في الأمر قول ابن القيم - رحمه الله في طريق الهرتين - :

«وَكُلَّمَا سَكَنْتْ نَفْسُهُ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ وَمُوَاصِلَةِ الشَّدِّ وَالرَّحِيلِ؛ وَعَدَهَا قُرْبَ التَّلَاقِي وَبَرْدَ الْعِيشِ عَنْدَ الْوَصْولِ، فَيُحْدِثُ لَهَا ذَلِكَ نَشَاطًا وَفَرَحًا وَهِمَّةً، فَهُوَ يَقُولُ: يَا نَفْسَ أَبْشِرِي فَقَدْ قَرِبَ الْمَنْزِلُ وَدَنَا التَّلَاقِيُّ، فَلَا تَنْقَطِعِي فِي الطَّرِيقِ دُونَ الْوَصْولِ فِي حَالٍ بَيْنِكَ وَبَيْنَ مَنَازِلِ الْأَحِبَّةِ . فَإِنَّ صَبْرَتِ وَوَاصْلَتِ السَّيْرَ وَصَلَتِ حَمِيدَةً مَسْرُورَةً جَزِلَةً وَتَلَقْنَتِ الْأَجِبَّةَ بِأَنْوَاعِ التُّحَفِ وَالْكَرَامَاتِ، وَلَيْسَ بَيْنِكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ إِلَّا صَبْرٌ سَاعَةً؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا كُلُّهَا لِسَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْآخِرَةِ وَعُمُرُكَ درجةً مِنْ دَرَجَاتِ تِلْكَ السَّاعَةِ؛ فَاللَّهُ اللَّهُ لَا تَنْقَطِعِي فِي الْمَفَازَةِ؛ فَهُوَ - وَاللَّهُ - الْهَلَكُ وَالْعَطَبُ لَوْ كَنْتِ تَعْلَمِينَ .

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعم . وما خلفها من أعدائها ، وما لديهم من الإهانة والعقاب وأنواع البلاء ، فإن رجعت إلى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت إلى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها ؛ فإنهم وراءها في الطلب . ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختبر أيها شاءت .

وليجعل حديث الأحبة وشأنهم حاديه وسائقها . ونور معرفتهم وإرشادهم هاديه ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحش انفراده في طريق سفره . ولا يغتر بكثره المنقطعين ، فالمقطعه وبعاده واصل إليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، مما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ ، ولعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هي من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج إليه المتلقون يهتئونه بالسلامة والوصول إليهم ، فيما قرأ عينه إذ ذاك ، ويما فرحته إذ يقول : ﴿يَلَيْتَ قَوِيًّا يَعْلَمُونَ﴾ [١] ^{بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكَرَّمِينَ} [يس: ٢٦-٢٧] .

ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها ،
فكلا أدم على السير وواطئ عليه غدوًا ورواحًا وسحرًا ؛ قرب من المنزل ، وتلطفت تلك الكثافة ، وذابت تلك الخباث والأدران ؛ ظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم ؛ فتبذلت وحشته أنسا وكثافتة لطافة ودرنه طهارة» ^(١) .

هذا هو جسر النفس .. البلاء الأكبر .. والعائق الأشد .. يُشبِّه الجسر المعلق الذي لا جوانب له يستند إليها السائر .. فهو خطراً جدياً لا بدًّ عند المرور عليه من التركيز والهدوء .. والتيقظ والانتباه لكل حركة يد ونقلة رجل .. وإنما فالسقوط .

نعم : إنَّه جسرٌ واهنٌ .. من كثرة الذنب والمعاصي .. ولذا كان

(١) طريق الهجرتين (١٨٧ - ١٨٨) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

على السَّائِر أَن يَأْخُذ حَذَرَه .. وَيَتَدَرَّبُ الْمَرَّة بَعْدَ الْمَرَّة .. وَيُحَاوِلُ وَيُعِيدُ ، ثُمَّ يَحَاوِلُ وَيُعِيدُ حَتَّى يَنْجُحَ فِي تَرْوِيْضِ نَفْسِه عَلَى عَبُورِ تِلْكَ الْجَسُورِ .

وبَعْدَ - أَيُّهَا السَّائِرُ الْحَبِيبُ - : فِي سَعَادَةٍ مَنْ جَاهَدَ تِلْكَ الْآفَاتِ ..

نعم : إِنَّهَا أَشْوَاكٌ ؛ لَكُنُّهَا أَشْوَاقٌ .. يَسْتَشْعُرُ فِيهَا السَّائِرُ لِذَّةَ الْأَلَمِ لِلَّهِ .. وَاحْتَسَابَ الْأَجْرِ مِنَ اللَّهِ .. فَدُسِّ الشَّوْكَ وَسِرْ إِلَى اللَّهِ ..

فَقَدْ اقْتَضَتْ سُنَّةُ الْخَالِقِ أَنَّ الْعَسْلَ لَا يُحْصَلُ عَلَيْهِ إِلَّا بِلَسْعِ النَّحْلِ .. فَمَا كَانَ لِلْمَسَافِرِ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَحْصُلَ عَلَى مَا يُفِيدُهُ فِي طَرِيقِ وَصْوَلِهِ إِلَّا بِشَيْءٍ مِنَ الْمَكَابِدَةِ وَالْعُسْرِ ..

يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ - عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ - :

«وَمَا أَقْدَمَ أَحَدٌ عَلَى تَحْمُلِ مَشْقَةٍ عَاجِلَةٍ إِلَّا لِثَمْرَةٍ مُؤَجَّلَةٍ ، فَالنَّفْسُ مُوكَأَةٌ بِحُبِّ الْعَاجِلِ ، وَإِنَّمَا خَاصَّةُ الْعُقْلِ : تَلْمُحُ الْعَوَاقِبَ ، وَمُطَالَّةُ الْغَايَاتِ ، وَأَجْمَعَ عُقَلَاءُ كُلِّ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّ النَّعِيمَ لَا يُدْرِكُ بِالنَّعِيمِ ، وَإِنَّ مَنْ رَافَقَ الرَّاحَةَ حَصَلَ عَلَى الْمَشْقَةِ وَقَتَ الرَّاحَةَ فِي دَارِ الرَّاحَةِ ؛ فَإِنَّ عَلَى قَدْرِ التَّعَبِ تَكُونُ الرَّاحَةُ»^(١) .

* * *

(١) تَهْذِيبُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ (٣٥٩/١) .

اسْتِرَاحَةُ الْمُسَافِرِ

وبعد أن قطعنا شوطاً في التعرف على معالم الطريق وعقباته . . وبعد أن تعلمنا كيف يكون العبور على الحسور ؛ آن لنا أن نأخذ قسطاً من الراحة . . فالمسافر إلى الله - تعالى - لا بد له من الاستجمام ؛ ليستعين به على إتمام المسير ، وإكمال الشوط ، ليتيم الثغرة ، ويتنشط البدن ، ويتروح القلب . . فيكون ذلك تقوية للانطلاق فيقطع مرحلة تالية .

إذا فلابد للمسافر من وقفات على الطريق . . وقفات ترويحية على جنبات الطريق . . يستروح فيها إلى بعض المباحثات من لهو ومزاح وانبساط ، وما يتبع ذلك من لين القول ، والتَّبَسم ، وانشراح الصدر . . وكل ما يؤدي من مباح إلى تطيب النفس ومؤانستها فهو سنة مستحبة .

يقول ابن القيم - عليه رحمة الله - في «زاد المعاد»:

«وكانت سيرته عليه السلام مع أزواجِه حُسْنَ المعاشرة، وحسْنَ الْخُلُقِ .

وكان يُسَرِّب إلى عائشة بنت الأنصار يلعبن معها . وكان إذا هويت شيئاً لا محدود فيه تابعها عليه ، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه ، فوضع فمه في موضع فمها وشرب ، وكان إذا تعرقت عرقاً - وهو العظم الذي عليه لحم - أخذه فوضع فمه موضع فمها ، وكان يتکئ في حجرها ، ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها ، وربما كانت حائضاً ، وكان يأمرها وهي حائض فتَنْزِرُ ثم يُباشرها ، وكان يُقبلُها وهو صائم ، وكان من لطفه وحسنِ

أصول الوصول إلى الله تعالى

خُلقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب ، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده ، وهي متكتئه على منكبيه تنظر ، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين ، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة^(١) .

فقد يحتاج الأمر إلى ملاعبة الزوجة ، أو إرضائهما بتنزهه لا تخلو من ذكرٍ وتأملٍ في بديعِ صنْعِ الله .. وملاءبة للأولاد لا تخلو من تعبدٍ في التربية .. وسمّر سريع لطيف مع صحبة صالحة .. بذكر جميلٍ الشّعر ونواذر الطّرائف والحكايات ، بعيداً عن الماجريات^(٢) .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه وروي عن علي رضي الله عنه أيضاً : «رَوْحُوا القلوبَ سَاعَةً بَعْدَ سَاعَةٍ ؛ فَإِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانَ» .

هذه الاستراحة يجري فيها أيضاً شيء من التلطف بالنفس وسياستها؛ لكي تتقاد بعد ذلك أسهل وأيسر .. فالاستلقاء مثلاً مع إعمال الفكري والنظر : نوع من أنواع الترويح المأجور عليه إن أحسن المسافر النية .. قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إني لأحتسب نومتي ، كما أحتسب قومتي .

ولكن الشأن في المزاح فيمن يحسنه ويضعه .. فيضبطه بضوابطه الشرعية .. فما رافقه أو نتج عنه استهزاء أو سخرية أو استخفاف أو تهكم أو كذب .. فهو المنهي عنه شرعاً .. وما كان عن تعجب أو إعجاب أو ملاحظة وتحبب ، أو إدخال للسرور على قلب آخر .. فهو المباح شرعاً .

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٥٦).

(٢) الماجريات : التحدث بما جرى وما يجري من أخبار السياسة والفن والكرة وغير ذلك .

ولَعَلَّ الْقَاعِدَةَ الْجَامِعَةَ، مَا حَدَّدَهَا الْإِمَامُ التَّوْرَيْيُّ بِقَوْلِهِ :

«المِزَاحُ الْمُنْهَى عَنْهُ هُوَ الَّذِي فِيهِ إفْرَاطٌ وَيُدَامُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّحْكَ وَقُسْوَةَ الْقَلْبِ، وَيُشْغِلُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَالْفَكْرُ فِي مَهَمَّاتِ الدِّينِ، وَيُؤْوِلُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ إِلَى الْإِيْذَاءِ وَيُورِثُ الْأَحْقَادَ، وَيُسْقِطُ الْمَهَابَةَ وَالْوَقَارَ، فَأَمَّا مَا سَلِيمٌ مِنْ هَذِهِ الْأَمْرِ فَهُوَ الْمَبَاحُ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَفْعُلُهُ، فَإِنَّهُ ﷺ إِنَّمَا كَانَ يَفْعُلُهُ فِي نَادِرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ لِمَصْلِحَةِ، وَتَطْبِيبِ نَفْسِ الْمَخَاطِبِ وَمَوْانِسَتِهِ، وَهَذَا لَا مَنْعَ مِنْهُ قُطْعًا، بَلْ هُوَ سُنَّةٌ مُسْتَحْجَبَةٌ إِذَا كَانَ بِهَذِهِ الصَّفَةِ . . فَاعْتَدْ مَا نَقَلْنَاهُ عَنِ الْعُلَمَاءِ وَحَقَّقْنَاهُ؛ فَإِنَّهُ مَا يَعْظُمُ الْحِتْيَاجُ إِلَيْهِ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ»^(١).

وانظرُ أَيْضًا إِلَى الْمِيزَانِ الدَّقِيقِ . . الَّذِي وَضَعَهُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ حِينَ قَالَ لَابْنِهِ :

«اَقْتِصِدْ فِي مِزَاحِكَ؛ فَإِنَّ الْإِفْرَاطَ فِيهِ يُذْهِبُ الْبَهَاءَ، وَيُجَرِّئُ عَلَيْكَ السُّفَهَاءَ، وَإِنَّ التَّقْصِيرَ فِيهِ يَفْعُضُ عَنْكَ الْمُؤَانِسِينَ وَيُوْحِشُ مِنْكَ الْمَصَاحِبِينَ».

«وَقَدْ سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : هَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُونَ؟؛ قَالَ : نَعَمْ، وَالْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ مِثْلُ الْجَبَلِ . . وَقَالَ بَلَالُ بْنُ سَعْدٍ : أَدْرَكْتُهُمْ يَشْتَدُونَ بَيْنَ الْأَغْرَاضِ، وَيَضْحَكُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ كَانُوا رَهْبَانًا»^(٢).

(١) الأذكار (٢٧٩).

(٢) شرح السنة، للبغوي (٣٨١/٢).

أصول الوصول إلى الله تعالى

وفي استراحة المسافر يمكن أن نجد بعض الألعاب والمسابقات ، كما نجد بعض المُسَامِرات : كالحكمة والطُرفة والفكاهة والمثل والشِّعر والقصة .. وغير ذلك .. وهكَ طرفاً من تلك التَّرْوِيَحات :

تَرْوِيَحةٌ على الطَّرِيقِ : عِلْمٌ لِيُسَمِّ فِي الْكِتَبِ

من العلوم علوم لا تكون في الكتب :

منها من لا يُتَعَلَّمُ إلا من الفقر

ومنها ما لا يُتَعَلَّمُ إلا من البلاء

ومنها ما لا يُتَعَلَّمُ إلا من المرض

ومنها ما لا يُتَعَلَّمُ إلا من القهر والإذلال

ومنها ما لا يُتَعَلَّمُ إلا من الهموم والمشاكل

تَرْوِيَحةٌ على الطَّرِيقِ : اخْتِبَاراتٌ

قال بعضهم : يُمْتَحِنُ الْذَّهَبُ بِالنَّارِ

وَالمرأة بالذهب

وَالرَّجُلُ بالمرأة

تَرْوِيَحةٌ على الطَّرِيقِ : الْمُدَارَأَةُ .. وَالسَّرْ

قال الخطابي :

ما دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلُّهُمْ	فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَأَةِ
مَنْ يَدْرِي دَارِي وَمَنْ لَمْ يَدْرِ سُوفَ يَرَى	عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيمًا لِلنَّدَامَاتِ

وقال آخر :

لَا تُلْتَمِسْ مِنْ مِسَاوِيِ النَّاسِ سِرًا مِنْ مِسَاوِيِكَا
فِي كِشْفِ اللَّهِ فِي كِشْفِكَا
وَإِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعْبُدُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِي كَا
وَإِذَا ذُكِرُوا وَلَا تَعْبُدُ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِي كَا
وَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنْ كُلِّ فِي كَا وَثِقْ بِاللَّهِ يَكْفِي كَا

تَرْوِيَةٌ عَلَى الْطَّرِيقِ : الْبَلَاءُ مُؤَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ

اجتمع الْكِسَائِيُّ وَالْيَزِيدِيُّ عِنْدَ الرَّشِيدِ ، فَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْمَغْرِبِ ،
فَقَدَّمُوا الْكِسَائِيَّ «أَحَدَ الْقُرَاءِ السَّبْعَةِ الْمَشْهُورِينَ» فَصَلَّى بِهِمْ فَارْتَجَ عَلَيْهِ
فِي قِرَاءَةِ ﴿قُلْ يَكَادُهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الْكَافِرُونَ: ١] - أَخْطَأً أَوْ نَسِيَ فِي الْحَفْظِ - ،
فَلَمَّا سَلَّمَ ؛ قَالَ الْيَزِيدِيُّ : قَارِئُ وَإِمَامُ أَهْلِ الْكُوفَةِ يُخْطِأُ وَيَنْسِي وَيُرْتَحِ
عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْكَافِرُونَ؟؟!!.. فَحَضَرَتْ صَلَاةُ الْعَشَاءِ ، فَتَقدَّمَ الْيَزِيدِيُّ
فَصَلَّى بِهِمْ فَارْتَجَ عَلَيْهِ وَأَخْطَأً وَنَسِيَ فِي سُورَةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الْفَاتِحَةِ: ٢] ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَالَ الْكِسَائِيُّ لَهُ :

احفظ لسانك لا تقول فتنتمي إن البلاء مؤكل بالمنطق

تَرْوِيَةٌ عَلَى الْطَّرِيقِ : التَّمَلُّقِ

قَالَ ذُو الْنُّونِ الْمِصْرِيُّ : أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْيَهُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : يَا يَعْقُوبَ ،
تَمَلَّقْ لِي .. قَالَ : يَا رَبَّ ، كَيْفَ أَتَمَلَّقُ لَكَ ؟

قَالَ : قَلْ : يَا قَدِيمَ الْإِحْسَانِ

يَا دَائِمَ الْمَعْرُوفِ

يَا كَثِيرَ الْخَيْرِ

أصول الوصول إلى الله تعالى

قالها .. فأوحى الله إليه : وعزّتي وجلالي ، لو كان يوسف مينا لأحيته لك .

ترويحة على الطريق : «ولتكون من المحسنين»

قال يحيى بن معاذ : حظ المؤمن مِنْكَ ثلاثة خصال ؛ لتكون من المحسنين :

أحدُها : إن لم تنفعه فلا تضره

والثاني : إن لم تسره فلا تغممه

والثالث : إن لم تدمّه فلا تذمّه

ترويحة على الطريق : وينحك .. ويحلك

وينحك : رميّت يوسف قلبك في جب الهوى ،

وجهّت على قميص الأمانة بدم كذب .

ويحلك : كلما أوغلت في الهوى زاد التعرّقل .

ويحلك : إن قعر جهنّم لبعيد ، ولكن يظهر

آن همّتك أسفل منه .

ويحلك : قنديل الفكر في محراب قلبك مُظلِّم ؛

فاطلب له زيت خلوة وفتيله عزم .

ترويحة على الطريق : من أقوال ابن تيمية :

والقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

ترويحةٌ على الطريق : مجلسنا

مجلسنا بحُرْ يَرْدُه الفيلُ والعُصْفُورُ
نَحْنُ فِي رَوْضَةِ طَعَامُنَا فِيهَا الْخَشْوَعُ
وَشَرَابُنَا فِيهَا الدُّمُوعُ
وَنَقْلُنَا هَذَا الْكَلَامُ الْمَطْبُوعُ
نُدَاوِي أَمْرَاضًا أَعْجَزْتُ بِخْتِيشُونَعُ
نَرْقِي الْهَاوِي وَنُدَاوِي الْمَلْسُوعُ
فَلَيْتَهُ كَانَ كُلَّ يَوْمٍ لَا كُلَّ أَسْبُوعٍ

ترويحةٌ على الطريق : «أَكْمَ الذِّكْرُ وَلِهِ الْأَنْثَى تِلْكَ إِذَا . . .»

الْخَوْفُ ذَكْرٌ وَالرَّجَاءُ أَنْثَى
وَمُحَثَّثُ الْبَطَالَةِ إِلَى الْإِنَاثِ أَمْيَلٌ
مِنْ زَرَعٍ بِذَرَّ الْعَمَلِ فِي أَرْجَاءِ الرَّجَاءِ نَبْتُ فِيهَا الْخَوْفَ مِنْ «أَلَا تُقْبَلُ»
الْجَاهِلُ يَنْاُمُ عَلَى فِرَاشِ الْأَمْنِ فَيَتَقْلُلُ نُومُهُ فَتَكْثُرُ أَحْلَامُ أَمَانِيهِ ،
وَالْعَالَمُ يَضْطَبِعُ عَلَى مِهَادِ الْخَوْفِ وَحَارِسُ الْيَقْظَةِ يُوقْطُهُ .

ترويحةٌ على الطريق : أَدْمَى دِينَهِ بِأَظْفَارِ شَكْوَاهِ

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى فُضَيْلٍ يَشْكُوُ الْحَاجَةَ ، فَقَالَ لَهُ فَضَيْلٌ : يَا هَذَا ، أَمْدَبْرًا
غَيْرَ اللَّهِ تُرِيدُ؟!؟!

أصول الوصول إلى الله تعالى

ومَرِضَ ابْنُ أَدْهَمَ فَجَعَلَ عِنْدَ رَأْسِهِ مَا يَأْكُلُهُ الْأَصْحَاءُ؛ لَئِلَا يَتَشَبَّهُ
بِالشَّاكِنِ .. هَذِهِ - بَهْرَاجَةٌ أَصَحُّ مِنْ نَقْدِكَ.

ترويحة على الطريق : لا تُنَازِّعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا

قال عيسى بن مريم ﷺ :

لا تُنَازِّعُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ؛ فَيُنَازِّعُوكُمْ فِي دِينِكُمْ؛
فَلَا دُنْيَاهُمْ أَصَبَّتُمْ وَلَا دِينَكُمْ أَبَقَّيْتُمْ.

ترويحة على الطريق : ما أَسْوَأُ السَّوْءِ

السُّلْطَانُ السَّوْءُ: يُخِيفُ الْبَرِيءَ وَيَصْطَبِعُ الدُّنْيَا
وَالْبَلْدُ السَّوْءُ: يَجْمِعُ السُّفَلَ وَيُورِثُ الْعِلَلَ
وَالْوَلَدُ السَّوْءُ: يُشَيِّنُ السَّلَفَ وَيَهْدِمُ الشَّرَفَ
وَالْجَارُ السَّوْءُ: يُفْشِي السِّرَّ وَيَهْتِكُ السِّرِّ

ترويحة على الطريق : سِيَاطُ المَوَاعِظِ

* البلايا ضيوف فأحسن قرها؛ لترحل عنك إلى بلد الجراء مادحة
لا قادحة .

* في كل يوم ترهن قلبك على ثمن شهوة، فيستعمله المُرتهن ..
فقد أخلقَ .

* أتبكي على معاصيك، والإصرار يضحك !!

* القواطِعُ مِحْنٌ يَتَبَيَّنُ بِهَا الصَّادِقُ مِنَ الْكاذِبِ ، فَإِذَا حُضْتَهَا انْقَلَبْتُ أَعْوَانًا تُوَصَّلُكَ إِلَى الْمَقْصُودِ .. فَهُنَّ إِذَا أَغْرَبُ الْأَعْوَانَ .

تَرْوِيَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ : عَجِبْتُ لِهَذَا الَّذِي

قال بعضهم : عَجِبْتُ لِمَنْ يَبْكِي عَلَى مَوْتِ غَيْرِهِ دُمُوعًا
وَلَا يَبْكِي عَلَى مَوْتِ قَلْبِهِ دَمًا
وَأَعْجَبْتُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ عَظِيمًا وَفِي عَيْنِيهِ عَمَى .

تَرْوِيَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ : اطْلُبُونِي فِي الْمَقَابِرِ

قال بعض السَّلْفِ : إِذَا سَمِعْتَهُمْ حَيًّا عَلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ تَرَوْنِي فِي الصَّفَّ ؛ فَاطْلُبُونِي فِي الْمَقَابِرِ .

تَرْوِيَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ : أَصْنَافُ النَّاسِ

أَضَعَفُ النَّاسِ مَنْ ضَعَفَ عَنْ كِتْمَانِ سِرِّهِ
وَأَقْوَاهُمْ مِنْ قُويَّةِ عَلَى غَضَبِهِ
وَأَصْبَرُهُمْ مِنْ سَرَّ فَاقَتَهُ
وَأَغْنَاهُمْ مِنْ قَنَاعِ بِمَا تَيسَّرَ لَهُ

تَرْوِيَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ : دَرَجَاتُ الرَّزْلَلِ

بِدَائِيَّةُ الرَّزْلَلِ : ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١]
وَوَسْطُ الرَّزْلَلِ : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]
وَآخِرُ الرَّزْلَلِ : ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ [محمد: ٢٤]

ترويحة على الطريق : من شعر العصر الذهبي

قال أبو الطيب المتنبي :

إذا غامرت في شرف مروم
فقطعم الموت في أمر حقير
وقال :

وكم من عائب قوله صحيحًا
وقال أيضًا :

ومن البلية عذل من لا يرعوي
عن جهله وخطاب من لا يفهم

وقال أبو العتاية شاعر الرهد :

أرى الدنيا لمن هي في يديه
تهين المكرمين لها بضرير
إذا استغنت عن شيء فدنه
عذابا كلما كثرت لديه
وتكرم كل من هانت عليه
وخذ ما أنت محتاج إليه

ترويحة على الطريق : علامات السعادة

قال الفضيل بن عياض : علامات السعادة خمس :

اليقين في القلب
والورع في الدين
والرهد في الدنيا
والحياء في العينين
والخشية في البدن

ترويحة على الطريق : الأَخْطَر

أَخْطَرُ شَيْءٍ فِي عَصْرِ التَّكْنُولُوْجِيَا

لَيْسَ فِي إِيْجَادِ آلَاتٍ تُفَكِّرُ كَالإِنْسَانِ

بَلْ فِي إِيْجَادِ نَاسٍ يُفَكِّرُونَ كَالآلَاتِ

ترويحة على الطريق : قِصَّةُ الْحَيَّةِ وَالسَّكْرَانِ

عن يوسف بن الحسين يقول : كنت مع ذي الثُّونِ الْمِصْرِيِّ على شاطئِ غدير فنظرتُ إلى عقرب أعظم ما يكون على سطحِ الغدير واقفةً ، فإذا بصفدع قد خرجت من الغدير ، فركبتها العقرب ، فجعلت الصدقع تسبح حتى عبرت ، فقال ذو الثون : إن لهذه العقرب لشأنًا فامض بنا ، فجعلنا نقفوا أثراً لها ؛ فإذا رجُلٌ نائمٌ سكران ، وإذا حيةٌ قد جاءت فصعدت من ناحية سرتها إلى صدره وهي تطلب أذنه ، فاستحكمت العقرب من الحياة فضربتها : فانقلبت وانفسحت ، ورجعت العقرب إلى الغدير ، فجاءت الصدقع فركبتها فعبرت ، فحررك ذو الثون الرجل النائم ، ففتح عينيه ، فقال : يا فتى ، انظر مما نجاك الله ! ، هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك ، ثم أنشأ ذو الثون يقول :

يَا غَافِلًا وَالْجَلِيلُ يَحْرُسُهُ
مِنْ كُلِّ سُوءٍ يَدِيبُ فِي الظُّلْمِ
كَيْفَ تَنَامُ الْعُيُونُ عَنْ مَلِكٍ
تَأْتِيهِ مِنْهُ فوائدُ النَّعَمِ
فَهَهَضَ الشَّابُ وَقَالَ : إِلَهِي ، هَذَا فِعْلُكَ بِمَنْ عَصَاكَ ! ، فَكَيْفَ رِفْقُكَ
بِمَنْ يُطِيعُكَ ؟ ! ، ثُمَّ وَلَى ، فَقَلَتْ : إِلَى أَيْنَ ؟ ؛ قَالَ : إِلَى طَاعَةِ اللهِ .

ترويحة على الطريق : ديك سهل بن هارون

أورد الجاحظ «زعيم البيان العربي» - كما يقول عنه الشيخ عبد السلام هارون - هذا الموقف الساخر في كتابه «الحيوان» ، فقال :

«قال دعبد الشاعر : أقمنا عند سهل بن هارون فلم نبرح ، حتى كدنا نموت من الجوع ، فلما اضطرناه قال : يا غلام ، ويلك عدنا !

قال : فأتينا بقصعة فيها مرق فيه لحم ديك عاس هرم^(١) ليس قبلها ولا بعدها ، لا تحرز فيه السكين ، ولا تؤثر فيه الأضراس ، فاطلع في القصعة وقلب بصره فيها ، ثم أخذ قطعة حبز يابس فقلب جميع ما في القصعة حتى فقد الرأس من الديك وحده ، فبقي مطرقاً ساعة .

ثم رفع رأسه إلى الغلام فقال : أين الرأس؟ ، فقال : رميت به . قال ولم رميت به؟ ، قال : لم أظنك تأكله ! ، قال : ولا ي شيء ظنت أنني لا آكله؟ ، فوالله إني لأمقدت مَنْ يرمي برجليه ، فكيف من يرمي برأسه؟ !

ثم قال له : لو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفال لكرهته ! . الرأس رئيس وفيه الحواس ، ومنه يصدح الديك ، ولو لا صوته ما أريده ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بها المثل ، يقال : «شراب كعين الديك» .

ودماغه عجيب لوجع الكلية . ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان

(١) العاسي : الذي أَسَنَ حتى صلب وجف.

من عَظِيم رَأْسِهِ، فَهَلَا إِذْ ظنَتْ أَنِّي لَا آكُلُهُ، ظنَتْ أَنَّ الْعِيَالَ يَأْكُلُونِهِ؟! وَإِنْ كَانَ بَلَغَ مِنْ نُبْلِكَ أَنَّكَ لَا تَأْكُلُهُ، فَإِنَّ عِنْدَنَا مَنْ يَأْكُلُهُ.

أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ طَرَفِ الْجَنَاحِ، وَمِنْ السَّاقِ وَالْعُقْنِ!، انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟، قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَيْنَ رَمَيْتُهُ!، قَالَ: لَكُنِّي أَدْرِي، إِنَّكَ رَمَيْتَهُ فِي بَطْنِكَ، وَاللَّهُ حَسِيبُكَ!»^(١).

تعليق :

وبعد هذه الاستراحة التي كان لا بدًّ للمسافر منها؛ ليدفع عن نفسه السَّأَمَ والملل والفتور، ويستنهض بها الهمة في القيام بواجب السير إلى الله.. وبعد هذه الترويحات الكثيرة.. آنَّ لَه التَّاهُبُ لِلسَّيِّرِ مَرَّةً أُخْرَى.. والاستعداد للانطلاق في طريق الوصول إلى الله.. حاملاً زاده ومتابعاً.. وموكلًا على الله.. ومستعيناً به وحده في قطع المراحل التالية.. مُتَذَكِّراً قَوْلَ رَبِّهِ - سبحانه وتعالى - : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهَا يَنْهَمُ شَبَلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].



(١) تهذيب «الحيوان للباحث»، لشيخ المحققين الأستاذ عبد السلام محمد هارون - رحمه الله رحمة سابعة - (٦٧).

كلمة أخيرة

إذا تبيّن لك - أيها الأخ الكريم الحبيب - ما ذكرت .. وأردت أن تنطلق في هذا الكتاب «أصول الوصول إلى الله تعالى» ؛ فاعلم - أخيراً - أنها سفّرة .

سَفَرٌ حَقِيقِيٌّ .. ليست رمزية بعيدة .. إنما هي حقيقة الحياة ونقلتها .. والإنسان حتى في حياته الاعتيادية ما هو إلا بين سَفَرٍ وسَفَرٍ طال أو قصر ؛ لينبئنا الله بالصغير على الكبير ، وبالتأفه على المهم ، وبالطارئ على المستديم .. وقد كان ﷺ يذكُرُ أنه في الدنيا كراكِب استظلَ بظل شجرة ثم راح وتركها^(١) .

والمؤمن مع سَفْرِه الطويلة ؛ فدونها أسفار .. وبعد أن قطع سَفرته من الجاهلية إلى الإسلام ، ثم تسامى بنفسه من المعاصي إلى الطاعات شمر عن ساعد الجد حتى سافر من السُّفُوح الهاابطة إلى القمم السَّامقة وكان من السابقين بالخيرات .. وهو مِنْ هؤلاء الذين ندعوهم إلى هذه السَّفْرة .

إن السَّفَر الأهم المؤصل إلى طريق النَّجَاة إلى رضا الله .

«واعلم أيضاً أنَّ السَّائِر إلى الله لا ينقطع سيره إليه ما دام في قيد الحياة ، ولا يصلُّ العبد ما دام حَيَا إلى الله وُصُولًا يستغني به عن السير

(١) أخرجه : أحمد ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في «الصحيحه» برقم (٤٣٨) .

إليه ألبَّتْ وهذا عينُ المحال ؛ بل يشتُدُ سيرُه إلى الله كلما زادت ملاحظته لتوحيدِه ، وأسمائه وصفاته . ولهذا كان رسول الله ﷺ أعظمَ الخلق اجتهاً وقِياماً بالأعمال ، ومحافظةً عليها إلى أن توفاه الله ، وهو أعظمُ ما كان اجتهاً وقِياماً بوظائف العبودية ، فَلَوْ أَتَى الْعَبْدُ بِأَعْمَالِ التَّقْلِينِ جَمِيعَهَا لَمْ تُفَارِقْهُ حَقِيقَةُ السِّيرِ إِلَى اللَّهِ ، وكان بعدُ في طريقِ الطلب والإرادة»^(١) .

وَلَا يَزَالُ الرَّسُولُ ﷺ يُوصِي بِسُؤَالِ اللَّهِ - تَعَالَى - الْهَدَايَا . .
وَمَا الْهَدَايَا إِلَّا لِمَنْ وَجَدَ الطَّرِيقَ بَعْدَ الضَّلَالِ . .

يقول ابن القِيم :

«حيث أَمْرَهُ أَن يذَكَّر إذا سَأَلَ اللَّهُ الْهَدَى . إلى طَرِيقِ رِضَاه وَجَتَّهِ ، كَأَنَّهُ مَسَافِرٌ ، وَقَدْ ضَلَّ عَنِ الْطَّرِيقِ . وَلَا يَدْرِي أَيْنَ يَتَوَجَّهُ ، فَطَلَّعَ لَهُ رَجُلٌ خَيْرٌ بِالْطَّرِيقِ عَالِمٌ بِهَا ، فَسَأَلَهُ أَن يَدْلُلَهُ عَلَى الْطَّرِيقِ ، فَهَكُذَا شَاءَنُ طَرِيقُ الْآخِرَةِ ، تَمَثِيلًا لَهَا بِالْطَّرِيقِ الْمَحْسُوسِ الْمَسَافِرِ ، وَحَاجَةُ الْمَسَافِرِ إِلَى اللَّهِ - سَبَحَانَهُ - إِلَى أَن يَهْدِيهِ تَلْكَ الْطَّرِيقَ أَعْظَمُ مِنْ حَاجَةِ الْمَسَافِرِ إِلَى بَلْدِهِ - مِنْ يَدِلُّهُ عَلَى الْطَّرِيقِ الْمَوْصَلِ لَهَا»^(٢) .

فَلَابُدَّ لَكَ - أَيُّهَا السَّائِرُ الْحَبِيبُ - فِي هَذَا الْطَّرِيقِ مِنْ صِدْقِ الْجِئْرِيَةِ إِلَى اللَّهِ . . أَن يَهْدِيَكَ وَيَأْخُذَ بِيَدِكَ فِي طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَيْهِ . . فَدَوْمًا

(١) تَهْذِيبُ مَدَارِجِ السَّالِكِينَ (١٤٨ / ١) - (١٤٩) .

(٢) إِغْاثَةُ اللَّهُفَّانَ (٥٧ / ١) .

تدعو وتتضرّع وتفتقرُ إليه - سبحانه - تمامًا الافتقار في كُلٌّ خطوةٍ وفي كُلٌّ مرحلةٍ تقطّعها على هذه الطريق .

«فالفَقْرُ الْحَقِيقِيُّ : دوامُ الافتقارِ إلى الله في كُلٌّ حالٍ ، وأنْ يشهدَ العبدُ - في كُلٍّ ذرَّةٍ من ذرَّاته الظاهرَة والباطنةِ - فاقَةً تامةً إلى اللهِ - تعالى - من كُلٍّ وجْهٍ^(١) .

فَاللَّهُمَّ . إنا نفتقرُ إليك ونستهديك ؛ فاهدنا لصالح الأعمال والأخلاق ؛ فإنه لا يهدي لصالحها ولا يصرفُ سيرتها إلا أنت .. اللَّهُمَّ اهدني صِرَاطَ الْوُصُولِ إِلَيْكَ .. يا مُسْجِيَ الْهَلْكَى ويا مُنْقِذَ الغُرْبَى .. يا عظيمَ الإحسانِ .

إِلَهِي .. إِنْ كانت ذنوبِي قد أخافَتني ؛ فإنَّ محبَّتي لك قد أجارَتني ، فتولَّ من أمري ما أنت أهله ، وعُذْ بفضلِك على مَنْ غَرَّ جَهْلُه .

إِلَهِي .. لو أردت إهانتي لَمَا هديَتني ، ولو أردت فضيحتي لَمْ تسترْتني ؛ فمتعنِّي بما له هَدَيْتني ، وأدْمَلَ لي ما به سَتَرْتني .

إِلَهِي .. وسيدي ومولاي .. اعْقِدْ قلبي بحبلِ محبَّتك ، واستدرِجنِي إلى أقصى مُرَادِك ، واسْلُكْ بي مَسْلَكَ أصْفِيائِك ، واكْشفْ لي عن مَكْنونِ عِلْمِك ؛ حتى أَصِلَ إِلَى رياضِ قُدْسِك ، وأجتَنِي من ثمارِ الشَّوْقِ إِلَيْك ، وأتَشَرَّبَ من حِيَاضِ معرفتِك ، وأتَنْزَهَ في بساتينِ آلَائِك ، وأستنقِعَ في غُدْرَانِ ذِكْرِ نعمائِك .

(١) تهذيب مدارج السالكين (٧٤٩/٢).

**اللَّهُمَّ .. اجعِلْ قلْبِي مِنَ الْقُلُوبِ التِي سافَرْتُ إِلَيْكَ ، وَأَنْسِتْ بِكَ ،
وَاجعِلْ نَفْسِي مِنَ النُّفُوسِ التِي زَالَتْ عَنِ اخْتِيَارِهَا لَهُيَّاتِكَ ، وَأَطْلِقْهَا مِنَ
الْأَسْرِ لِتَجُولَ فِي خِدْمَتِكَ مَعَ الْجَوَالِينَ .**

**اللَّهُمَّ .. آتِنَا فَوْسَانًا تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ، أَنْتَ وَلِيُّهَا
وَمَوْلَاهَا .**

**اللَّهُمَّ .. إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ
نَفْسٍ لَا تَشْيَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا .**

آمِين .. آمِين .. آمِين

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِيمَانٍ وَإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

* * *

أصول الوصول

إِلَى

الله تعالى

وَمِنْ الْعَجَابِ ، وَالْعَجَابُ جَمَّةٌ
قُرْبُ الْحَبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ وُصُولٌ
كَالْعِيسِ فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَاءُ
وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولٌ

الأصل الأول

عليك البداية وعليه التمام

اعلم حبيبي في الله الكريم السائر إلى الله :

أنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَرَادَ بِرَحْمَتِهِ - سُبْحَانَهُ - وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ وَالْخَبِيرُ
الْبَصِيرُ أَنْ يَحْكُمَ هَذَا الْكَوْنَ بِسُنْنِ رَبَانِيَةٍ غَايَةٍ فِي الدِّقَّةِ وَالثَّبَاتِ ؛ ﴿فَلَنْ تَجِدَ
لِسْتَنَتَ اللَّهِ تَبَدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسْتَنَتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] .. تَلَكُمُ الْأُولَى ..

وَأَمَّا الثَّانِيَةُ : فَإِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ مُبِتَلًّى فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ؛ ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ
وَالْحَيَاةَ لِيَلْبُوكُمْ أَيْكُفُّ أَحَسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْغَفِيرُ الْغَفُورُ﴾ [الْمُلْكُ: ٢] .

وَثَالِثُهَا : أَنَّ اللَّهَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ خَلَقَ الْخَلْقَ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ؛ قَالَ
سُبْحَانَهُ : ﴿هُوَ أَعْمَمُ يَكُونُ إِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذَا أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
فَلَا تُرِكُوكُمْ أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَنْقَنَ﴾ [النَّجْمُ: ٣٢] ، وَقَالَ - سُبْحَانَهُ - :
﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ حَيْرًا بَصِيرًا﴾ [الْإِسْرَاءُ: ١٧] .

وَقَدْ أَرَادَ اللَّهُ ابْتِلَاءً وَإِصْلَاحًا ؛ أَنْ يَبْتَلِي عِبَادَهُ بِتَكْلِيفٍ هُوَ غَايَةٌ فِي
الْخَطْوَرَةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - أَنَاطَ بِهِمِ الْبَدَائِيَّةَ ، فَأَحَالَ عَلَيْهِمْ بَدَائِيَّةَ
الشَّرْوَعِ إِلَيْهِ وَالْقَصْدِ نَحْوَهُ ؛ قَالَ - سُبْحَانَهُ - فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِيِّ : «عَبْدِي
قَمِ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ» ، وَهَذَا رِعَايَةٌ لِجَلَالِ الْعَزَّةِ وَحُمَايَةٌ لِجَنَابِ الْعَظَمَةِ : أَنْ
يُكَلِّفَ الْعَبْدُ أَنْ يَأْتِي سَيِّدَهُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ السَّيِّدِ الْقَبُولُ وَالْإِكْرَامُ .

أصول الوصول إلى الله تعالى

قال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ، وقال - تعالى - : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُحِبُّ دَعْوَةَ الْدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، وقال - تعالى - في الحديث القدسي : «يا ابن آدم ، قُمْ إِلَيَّ أَمْشِ إِلَيْكَ ، وامش إِلَيَّ أَهْرُولْ إِلَيْكَ»^(١) . وقال - سبحانه - أيضاً : «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبَرًا تَقَرَّبَتْ مِنْهُ ذِرَاعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبَتْ مِنْهُ بَاعًا ، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُه هَرْوَلَةً»^(٢) . إِذَا فَابَدَ .. ابْدَأْ .. فَهُوَ - فِي الْبَدَأِ الْطَّرِيقُ خُطْوَةً ، ابْدَأْ خَطْوَةً إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَبْارُكُ وَيَتَمَّ ؛ فَهُوَ - سَبَّحَ اللَّهَ كَرِيمًا .. ابْدَأْ وَلَا تَشْتَكِ .

إِنَّ كَثِيرًا مِنَّا يَشْكُوُ الْفَتُورَ وَيَنْامُ .. إِذَا أَصْبَتَ بِالْفَتُورِ فَعَلَيْكَ بِالْتَّفَكِيرِ فَوْرًا فِي عَمَلٍ تَقُومُ بِهِ .. اعْمَلْ وَاللَّهُ يَرْفَعُ عَنْكَ الْبَلَاءَ .. ابْدَأْ وَاللَّهُ يَأْخُذُ بِيَدِكَ .. اعْمَلْ .. تَحرَّكْ .

إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الإِخْرَاجِ يَنْتَظِرُ نَصْرَ اللَّهِ بِمَعْجِزَةٍ ، يَنْتَظِرُ إِصْلَاحَ فَسَادِ قَلْبِهِ بِمَعْجِزَةٍ فِي لَحْظَةٍ دُونَ أَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا .. وَهَذَا لَا يَكُونُ .

أَخِي ، إِنَّ الْقَضِيَّةَ تَحْتَاجُ إِلَى عَمَلٍ ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «بَلِ اعْمَلُوا فَكُلُّ مِيسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَه»^(٣) .. اعْمَلُوا .. لَابْدَ مِنْ عَمَلٍ .

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَعِيشُ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى أَنَّهَا «ضَرْبَةُ حَظٍّ» ، يَعِيشُ

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَد (٤٧٨/٣) ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي السَّلِسْلَةِ الصَّحِيحَةِ بِرَقْمِ (٢٢٨٧) .

(٢) مُتَفَقُ عَلَيْهِ : الْبَخَارِيُّ (٧٤٠٥) ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٧٥) .

(٣) مُتَفَقُ عَلَيْهِ : الْبَخَارِيُّ (٤٩٤٩) ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٤٦) .

الحياة على أنها «ظروف»، فيعيش كيما اتفق، تماماً كالذى يدخل إلى الصلاة ولا يدرى ماذا صلّى؛ لأنّه في الأصل لا يعبأ بالخشوع، يترك نفسه هكذا، فالمهم عنده أنه أدى الصلاة فقط.. المهم عنده أن يعيش، والأمر ليس كذلك.

وتأمل معى قصة عُكاشة بن مُحْصَن في حديث السبعين ألفاً، قال رسول الله ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَى الْأَمْمِ؛ فَرَأَيْتَ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجْلَانِ، وَالنَّبِيُّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أَمْتَى، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ إِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عِذَابٍ»، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ؛ فِيَخَاضُ النَّاسُ فِي أَوْلَئِكَ.

فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعْلَهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعْلَهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُمْ؛ فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوْنَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».. فَقَامَ عُكَاشَةُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ؛ قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ». قَالَ: ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ»^(١).

قد يبدو للناظر أن عُكاشة خطف «الجنة» بغير حساب أو أدركها بكلمة بضربة حظ؛ ولكنك - أخي - تنظر إلى التشطيات النهاية

(١) متفق عليه: البخاري (٥٧٥٢)، مسلم (٢٢٠).

أصول الوصول إلى الله تعالى

ولا ترى ما وراء ذلك ، إنك تنظر إلى اللقطة الأخيرة ولم تر أصل الموضوع وتقدير الأزاق .

إن عَكَاشة سار إلى الله طويلاً وعمل كثيراً حتى بلغ هذه المنزلة . فلما بلغها أوحى الله إلى رسوله ﷺ بقبول عَكَاشة في ركب السبعين المُغَرَّدين ، وأجرى على لسانه ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى هذا الكلام ، ثم أنطق عَكَاشة بالطلب في لحظتها ، وهذا دليل ترقيه لها فأعطيها .. هذه حقيقة الأمر .. فليس عَكَاشة قد خطفها في لحظة .. لا .. الله علِيم حكيم .. علِيم يعلم أن عَكَاشة تعب في السير إليه ؛ فكان الأولى بها أحق بها وأهلها ، ولما فتح الباب وقلده آخرون مُنعوا ، ولا يظلم ربك أحداً؛

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

إن عَكَاشة بدأ السير إلى الله في هذه الطريق ، فلما وصل تلك المنزلة وأراد الله أن يمنحه إياها ؛ أجرى الله هذا الكلام على لسان رسول الله ﷺ وأحضره في المكان فأسمعه ثم أنطقه فبشره .. هذه هي القضية .. فليس خطفة في لحظة .. افهم ذلك جيداً.

موقف آخر يفسر لك الموضوع :

أنس بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت جعفر الصادق عليه السلام يقول: يا سيدي، أتعاقب من ليس له شفيع عندك غيرك؟! فقال: انطلق إذا، فلما انطلق الغلام التفت إليه وقال: يا سيدي، اعلم أنك لست الذي أطلقني؛ إنما أطلقني الذي أجرأها على لسانه، فقال: اذهب فأنت حر لوجه الله.

وقفت - أيها الإخوة - مع هذا الموقف مليأً أقول: سبحان الله! هذا

كلام عبدٍ لعبدٍ ، فأَعْنَقَ الْعَبْدُ عَبْدَهُ ، فكيف إذا جرى هذا الكلام مع السيد الكريم الله؟! .. اللهم أعتق رقابنا من النار .. آمين .

نعم : لو جرى هذا الكلام على لسانك لربك لتحررت من العبودية لغيره ، ولكن من الذي يجريه على لسانك ، وماذا قدّمت لكي يجريه؟! .. لابد أن تبدأ أنت أولاً .. إن الله إذا أراد عبده لأمرٍ هيأ له وأجراه على لسانه؛ فهو - سبحانه - الذي يُنطق لسانه؛ قال - تعالى - : ﴿أَنَطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] .. أنطق كل شيء .. سبحانه وتعالى .

ولذلك قال الله - تعالى - : ﴿فَنَلَقَنَّ إَادُمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَأَبَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ، فالله - تعالى - هو الذي أجرى على لسان آدم كلمات التوبة ثم من بقبولها ، فكان الفضل منه أولاً وآخرًا . نعم : وفقه للتبعة فتاب ، وقبل توبته؛ لأنه - تعالى - تواب رحيم .

أيها الإخوة ، إن هذه القضية تحتاج إلى وقفة كبيرة ، فالإيمان لا يأتي طفرة ؛ وإنما له مقدمات وتمهيدات تحتاج منك إلى استعانة بالله وعمل ، اللهم ثبت على الإيمان قلوبنا ، وارزقنا فهما في الدين يرضيك عنا .. آمين .

إن الذي ينظر في قصة السحررة ، سحرة فرعون مع موسى ، هؤلاء الذين آمنوا في لحظة وترعروا لأقصى أنواع التهديد : لا قطعن ولا أصلبٌ ولا فعلن ولا فعلن ، فثبتوا وقالوا : ﴿فَأَفَضِّلَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] - إن الناظر إلى هؤلاء يظن أنهم حصلوا على الإيمان في لحظة ؛ لم ينظر لقدر الله كيف عمل في هؤلاء السحررة سنين ليعدّهم لتلك اللحظة .. لم اختيار هؤلاء السحررة بالذات؟ ، ولم وجدوا في هذا المكان بالذات؟! ، والجواب : لأنهم سعوا .. نعم - أخي - : إن القضية تحتاج منك إلى سعي .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وفي قصة الثلاثة أصحاب الغار ، لما نزلت صخرة فسدَّت عليهم باب الغار ؛ توسل الأول بعمل صالح فانفرجت الصخرة شيئاً يسيراً حتى رأوا النور ، فلما توسل الثاني انفرجت أكثر حتى رأوا السماء ، فلما توسل الثالث انفرجت الصخرة حتى خرجو يمشون ؛ فعلى قدر عطائك تعطى ، وعلى قدر سعيك تُمنى .

كان رسول الله ﷺ يجلس في حلقة من أصحابه فدخل ثلاثة ، أما الأول : فوجد فرجة فجلس فيها ، وأما الثاني : فاستحيى فجلس خلف الحلقة ، وأعرض الثالث فمسى ؛ فقال رسول الله ﷺ : «أو أخبركم بخبر الثلاثة نفر ، أما الأول : فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني : فاستحيى فاستحيى الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه»^(١) .

فإن أويت إلى الله آواك ، وإن أعرضت عنه أعرض عنك وطردك وألقاك . قال الله - جل جلاله - عن يونس عليه السلام : ﴿فَلَوْلَا أَنَّمُّ كَانَ مِنَ الْمُسِّيْحِينَ لَلَّيْلَةَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبَعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣-١٤٤] .. مع أنهنبي .. نعم : فلا أحد أعزيز على الله - مهما بلغت منزلته - إن لم يئر إلى الله .. فائِرٍ إلى الله ولا تُعرض .

قال ابن القيم رحمه الله : «وَإِيْمَانِيْ جَهَةٌ أَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهَا أَظَلَمْتُ أَرْجَاؤُهَا وَدارَتْ بِهَا النُّحُوسُ» اهـ .

اُنْوِي إِلَى اللَّهِ وَابْدأِ .. ابْدأْ حُطْوَةً .. اعْمَلْ .. اتَّعَبْ .. تَحرَّكْ .. اسْعَ وَسُوفَ يُتِمُّ عَلَيْكَ بَخِيرَ .

(١) متفق عليه : البخاري (٦٦) ، ومسلم (٢١٧٦) .

ودائماً معلوماً أنَّ نقطة البداية هي الأشْقَى ، وانطلاقُ البداية هي الأصعب ، وهذا هو عين الابتلاء من الله - سبحانه وتعالى .. أن يجعل البداية عليك .. **يقولُ ابنُ القِيمِ - عليه رحمةُ اللهِ - :**

«لِيَسَ لِلْعَبْدِ شَيْءٌ أَنْفَعُ مِنْ صَدَقَةِ رَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْوَارِهِ، مَعَ صَدَقَةِ الْعَزِيمَةِ، فِي صَدَقَةِ عَزْمِهِ وَفِي فِعْلِهِ؟ قَالَ - تَعَالَى - : ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ كَرِهُوا اللَّهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ فَسَعادَتُهُ فِي صَدَقَةِ الْعَزِيمَةِ وَصَدَقَ الْفَعْلِ؛ فَصَدَقَ الْعَزِيمَةَ جَمِيعًا وَجَزْمُهَا وَعَدْمُ التَّرَدُّدِ فِيهَا؛ بَلْ تَكُونُ عَزِيمَةً لَا يَشُوبُهَا تَرَدُّدٌ وَلَا تَلُومٌ .

فِإِذَا صَدَقْتُ عَزِيمَتِهِ بَقَيَ عَلَيْهِ صِدْقَ الْفَعْلِ، وَهُوَ اسْتِفْرَاغُ الْوُسْعِ وَبَذْلُ
الْجُهْدِ فِيهِ، وَأَنْ لَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُ بَشَيْءٍ مِنْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، فَعَزِيمَةُ الْقَصْدِ
تَمْنَعُهُ مِنْ ضَعْفِ الْإِرَادَةِ وَالْهَمَّةِ، وَصَدَقَ الْفَعْلُ يَمْنَعُهُ مِنِ الْكَسْلِ
وَالْفَتْورِ. وَمَنْ صَدَقَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَمْوَارِهِ صَنَعَ اللَّهُ لَهُ فَوْقَ مَا يَصْنَعُ
 لَغَيْرِهِ . وَهَذَا الصَّدَقُ مَعْنَى يَلْتَسِمُ مِنْ صِحَّةِ الْإِلْحَاصِ وَصَدَقَ التَّوْكِلِ،
 فَأَصْدَقَ النَّاسِ مِنْ صَحَّ إِلْحَاصِهِ وَتَوْكِلَهُ»^(١) .

فَأَخِي الْحَبِيبِ، أَنْتَ مُبْتَلٌ بِأَنْ تَبْدَأُ، وَمُمْتَحَنٌ بِأَنْ تَصْدُقُ، فِإِذَا
 بَدَأْتَ كَمَا يُحِبُّ أَتَمَ لَكَ كَمَا تُحِبُّ .. وَالْانْقِطَاعُ سَبِيلُ الْبَدَائِيَّةِ الْضَّعِيفَةِ ..
 فَإِنَّ السَّائِرَ إِنْ فَتَرَ عَزْمُهُ اسْتَمَرَ سَيْرُهُ بِقُوَّةِ الدَّفْعِ الْأُولَى .. فَأَيْنَ بَدَائِيَّكَ أَيُّهَا
 الْحَبِيبُ؟ .. أَعْطِنِي الدُّفْعَةَ الْأُولَى وَاتْرُكِ الْأَقْسَاطَ عَلَى اللَّهِ .

* * *

(١) الفوائد (٤٣٨ - ٣٢٧).

الأصل الثاني

كن واحداً لواحد على طريقٍ واحدٍ

هذا الأصل هو خلاصة الكلام في أمر السير إلى الله ، والوصول إليه سبحانه وتعالى .. كن واحداً لواحد على طريقٍ واحدٍ ؛ تصلن .

كن واحداً .. ما معناها؟

أُخْيَيْ ، هل تعرف في زماننا رجلاً بوجهين؟ .. أنا لا أعرف !! ، فأكثر الناس اليوم بعشرة وجوهٍ ليس بوجهين فقط؛ بل بعشرين ، بخمسين ، بمئة .. حتى ذي الوجهين قلماً تجده !! .. فأين المخلص الذي لا يُعرف له إلا وجهٌ واحدٌ؟ ! ، اللَّهُمَّ اجعلنا من عبادك المخلصين .

نعم - إخواته - : كثيراً ما تجد إنساناً معك في المسجد ، قدْمُهُ في قدميك ، وكتفُهُ في كتفك ورأسه بجوار رأسك في السجود ، يبتهل إلى الله ويدعوه ، ويُتممُ بأطيب الكلماتِ ، ثم إذا خرج من المسجد فبوجهٍ آخر ، فإذا دخل بيته مع زوجته وأولاده فبوجهٍ ثالثٍ ، وفي العمل بوجهٍ رابع ، فإذا تعامل مع النساء الأجنبية فرقيقٌ طيبٌ ولئن بوجهٍ خامس ، وإذا تعامل مع الرجال فبوجهٍ سادس ، فإذا تعامل مع الأكابر أو من هم أعلى منه اجتماعياً كمديره أو رؤسائه في العمل ؛ فبوجهٍ سابع ، وإذا تعامل مع من هم أدنى منه كالفقراء والضعفاء فبوجهٍ ثامن ، وتاسع وعاشر .. من أنت؟؟!! ، من أنت يا عبد الوجه؟! ، أيُّ الوجوه وجهاً الحقيقيّ؟!

إلى متى ستظل تخلع وجهها وتلبس آخر؟! ، إلى متى ستظل غشاساً؟!
ألا تعلم أنَّ الله يرى كلَّ هذه الوجوه؟! .. يراك هنا ويراك هناك .. يراك
الآن ويراك غداً .

تجدُّ ذا الوجه إذا مرض فبوجهه ، وإذا صحَّ بوجهِ آخر ، وإذا افترق
بوجه ، وإذا اغتنى وأمتلك فبوجه آخر ، تجده إذا تولى سعي في الأرض
ليفسد فيها ويُهلك الحمرَ والنسل ، وإذا رُئسَ فذليلٌ مهانٌ منافق .. تجد
ذا الوجه لا يستحي من الله وهو يراه .

منْ أنتَ أخِي؟ .. أجب عن هذا السؤال .. من أنت وأيُّ الوجه
ووجهك ، وأيُّ الأشخاص شخصك ، وأيُّ الطرق طريقتك؟ ، لماذا تعيشُ
بعشرين وجهاً ، وعشرين لوناً ، وعشرين طريقةً؟! .. ألا تستحي
من الله وهو يراك؟!

أخِي ، كن واحداً ، كن صاحب وجهٍ واحد ، يمشي بطريقه واحدة .

أخِي ، أيُّ الوجه أريدُك؟ .. أريد لك وجهَ العبد .. أن تظلَّ عبداً ..

العبد الذي يركع ويسجد ويتلوي القرآن؛ ويتباهي ويتبتل ويتفرَّغ . هذا العبد
كُنه في البيت مع الزوجة والأولاد ، وكُنه في الشارع مع الناس .. كُنه كيف
كنت ، ومتى كنت ، وأين كنت .. كن عبداً في كلِّ أحوالك .

أخِي ، إذا جاءتك امرأةٌ متبرجة لتقضى منك حاجةً نراك تتعامل معها
برقةٍ ولطافة ، أرأيت رقتَك؟ ، أرأيت جمالَك؟ ألا يكون هذا مع
زوجتك؟ .. وهي أولئك .. لماذا لا تتعامل بمثل هذا مع شريكه حياتِك
وأمِّ عيالِك؟!! .. نعم : العبد هو الذي يتعامل بالرقة والجمال والحنان

أصول الوصول إلى الله تعالى

والتودد مع الزوجة ، أمّا الشدة والوجه الغليظ فمع الأجنبية .. هذا هو المطلوب وبهذا تكون عبداً لله .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، إني أريده عبداً لله في البيت ، وعبدًا لله في المسجد ، وعبدًا لله في الشارع ، وعبدًا لله في العمل ، عبدًا لله وحده هنا حيث يعرفك الناس ، وعبدًا لله هناك حيث تخلو فلا يعرفك أحد إلا الله ، فالله الذي يراك هناك هو الذي يعرفك هنا؛ فاستريح أن يراك على غير ما يعرفك .

كن واحداً ، ولا تكون عشرة ، لا تكون اثنين ، كن عبداً لله وحده ، ولست أقصد أن تكون دوماً ذليلاً؛ بل العبد على مقتضى العبودية : في البيت رجل له القوامة والتربية ، وفي العمل تراه مخلصاً وإن لم يره أحد ، وفي الشارع مراقباً لモلاه .

كن عبداً لله وحده مع الرجال والنساء ، والأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار .. كن عبداً وضع يديك ورجلليك في قيود الشريعة الفضيحة لتحرر من العبودية لغير الله .. الْزَمِ الْأَمْرَ وَالنَّهِيُّ ، وكن كما يريد الله .. عش على مراد الله منك لتكون عبداً .

فكن واحداً : أي كن عبداً ..

لواحد :

أي لله وحده؛ قال رسول الله ﷺ : «تَعِسَ عبدُ الدرهم ، تعس عبدُ الدينار ، تعس عبدُ القطيفة والخميسة ، تعس عبدُ المرأة ، تعس وانتكس ، وإذا شِيكَ فلا انتَقَش»^(١) .

(١) هذا الحديث أصله في البخاري (٢٨٨٧).

أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ، وَاصْدُقْ يَا عَبْدَ اللَّهِ : أَنْتَ عَبْدٌ لِمَنْ؟ لِلَّهِ وَحْدَهُ أَمْ عَبْدٌ
لِلظُّرُوفِ أَيْضًا؟ أَمْ عَبْدٌ لِلبيئةِ وَالْمَجَمِعِ؟! عَبْدٌ لِلعاداتِ وَالْتَّقَالِيدِ؟! أَمْ
عَبْدٌ لِلمَهْنَةِ وَالْوَظِيفَةِ وَالرَّاتِبِ الشَّهْرِيِّ ، عَبْدٌ لِصَاحِبِ الْعَمَلِ ، أَمْ عَبْدٌ
لِزَوْجِتِكَ وَأَوْلَادِكَ وَاحْتِياجَاتِهِمْ وَمَطَالِبِهِمْ؟! .. عَبْدٌ مَنْ أَنْتَ؟ .

كثير من الناس عبيدٌ لأشياء كثيرة ، فمنهم من عبد بطنه ، ومنهم من
عبد شهوته وفرجه ، ومنهم من عبد بيته وفرشه ، ومنهم من عبد رصيده
وماله ، ومنهم .. فكأنك عبد الله .

إنَّ المتأملَ - إخوتاه - في تاريخ العقيدة الإسلامية الطويل ، ليدرك
مدى العناد والتکذيب الذي واجهه أنبياء الله ورسله في تعبيد القلوب لإلهٍ
واحدٍ هو الله؛ فقوم نوحٍ كذبوا المرسلين ، وكذبت ثمودٍ وعادٍ بالقارعة ،
وكذبَ بنو إسرائيل موسى وجحدوا ما جاء به ، وعاند المشركون
رسول الله ﷺ .. ومع كلٍّ هذا صبرٌ هؤلاء الأنبياء والمرسلون؛ لعلمهم
بعظمة وأهمية ما يدعون إلى .. وهو التوحيد .

فالتوحيدُ نظامُ الكون ، ولا يَصْلُحُ في الطريقِ إلى الله إلا التوحيد؛
توحيدُ القصد وتوحيدُ المعبد؛ ولذلك إذا أردت - أيها الحبيب - أن
تسيرَ إلى ربِّكَ سيراً حسناً فالزم التوحيد . قال - سبحانه - : ﴿ قُلْ إِنَّ
صَلَاتِي وَسُكُونِي وَمَحِيَّاتِي وَمَمَاتِقِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَنِذَلِكَ أُمِرْتُ وَإِنَّ أَوَّلَ
الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

ولا بدَّ أن تعلمَ أنَّ الله - سبحانه وتعالى - هدَّدَ أنبياءه ورسله بحبوط
الأعمال - وإنْ كثُرت - إن فاتها التوحيد؛ فقال بعد أن ذكر جملةً كثيرةً

أصول الوصول إلى الله تعالى

منهم في سورة الأنعام : ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِيطاً عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] ، بل قال مخاطباً نبيه محمدًا ﷺ : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لِئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ بِلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦] .

ومن خطورة أمر التوحيد أن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديباب النمل ؛ لذا علّمك النبي ﷺ أن تقول كُل يوم مراراً : «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلم به وأستغفر لك لما لا أعلم به»^(١) .

ومن خطورة أمر التوحيد الخوف على التوحيد ؛ قال الله - سبحانه وتعالى - حاكياً عن إبراهيم عليه السلام دعوته : ﴿وَاجْتَبِنِي وَبَيْنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] .. فهذا إبراهيم خليل الله يخاف على توحيدك ؛ فيطلب التثبيت عليه ويطلب لبنيه ألا يحيدوا عنه .

ومن خطورة التوحيد أنه قد يلتبس على العبد ؛ **قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «الفوائد» :**

«التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه ، فأدنى شيء يخدشه ويُدنسه ويؤثر فيه ، فهو كأبيض ثوب يكون ، يؤثر فيه أدنى أثر ، وكالمراة الصافية جداً ، أدنى شيء يؤثر فيها . ولهذا تشوشه اللحظة واللفظة والشهوة الخفية ، فإن بادر صاحبه وقلع ذلك الأثر بضده ؛ وإلا استحكم وصار طبعاً يتعرّض عليه قلعه .

(١) أخرجه : البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٧) ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في « صحيح الأدب المفرد » .

وهذه الآثار والطُّبُوع التي تَحْصُلُ فيه : منها ما يكون سريعاً الحصول سريعاً الزوال ، ومنها ما يكون سريعاً الحصول بطيء الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريعاً الزوال ، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال .

ولكن مِنَ النَّاسِ مَنْ يَكُونُ تَوْحِيدُهُ كَبِيرًا عَظِيمًا ، يَغْمُرُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ تَلْكَ الْآثَارِ ، وَيَسْتَحِيلُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الْمَاءِ الْكَثِيرِ الَّذِي يَخْالِطُهُ أَدْنَى نِجَاسَةِ أَوْ وَسَخٍ ، فَيَغْتَرُ بِهِ صَاحِبُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ دُونَهُ ، فَيَخْلُطُ تَوْحِيدَهُ الْمُضِعِيفَ بِمَا خَلَطَ بِهِ صَاحِبُ التَّوْحِيدِ الْعَظِيمِ الْكَثِيرِ تَوْحِيدَهُ ، فَيُظَهِّرُ مِنْ تَأْثِيرِهِ فِيهِ مَا لَمْ يُظَهِّرْ فِي التَّوْحِيدِ الْكَثِيرِ .

وَأَيْضًا فِيَّنَ الْمَحَلَ الصَّافِي جَدًّا يُظَهِّرُ لِصَاحِبِهِ مَا يَدْنِسُهُ مَا لَا يُظَهِّرُ فِي الْمَحَلِ الَّذِي لَمْ يَلْعُجْ فِي الصَّفَاءِ مَبْلَغُهُ ، فَيَتَدارِكُهُ بِالْإِزَالَةِ دُونَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَا يَشْعُرُ بِهِ .

وَأَيْضًا فِيَّنَ قُوَّةَ الإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ إِذَا كَانَتْ قُوَّةً جَدًّا أَحَالَتِ الْمَوَادَ الرَّدِيءَ وَقَهَرَتْهَا ، بِخَلْفِ الْقُوَّةِ الْمُضِعِيفَةِ^(١) .

فَانظُرْ - رَحْمَكَ اللَّهُ - إِلَى تَوْحِيدِكَ : هَلْ مَا زَالَ عَلَى صَفَائِهِ وَطَهَارَتِهِ وَنَقَائِهِ أَمْ أَنَّهُ تَلَوَّثَ مِنْ مُخَالَطَةِ الْبَشَرِ وَمُعَامَلَاتِهِمْ ، وَغِيَابِ الْعِلْمِ عَنِ الْقَلْبِ ، وَنَسْيَانِ الذِّكْرِ وَكَثْرَةِ الْكَلَامِ وَالْجَدَالِ الْمَقِيقِ ، وَحُبِّ الْعُلُوِّ وَالْغَلَبةِ ، وَتَعْلُقِ الْقَلْبِ بِمَدْحِ النَّاسِ وَدُفْعِ ذَمَّهُمْ ، وَالشَّهْوَاتِ الْمُرْكَبَةِ فِي

(١) الفوائد (٣٣٩) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

الأنفس . . . هذه كلها - والله - إن وقعت في القلب سقطت سماء توحيدك على أرضه ، فلا تقوم لقلبك قائمة . . في أخي الحبيب ، كن لواحدٍ تستريح .

قال الله - تعالى - : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَحْمٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٢٩].

«يضرب الله المثل للعبد الموحد والعبد المشرك : عبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع؛ ولكلٍ منهم فيه توجيه ، ولكلٍ منهم عليه تكليف ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق؛ ولا يملك أن يرضي أهواههم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه! وعبد يملكه سيد واحد ، وهو يعلم ما يطلب منه ، ويكلفه به ، فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح . . هل يستويان مثلًا . . إنهما لا يستويان . فالذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين . وتجمّع الطاقة ووحدة الاتجاه ، ووضوح الطريق . والذى يخضع لسادة متشاكسين معدّب مقلّل ، لا يستقر على حال ، ولا يرضي واحداً منهم فضلاً على أن يرضي الجميع!

وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك في جميع الأحوال . فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذي يقطع الرحلة على هذه الأرض على هدى؛ لأنّ بصره أبداً معلق بنجم واحد على الأفق فلا يلتوي به الطريق . وأنه يعرف مصدرًا واحدًا للحياة والقوة والرزق ، ومصدرًا واحدًا للنفع والضر ، ومصدرًا واحدًا للمنح والمنع ، فتستقيم خطاه إلى

هذا المصدرِ الواحد ، يستمدُ منه وحده ، ويعلقُ يديه بحبِّ واحد يشدُ عُروته . ويطمئنَ اتجاهه إلى هدفٍ واحد لا يزوج عنه بصره . ويخدم سيداً واحداً يعرف ماذا يرضيه فيفعله وماذا يغضبه فيتّقيه .. وبذلك تجتمع طاقته وتتوحد ، فيتيح بكلٍّ طاقته وجهده وهو ثابتُ القدمين على الأرض متطلع إلى إلهٍ واحدٍ في السماء .. ويعقبُ - سبحانه - على هذا المثل الناطق الحي ، بالحمدِ لله الذي اختار لعباده الرَّاحَة والأمن والطمأنينة والاستقامة والاستقرار . وهم مع هذا ينحرفون ، وأكثُرُهم لا يعلمون ..^(١) . فهل أنت منهم؟ .. هل أنت لواحد؟ ، أم أنك لشركاء متشاكسين؟ !

نعم : إن أكثر الناس اليوم منحرفون عن التوحيد ، ويعيشون في شتاتٍ ، فتجد قلوبهم معلقة بالمال والزوجة والوليد والبشر ، فيعيشون مهمومين محزونين مشتتين مضيئين .. ولا يمكن أن يتعلّق القلب بالله وحده إلا بأن يكون في قلبك همٌ واحد : هو طلب رضا الله والاستعانة به ، فهمك وهمتك وتفكيرك دائم في تحصيل رضا الله؛ ساعتها تكون عبداً لله وحده .. تكون واحداً لواحد بحق ، ومنها تنطلق على طريق الوصول إلى الله - تعالى .

على طريق واحد :

إذا كنتَ واحداً لواحد فلكي تصل لابد من أن يكون لك طريق واحد إلى الله - تعالى - ، فهما توحيدان : توحيد القصد وتوحيد المعبد .

(١) في ظلال القرآن (٥/٣٠٤٩ - ٣٠٥٠) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

هو طريق واحد لا يتعدد ولا يتغير؛ كما قال ربنا - جل وعلا - :
 ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّمُوهُ وَلَا تَنِيئُوا أَسْبُلَ فَنَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] فوحد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السُّبُل المخالفة لأنها كثيرة ومتحدة.

فكن على طريق واحد تصل وهو الطريق إلى الله - سبحانه - وأصله : الكتاب والسنة ، وقال فيه رسول الله ﷺ : «إنه من يعش بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بستي وسنة الخلفاء الراشدين عضواً عليها بالنواجد ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل محدثة بدعة وكل ضلاله في النار»^(١) ، وقال ﷺ : «تركت فيكم ما إن تمسكت به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي»^(٢) . فاسلك الطريق الواحد وإذا سلكته فلا تغيرة ولا تبدل لثلا تطرداً .. لا تتلون ولا تتبع الهوى فيضلوك عن سبيل الله .. اللهم نجنا من مضلات الفتنة .

لما جاء حذيفة بن اليمان الموت جلس عبد الله بن مسعود عند رأسه وقال له : أوصني ، فقال له : ألم يأتك اليقين ، قال : بلى وعزه ربى ، فقال حذيفة : إياك والتلون ، فإن دين الله واحد .

ومن التلون : استحلال الحرام ؛ قال العلماء : الفتنة أن تستحل ما كنت تراه حراماً .

(١) أخرجه : أحمد (٤/١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذى (٢٦٧٦) وقال : حسن صحيح ، وقال الألبانى : صحيح .

(٢) أخرجه : أحمد (٣/٥٩)، والترمذى (٣٧٨٦) وقال : حسن غريب ، وانظر «الصحيحه» (١٧٦١).

يمشي الشاب في الطريق إلى الله سنين واعتقاده : حُرمة التلفاز ، ثم تُفاجأ بالتلّون .. نعم : لقد دخل التلفاز بيوت كثير من الملتزمين .. أدخله لأنّه مفتون .. قد تلّون ؛ فصار الطريقُ عنده عدّة طرق .

فبعد أن كان يعتقد أنَّ صلاة الجماعة في المسجد فرضٌ عين ؛ صار يقول : هناك مذاهب أخرىٌ فيمكن أنْ أصلّي في البيت .. تلّونٌ وفتور .. بعد أن كان يعتقد أنَّ طلب العلم لازمٌ له ، وبعد أن كان يعتقد أن الدعوة إلى الله أمانةٌ في عنقه ؛ تخلّى وانشغل بدنياه ؛ فتشعبت به الطرق .

أيها المفتونُ : ستموت ، وستحاسبُ على آرائك القديمة لِمَ غَيَّرْتَها .. لِمَ بَدَّلت .. لِمَ تلوّنت .. لِمَ التفتَ؟ .. كان راضياً بالقليل ؛ فإذا به يستشرفُ لحياة المترفين والأغنياء .. لِمَ يا عبد الله؟ ، لِمَ غَيَّرت طريقك؟ ، إنها سِكّة واحدة ومنهجٌ واحدٌ هو الصحيح ، **﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الْأَصْلَلُ﴾** [يونس: ٣٢] .. أخي ، الحقُّ واحدٌ لا يتعدد ، فعلى منهجهك فاثبُت . **﴿Qul iñmā aññá bášr̄ m̄thlkuñ yúwħid ilá iñmā il-hukm̄ il-láh wájhd fástiqimūa iláyhi wáastigfrúu wáwil lilmusrikín﴾** [فصلت: ٦] .

كن على طريقٍ واحد ، واعلم أن الكتاب والسنّة بهم سلف الأمة منهجٌ معصوم ، ليس لأنني أقول ذلك ؛ بل لأنّ الله - تعالى - أمر بذلك ؛ قال - تعالى - : **﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَبْلُغُنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** [التوبه: ١٠٠] ، وقال - سبحانه - : **﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِيَحْسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾** [البقرة: ١٣٧] .

سُئل أبو علي .. الحسن بن علي بن الجوزجانيُّ : كيف الطريقُ

أصول الوصول إلى الله تعالى

إلى الله؟، فقال : الطرق إلى الله كثيرة ، وأوضح الطرق وأبعدها عن الشبه : اتّباع السُّنَّة قولاً وفعلاً وعزاً وعقداً ونيةً ؛ لأنَّ الله يقول : ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]. فقيل له : كيف الطريق إلى السُّنَّة ، فقال : مجانبة البدع ، واتّباع ما أجمع عليه الصدرُ الأول من علماء الإسلام ، والتبعاد عن مجالس الكلام وأهله ، ولزوم طريقة الاقتداء ، وبذلك أمرَ النبي ﷺ بقوله - سبحانه - : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [النحل: ١٢٣].

وقال أبو الحسن الوراق : لا يصل العبد إلى الله إلا بالله وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه ، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء ، يضلُّ من حيث يحسب أنه مهتدٌ .

وقال أبو بكر الطمساني : الطريق واضح ، والكتاب والسنة بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم لسبقهم إلى الهجرة ولصحابتهم ، فمن صاحب مِنَ الكتاب والسنة وتغَرَّب عن نفسه والخلق ، وهاجر بقلبه إلى الله ؛ فهو الصادق المصيب .

وعن طريق البدع يقول الحسن : صاحب البدعة لا يزداد اجتهاداً؛ صياماً وصلاًةً؛ إلا ازداد من الله بُعداً .

وعن أبي إدريس الخولاني أنه قال : لأنَّ أرى في المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها أحُبُّ إلَيَّ من أن أرى فيه بدعة لا أستطيع تغييرها . فتمسَّكْ - أخْيَ - بما كان عليه سلفك الصالح ، وابتعد عن البدع وأهلها وكن على طريق واحد «طريق السُّنَّة» ولا تلتفت .

قال بُنْدار بن الحسين : صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق .

وقال حَمْدُون القَصَار : من نظر في سِير السلف ، عرف تقصيره وتخلفه عن درجات الرجال . قال الشاطبی : « وهذه - والله أعلم - إشارة إلى المثابرة على الاقتداء بهم ؛ فإنهم أهل السنة »^(١) .

إخوته : الطريق إلى الله واحدة لا تتغير أبداً ، فلسنا نجد في منهجاً أو نغيّره أو نبدلُه أو نعدلُه .. هو منهج واضح ، والثبات عليه هو سرُّ الوصول إلى الله ، فإن غيّرت أو بذلت أو جدّدت أو التفتَّ ضيّعت .

قال ابن القِيم : « لو أن عبداً أقبلَ على الله ألف سنة ، ثم التفتَ عن الله لحظةً واحدة ؛ لكن ما خسِرَ في هذا أعظم مما حصلَه في الألف سنة » اهـ .

فَسِرْ - أخْيَ - ولا تلتفتْ .. انطلق على طريق واحد .. انطلق وكن واحداً لواحد على طريقٍ واحد؛ تصل بِإذن الله .

* * *

(١) الاعتصام (٩٥/١).

الأصل الثالث

ما لا يكون بالله لا يكون

وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

تدبر هذه القاعدة؛ فاللزم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ .. وهاء بيانها :

ما لا يكون بالله لا يكون :

العبد ضعيف .. خلق في الأصل محتاجاً فقيراً؛ قال الله : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وقال - تعالى - : ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَنَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] .. بأصل خلقتك ضعف؛ انظر قول الله عزوجل : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَا تَبْعَثُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُرِزِّكِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١].

وقال - سبحانه وتعالى - : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلَنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءَ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَدُهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [١٦] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ كَانَ مَشْكُورًا﴾ [١٧] كُلُّ ثِمَّةٍ هَتُولَةٌ وَهَتُولَةٌ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [١٨] أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١-١٨].

ما لا يكون بالله لا يكون وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

٨٩

«كُلًا نُمْدُ» .. من المُمِدُّ الله ، ومن المستعان؟ الله .. الله هو المُمِدُّ المعطى المستعان .. الله هو الموفق المسدد .. الله هو الذي يصطفى ويختار .. فالسير في الطريق إلى الله مبني على الاصطفاء والاختيار ، فإذا اختارك واصطفاك هيأك .

قال الله - تعالى - في حق يومن القيمة : ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٥٠] .. اجتباه فجعله .. فأنت ضعيف لا طاقة لك .. أنت ضعيف لا قوّة ولا قدرة ولا حول لك إلا أن تكون بالله ، فما لا يكون بالله لن يكون ، فالذي أتي بك إلى المسجد ، الله ، والذي أنطق فأسمع ، الله .. الله هو الذي اجتباك وجعلك من الملزمين .

أخي في الله ، حبيبي في الله على طريق الحق للوصول إلى الله ، الزم «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» ، تبرأ من حولك وقوتك والجأ إلى حوله وقوته واستعن به ، استعن به وتوجه إليه واطلب منه .. استعن به وحده يكن لك .. كما قال العلماء : كُنْ لِلَّهِ كَمَا يُرِيدُ؛ يكن لك فوق ما تريده .

قال رسول الله ﷺ : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فسائل الله ، وإذا استعنَت فاستعن بالله ، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعَت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضرُوك بشيءٍ لم يضرُوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك رُفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١) .

(١) أخرجه : أحمد (١/٢٩٣) (٢٦٦٩) ، والترمذى (٢٥١٦) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألبانى - رحمه الله تعالى .

أصول الوصول إلى الله تعالى

«احفظ الله يحفظك»، والأعجب منها: «احفظ الله تجده تجاهك»، احفظ الله تجده معك، في اتجاهك، في الاتجاه الذي تريده تجده - سبحانه - تجاهك.

إنَّ كثِيرًا منا حين يسُرُّ في الطريق إلى الله فيصيِّبُه الفتور أو يُفتن فيتراجع؛ يظل طيلة الوقت يسأل عن السبيل إلى الرجوع، ويعُلِّمُ أسباب الرجوع ويأخذ بالأسباب وينسى الله، فلا تُؤتَى الأسباب ثمرتها.. تقول له: افعل كذا، يقول: فعلت ولم أجد فائدةً، افعل كذا.. فعلت ولا فائدة.. افعل، فعلت.. وفعلت.. وفعلت.. نعم: فعل ولم يستعن بالله فلم توجد ثمرةً، ولا توجد ولن توجد إلا بالله.

وتأمل معي هذا الحديث العظيم ليثبت يقينك في هذه القاعدة: ما لا يكون بالله لا يكون، وأضعف إليها القاعدة الأولى والأصل الأول: عليك البداية وعليه التمام:

يقول الله - تعالى - في الحديث القديسي: «يا عبادي كُلُّكُمْ ضالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ جائعٌ إِلَّا مَنْ أطْعَمْتُهُ، فاسْتَطِعْمُونِي أطْعِمْكُمْ، يا عبادي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسُوتُهُ، فاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عبادي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا؛ فاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ..»^(١).

هكذا: «كُلُّكُمْ»؛ إِلَّا مَنْ سَأَلَ اللَّهَ فَأَعْطَاهُ.. فَلَنْ تُؤْتَى شَيْئًا إِلَّا

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٥٧٧).

ما لا يكون بالله لا يكون وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

٩١

و عند الله خزائنه ﴿وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدْرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]. فاستعن بالله تُعْنِي واستشهده تُهْدَى . وهكذا : ما لا يكون بالله لا يكون .. فكن لله يكن لك . وإلا فالضياع والتهي ثم الهلاكة عيادةً بالله - تعالى .. ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١].

وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم :

إخوتي في الله ، ما كان لغير الله أضمحل .. يضمحل .. يتلاشى كالرسوم على رمال الشاطئ؛ تمحوها أمواج البحر .. نعم : ما كان لله دام واتصل ، وما كان لغير الله انقطع وانفصل .

شجرة الصَّفَصَاف تقطع في ثلاثة أشهر ما تقطعه شجرة الصنوبر في ثلاثة سنة ، ثم تقول لها : ما قطعتيه في ثلاثة سنة قطعته في ثلاثة أشهر ويقال لي شجرة ولك شجرة ؛ فتقول لها الصنوبرة : اصبري حتى تهُبَّ رياحُ الخريف فإن ثبت لها تمَّ فخرُك ،

وعندما ثبتت دودة الفَزْ تُسِجِّ ، قامت العنكبوت تنسِج وقالت لها : لك نسخولي نسج ، فقالت دودة الفَزْ : أما نسجك فمصادِيُّ الذباب ، وأما نسجي فأَرْدِيُّ الْمُلُوك ، وحال اللَّمْس يَبِينُ الفرق .

نعم : هكذا - أخي - إذا هبَّ رياحُ الابتلاء فثبتَ لها تمَّ فخرُك .

فليست القضية بصورة العمل ؛ فقد تتساوى الأشجار في المناظر ويسمى الكل نسجاً ، ولكن البهرج لا يدوم ، قال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿كَذَلِكَ يَصْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَطْلَ فَمَا زَيْدٌ فَيَذْهَبُ جُهَاءً وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَمَكُثُّ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]

أصول الوصول إلى الله تعالى

فهؤلاء الذين يدخلون الطريق إلى الله لشهوة أو لهوى أو لحظ نفسم لا ينفعون ولا ينتفعون ، ولا يستطيع أحدهم أن يتم عملا ولو كان بسيطاً ، وحين يبدأ في مشروع خير كطلب علم أو عبادة أو دعوة إلى الله ؛ تجده ينقطع ولا يداوم عليه ، ونسأله : ما السر؟!

إن السر الدفين - إخواته - لعدم القبول هو وجود حظ للنفس في العمل ؛ فالذي يأتي إلى صلاة الجمعة - ليس لله - ، والذى يقوم الليل ، أو يصوم النهار ، أو يحفظ القرآن أو يتعلم العلم ، أو يوم الناس ، أو يخطب الجمعة ، أو يعطي درسا ، أو .. أو .. وفي العمل شائبة من حظ النفس ؛ فعمله باطل .. أحبطه حين عمله لحظ نفسه^(١).

نعم : سل نفسك : عملك لمن؟ ، واصدق ولا تتهرب فالأمر جد خطير .. ألا تخاف من هذه الكلمة التي تقض مضاجع : «عملت ليقال وقد قيل ؛ فلا أجر لك عندي ، ثم يسحب على وجهه إلى جهنم»^(٢).

اعلم - أخي - أنك إذا صليت ثم خرحت فلم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر - اعلم أنك ما صليت لله ، فلو صليت له لأعطاك الشمرة ، وإذا حفظت القرآن فلم تزج رك نواهيه ولم تلزمك أوامرها ؛ فاعلم أنك لم تحفظه لله . فالله شكور .. يشكرون على القليل .. إذا عملت له عملاً لابد أن يثيبك ، ويشكرك عليه ، ويعطيك منه ، فإذا لم تعط فاتتهم عملك .. أتّهم عملك فإن المعبود كريم .

(١) سيأتي الحديث بتفصيل عن السر الدفين لعدم القبول في الأصل الخامس عشر.

(٢) جزء من حديث «أول من تُسَعِّرْ بهم النار ثلاثة». أخرجه : مسلم (١٩٠٥).

فالإخلاص الإخلاص - إخواته .. الإخلاص وإلا الضياع ..
الإخلاص وإلا الشروذ عن طريق الله .. الإخلاص حتى لا تضلوا
السبيل .. الإخلاص نور الطريق .

كان **الفضيل بن عياض** يقول : إذا كان يسأل الصادقين عن صدقهم ،
مثل إسماعيل وعيسى - عليهما الصلاة والسلام - ؛ فكيف بالكذابين من
أمثالنا ! ، وكان **رَحْمَةُ اللَّهِ إِذَا قرأ** : ﴿وَبَلُوَّ أَخْبَارَكُم﴾ يقول : اللَّهُمَّ إِنَّكَ إِن
بلوت أخبارنا ، فضحتنا وهاشت أستارنا ، عافيتُك هي أوسع لنا ، وأنت
أرحم الراحمين .

قال **أبو عثمان المغربي** : الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى
الحالي .

وقال **سهل بن عبد الله التستري** : نظر الأكياس في تفسير الإخلاص
فلم يجدوا غير هذا : أن تكون حركته وسكنه في سره وعلاناته لله
تعالى ، لا يمازجه شيء ، لا نفس ، ولا هو ، ولا دنيا .

وقيل لـ **الحمدون بن أحمد** : ما بال كلام السلف أفع من كلامنا ؟ ،
قال : لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن
نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق .

يقول أخي الشيخ سيد العفاني - حفظه الله تعالى - : «فاعقل
درجتك ، ولا تزه عن الخلق ، وجواهرك جواهر الفضائح ، وسيماك سيمما
الأبرار ، وعد نفسك مع نفس الكاذبين ، وروحك مع أرواح الهمجي ،

أصول الوصول إلى الله تعالى

وبدنك مع أبدان المذنبين . وأقبل على تعلم الإخلاص ، فوالله إنَّ علمه خيرُ العلم ، وفقهه الفقه كُلُّ الفقه .

يا إخوته ، الإخلاص مِسْكُ القلب ، وماء حياته ، ومدار فلاحه كُلُّه عليه .. نعم : بضاعة الآخرة لا يرتفع فيها إلا مخلص صادق .

ولا نجاة ولا فقه إلا مع سير السلف الصالحين .. فقد كان الشيوخ في قديم الزمان أصحاب قَدَم .. والطلاب أصحاب أَلَم ، فذهب القدم والألم ، اليوم عُصَّة ولا قِصَّة ، وإن التربية بالقدوة خيرٌ وسائل التربية . والحكايات عن سَلِفنا جُندٌ من جنود الله - تعالى - يُبَثِّتُ الله بِهَا قلوب أوليائه»^(١) .

قال الإمام أبو حنيفة : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحبُّ إلىَّ من كثيرٍ من الفقهِ؛ لأنها آدابُ القوم وأخلاقُهم . قال - تعالى - : «لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولَئِكَ الْأَلَبَّيْ» [يوسف: ١١١] . وقال - تعالى - لنبيه : «أُوْزَيْكُ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِهِدَاهُمْ أَفْتَدَهُ» [الأعاصم: ٩٠] .

وانطلاقاً من هذا الكلام الطيب؛ فإن الحديث عن الإخلاص والمخلصين يزيد الإخلاص ، وهائ طرفاً منه :

الصلاحة :

قال أبو تميم بن مالك : كان منصور بن المعتمر إذا صلى الغداة؛ أظهر النشاط لأصحابه ، فيحدِّثُهم ويكتُبُ إليهم ، ولعله إنما بات قائماً على أطراfe ، كل ذلك يُخفي عليهم العمل .

(١) صلاح الأمة في علو الهمة (١٠٦/١) ، (١٠٨) .

ما لا يكون بالله لا يكون وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

٩٥

قال أبو إسحاق كعب الأحبار صاحب الكتب والأسفار : من تعبد لله ليلةً حيث لا يراه أحدٌ يعرفه ؛ خرج من ذنبه كما يخرج من ليلته .

صَدَقَةُ السَّرِّ :

وهذا زين العابدين علي بن الحسين : يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل ، فيتصدق به ، ويقول : إن صدقة السر تطفئ غضب رب عزوجل . ولما مات وجدوه يقوت مئة أهل بيته بالمدينة . ولما جاءوا يغسلونه وجدوا بظهره آثار سواد ، فقالوا : ما هذا ؟ ، فقيل : كان يحمل جراب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة .

الصوم :

وإذا ذكر الصوم وإخفاؤه ، فاذكر داود بن أبي هند .. صام أربعين سنة لا يعلم به أهله ولا أحد ، وكان خزاراً ، يحمل معه غذاءه من عندهم ، فيتصدق به في الطريق ، ويرجع عشاً فيفطر معهم ، فيظن أهل السوق أنه قد أكل في البيت ، ويظن أهله أنه قد أكل في السوق .

قال إبراهيم بن أدهم : لا تسأل أخاك عن صيامه ، فإن كان قال : أنا صائم فرحت نفسه ، وإن قال : أنا غير صائم حزنْت نفسه ، وكلاهما من علامات الرىاء ، وفي ذلك فضيحة للمسئول ، واطلاع على عوراته من السائل .

الذِّكْرُ وقراءة القرآن :

قال ابن الجوزي : كان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل ؛ غطاه .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وكان الإمام أحمد يقول : أشتتهي ما لا يكون .. أشتتهي مكاناً لا يكون فيه أحدٌ من الناس .

البكاء :

قال الثوري : البكاء عشرة أجزاء؛ تسعه لغير الله، وواحد لله ، فإذا جاء الذي لله في السنة مرة فهو كثير .

قال ابن الجوزي : كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك ، فإذا جاء الليل فكانه قتل أهل القرية .

سُودًا وكانت بِكُم بِيضا ليالينا	حَالَتْ لفَقْدِكُمْ أَيَامُنَا فَغَدَتْ
حزنًا مع الدهر لا يَلِي وَيُلِينا	مَنْ مُبْلِغُ الْمُلْبِسِينَا عَنَّا بَانْتَرَاهُمْ
أُنسًا بقرهم قد عاد يُبكيانا	أَنَّ الزَّمَانَ الَّذِي قَدْ كَانَ يُصْحِكُنَا
لَيُسْقَ عَهْدُكُمْ عَهْدُ السَّرورِ فَمَا	كُنْتُمْ لَأَرْوَاهُنَا إِلَّا رِيَاحِنَا

قال محمد بن واسع : إنَّ كَانَ الرَّجُلُ لَيْكِي عَشْرِينَ سَنَةً وَامْرَأَتُهُ مَعَهُ فِي لِحَافِهِ لَا تَعْلَمُ بِهِ .

وقال سفيان بن عيينة : أصابتنى ذات يوم رقة بكى ، فقلت في نفسي : لو كان بعض أصحابنا لرق معى ، ثم غفوت ، فأتأني آت في منامي ، فرفسى ، وقال : يا سفيان ، خذ أجرك ممن أحببت أن يراك !

العلم :

قال الشافعي : وددت أنَّ الْخَلَقَ تَعْلَمُوا هَذَا (يعنى علمه) ، على أن لا يُنْسَبَ إِلَيَّ حِرْفٌ مِنْهُ .

وقال عون بن عمارة : سمعت هشاماً الدستوائي يقول : والله ما أستطيع أن أقول : إنني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عَوْجَلٌ . قال الذهبي : «والله ولا أنا!» .. فالله اعف عننا!

أصحاب السرائر والخوف من الشهرة :

قال ابن المبارك عن إبراهيم بن أدهم : صاحب سرائر ، وما رأيته يُظهر تسبيحا ، ولا شيئاً من الخير ، ولا أكل مع قوم إلا كان آخر من يرفع يده .

يقول إمام الوعاظ ابن الجوزي : اشتهر ابن أدهم ببلد ، فقيل : هو في البستان الفلانى ، فدخل الناس يطوفون ويقولون : أين إبراهيم بن أدهم؟ ، فجعل يطوف معهم ويقول : أين إبراهيم ابن أدهم؟

وانظر إلى العلاء بن زياد العدوى الذي قال فيه الحسن البصري : إلى هذا والله انتهى استقلال الحزن .. قال له رجل : رأيتك في الجنة ، فقال له : ويحك!! أما وجد الشيطان أحداً يسخر به غيري وغيرك .

قال الإمام أحمد : كان سفيان الثوري إذا قيل له : رأيتك في المنام ؛ يقول : أنا أعرف بنفسي من أصحاب المنamas .

وإبراهيم التخعي الإمام الفقيه : كان لا يجلس إلى السارية في المسجد ؛ توقياً للشهرة . وكان يقول : تكلمت ، ولو وجدت بُدا ما تكلمت ، فإن زماناً أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء .

وكان يقول :

خَلِتِ الْدِيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدٍ
وَمِنَ الْبَلَاءِ تَفَرِّدِي بِالسُّؤْدِ
وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ الْأَصْبَهَانِيُّ (عِروْسُ الزَّهَادِ) لَا يَشْتَرِي زَادَه
مِنْ خَبَازٍ وَاحِدٍ . قَالَ : لِعَلَّهُمْ يَعْرَفُونِي فِي حَابُونِي ، فَأَكُونَ مِنْ أَعْيُشُ
بَدِينِي .

وسفيان الثوري الذي قال عنه الإمام أحمد : أتدرى من الإمام؟ ، الإمام سفيان الثوري ، لا يتقدمه أحد في قلبي .. كان رَحْمَةً لِلَّهِ لا يترك أحداً يجلس إليه ، إلا نحو ثلاثة أنفس ، فغفل يوماً ، فرأى الحلقة قد كبرت ، فقام فرعاً ، وقال : أخذنا والله ولم نشعر ، والله لو أدرك أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مثلي وهو جالس في هذا المجلس ، لأقامه ، وقال له : مثلك لا يصلح لذلك .

وكان رَحْمَةً لِلَّهِ إذا جلس لإملاء الحديث ؛ يجلس مرعوباً خائفاً ، وكانت السحابة تمر عليه ، فيسكت حتى تمر ، ويقول : أخاف أن يكون فيها حجارة تترجمنا بها .

وكان يقول : كل شيء أظهرته من عملي فلا أعده شيئاً ؛ لعجز أمثالنا عن الإخلاص إذا رأه الناس .. رحمك الله يا سفيان ، ولله درك يا إمام ، فكم علمتنا أن تكون لله .

مر الحسن البصري على طاووس وهو ي沐لي الحديث في الحرام في حلقة كبيرة ، فقرب منه ، وقال له في أذنه : إن كانت نفسك تعجبك فقم من هذا المجلس ، فقام طاووس فوراً .

ما لا يكون بالله لا يكون وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم

٩٩

وقال بشر : لا ينبغي لأمثالنا أن يُظهرَ من أعمالِه الصالحةِ ذرَّةً ، فكيف بأعمالِه التي دخلها الرياءُ؟ ! ؛ فالأولى بأمثالنا الكتمانُ !

وكان مالك بن دينار يقول : إذا ذكر الصالحون فأفْ لَي وتفْ .

وقال الفضيل : من أرادَ أن ينظرَ إلى مُرَاءٍ فلينظرْ إلَيْ .

إخواته ، أطَلْنَا الكلامَ مع المخلصين لأهميته^(١)؛ فبدون الإخلاص لا يكون للأعمال أي قيمة ، ولن تصل إلى الله على الإطلاقِ ما دُمتَ مرأئياً .. فابداً من الآن وكُنْ بِكُلِّكِ لله .. أَخْلِصْ وإلا فَلَا تَتَعَنَّ .. أَخْلِصْ وإلا فالخسار والدمار وخرابُ الديار .

إخواته ، ما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم .. فاستعينوا بالله وأخلصوا لله ، والزموا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ؛ تصلوا إلى الله - تعالى - بآمانٍ واطمئنان .

* * *

(١) راجع مزيداً من الكلام عن الإخلاص والمخلصين في كتابنا «منطلقات طالب العلم» ، الباب الأول «الإخلاص» ؛ فهو مهم .

الأصل الرابع

الشُّكْرُ أَسَاسُ الْمُزِيدِ

إِنَّ مَنْ أَخْطَرَ أَصْوَلِ الْوَصْوَلِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - شُكْرُ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أَنْ هِيَأَكَ وَيُسَرَّ لَكَ وَحِبَّكَ إِلَيْكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلًا إِلَيْهِ .. وَإِنَّ اخْتِيَارَ هَذَا الطَّرِيقَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً ، وَطَلْبًا لِرَضَا اللَّهِ وَخَوْفًا مِنْ عَذَابِهِ .. نِعْمَةٌ .

وَإِنَّ مَعْرِفَةَ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالشَّغَفُ بِالسَّيِّرِ فِيهَا ، وَالْحَرَصُ عَلَى التَّقْدِيمِ .. نِعْمَةٌ .. وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحةُ مِنْ تَلَاقٍ وَذِكْرٍ وَصِيَامٍ وَقِيَامٍ وَتَبَّاعِلٍ وَتَهْجِيدٍ وَإِحْسَانٍ وَبِرٍّ وَغَيْرِهَا ؛ هِيَ حَوَالَةُ الْوَصْوَلِ فِي هَذَا الطَّرِيقَ .. وَهِيَ نِعْمَةٌ .. وَهَذِهِ النِّعْمَةُ إِنْ لَمْ تَدْمُ وَتَزْدُ وَتُبَارَكَ كَانَ النُّكُوصُ وَالْاِرْتِدَادُ وَالسَّلْبُ وَالْحِرْمَانُ .. وَلَا سَبِيلٌ قُطُّ إِلَى حِرَاسَةِ النِّعْمَةِ وَحِمَاهِيَّتِهَا وَزِيادَتِهَا إِلَّا بِالشُّكْرِ .

جَاءَ وَفْدُ الْيَمِنِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ يُسَمَّى حُدَيْرًا ، فَلَمَّا أَرَادُوا الْاِنْصَافَ - وَكَانَ مِنْ سُنَّتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُعْطِيَ كُلَّ ضَيْفٍ جَائِزَتَهُ - أَعْطَى لِكُلِّ فَرِدٍ مِنْهُمْ هَدِيَّةً ، وَكَانَ حُدَيْرٌ مُشْغُولاً بِذِكْرِ اللَّهِ بَعِيدًا عَنْ عَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَاسْتَحْبَيَ حُدَيْرٌ أَنْ يَطْلَبَ جَائِزَتَهُ ، فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقُ مَعْهُمْ حُدَيْرٌ ، وَبَعْدَ أَنْ اِنْصَرَفُوا إِذْ بِجَبْرِيلَ يَنْزَلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَقُولُ : رَبُّكَ يَقْرُئُكَ السَّلَامَ ، وَيَذْكُرُكَ بِحُدَيْرٍ - يَذْكُرُكَ أَنَّكَ نَسِيَتَ حُدَيْرًا - ، فَطَلَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَارْسَأَ وَأَعْطَاهُ هَدِيَّةً ، وَقَالَ : «الْحَقُّ

القوم فاسأل عن حُدِيرٍ ، وأعْطِه هديتَه ، وأقرِئُه مَنِي السلامَ» ، فلَمَّا أدرَكَهُمْ قال : أين حُدِيرٌ؟ ، قالوا له : هذا ، فقال له : رسولُ الله يقرئُك السلامَ ويقول لك : «إِنَّه نَسِيكَ فذَكْرُه بِكَ اللَّهُ» ، فقال حُدِيرٌ : «اللَّهُمَّ كَمَا لَمْ تَنْسَ حُدِيرًا، فاجْعَلْ حُدِيرًا لَا يَنْسَاكَ» ؛ فكان أكثرُ الناس ذِكرًا للله . «اللَّهُمَّ كَمَا لَمْ تَنْسَ حُدِيرًا، فاجْعَلْ حُدِيرًا لَا يَنْسَاكَ» .. هذا هو مَوْطِنُ الشاهد ، وهو شُكُر النعمة على مقتضاها وهو طلب الزيادة من خير الآخرة .

أيها الإخوة ، ابْنُـي أحـد الإخـوة بـمـرضـ السـكـر فـقالـ ليـ : اـسـفـدـتـ منـ هـذـاـ المـرـضـ فـائـدـةـ : ماـ عـرـفـتـ نـعـمـةـ اللـهـ فـيـ أـنـ أـنـامـ ثـلـاثـ سـاعـاتـ مـتـواـصـلـةـ إـلـاـ بـعـدـ الـمـرـضـ ، فـكـلـ سـاعـةـ أـقـومـ لـأـدـخـلـ الـحـمـامـ!!.. فـهـلـ نـمـتـ أـنـتـ ثـلـاثـ سـاعـاتـ مـتـواـصـلـةـ؟!.. هـلـ شـكـرـتـ هـذـهـ النـعـمـةـ؟!.. إـذـاـ اـبـتـلـيـتـ نـسـأـلـ اللـهـ لـنـاـ وـلـكـ العـافـيـةـ - سـتـعـرـفـ هـذـهـ النـعـمـةـ وـتـقـدـرـهـاـ .

هـذـاـ الرـجـلـ الـمـكـسـوـرـ يـقـولـ : أـوـدـ أـنـ أـتـقـلـبـ عـلـىـ جـنـبـيـ!ـ ، فـهـلـ تـتـقـلـبـ عـلـىـ جـنـبـيـ وـأـنـتـ نـائـمـ؟!ـ ، هـلـ شـكـرـتـ هـذـهـ النـعـمـةـ؟ـ ، هـلـ فـكـرـتـ مـرـةـ أـنـ تـذـهـبـ إـلـىـ الـمـسـتـشـفـيـاتـ لـتـرـىـ الـمـقـعـدـيـنـ الـذـيـنـ لـاـ يـمـلـكـونـ حـرـاكـاـ؟ـ ، لـتـرـىـ فـيـ قـسـمـ الـحـرـاقـيـنـ مـاـ فـعـلـتـهـ النـيـرـانـ فـيـ الـوـجـوهـ الـجـمـيلـةـ؟ـ ، وـلـتـرـىـ فـيـ قـسـمـ الـعـيـونـ مـنـ فـقـدـوـاـ نـورـ أـعـيـنـهـمـ؟ـ!

كـانـ بـكـرـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ الـمـزـنـيـ كـلـلـهـ يـقـولـ : يـاـ اـبـنـ آـدـمـ ، إـذـاـ أـرـدـتـ أـنـ تـعـلـمـ قـدـرـ مـاـ أـنـعـمـ اللـهـ عـلـيـكـ ، فـغـمـضـ عـيـنـيـكـ .

هل رأيتَ أصحابَ المحاليل المُعلقةِ؟!! ، وهل رأيتَ من عاشوا حياتهم في المستشفياتِ ثم ماتوا؟!! .. كلُّ هذه النعم التي فقدتها الآخرون وملكتها أنت؟ هل شكرتَ اللهَ عليها؟!!

أصول الوصول إلى الله تعالى

وأنت أيها المريضُ المبتلى ، هل شكرت النعم التي أنت غارق فيها؟! ، هل نظرت إلى من هم أشدُّ منك بلاء؟! .. وإن كنت أنت أشدَّ المرضيَّ المما؛ فهل شكرت الله على أن ابتلاك في جسدي ، وحفظ لك قلبك فملأه بالإيمان؟! .. هل شكرت هذه النعمة : نعمة الإيمان والتوحيد التي هي أعظمُ النعم .

عن مجاهد في قوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] ، قال : لا إله إلا الله .

وعن سفيان بن عيينة قال : ما أنعم الله على العباد نعمةً أفضلَ من أن عرفهم : أن لا إله إلا الله . قال : وإن «لا إله إلا الله» لهم في الآخرة كالماء في الدنيا .

لقد كان من هدْيِ رسول الله ﷺ تذكُّرُ فاقِدِ النعمة؛ ليعظم عنده شكرُها؛ فكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه يقول : «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وأوانا ، وكم ممن لا كافي له ولا مأوى»^(١) . فدَاك أبي وأمي ونفسي يا رسول الله ﷺ .

قال سالم بن أبي مطبي : دخلت على مريضٍ أعوده ، فإذا هو يئنُ ، فقلت له : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر الذين لا مأوى لهم ، ولا لهم من يخدمهم . قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فلم أسمعه يئنُ . قال : وجعل يقول : اذكر المطروحين في الطريق ، اذكر من لا مأوى له ولا له من يخدمه .

(١) أخرجه : مسلم (٢٧١٠) .

إخوته ، شكر النعم أصلٌ ؛ قال الملك : ﴿وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لِئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [ابراهيم: ٧].

قال ابن القيم - رحمة الله تعالى - : «من نعم علىه بنعمة فلم يشكرها؛ عذب بذلك النعمة ذاتها ولا بد» اهـ.

عرفت - أخي الملتم - ما سبب الفتور؟؛ لأنك لم تشكر نعمة الالتزام ، فلو شكرت هذه النعمة لزادك الله التزاماً؛ قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ أَهَدَوْا رَبَادِهِمْ هُدًى وَأَنَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] .. لكن لمَا لم تشكر نعمة الالتزام ففررت؛ وتراجع التزامك .

قال الحسن : إن الله عزوجل ليُمتع بالنعم ما شاء ، فإذا لم تُشكِّر قلبها عليهم عذاباً .

نعم : كل من أعطي أولاداً فلم يشكر نعمة الأولاد يُعذب بهم ، ومن نعم الله عليه بزوجةٍ فلم يشكر نعمة الزوجة عذب بها ، ومن أعطي مالاً فلم يشكره؛ عذب به ولا بد.. وهكذا: كل نعمة لا تشكرها تُعذب بها .. وسر الشكر استخدام النعمة في طاعة المendum .

شكراً حديراً النعمة وسائل الله ألا ينسيه ذكره ، ولو أنتي أنا الذي جاءوني بالهدية لشغلي فرحي بالهدية عن ذكر الله .. واقع مر .. كثير من المسلمين مشغول بالنعم عن المنعم ، مشغول بالبلية عن المبتلي ، مشغول عن الله بغير الله ، ناسٍ له ، غافل عنه .

إخوته ، سليمان بن داود ، هذا النبي الصالح ابن النبي الصالح -

أصول الوصول إلى الله تعالى

عليهم السلام - ؛ ما شغله الملك - الذي ما آتاه الله أحداً من العالمين قبله ولا بعده - عن الشكر والتحمد بنعم الله عليه .

قال - تعالى - : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانَ دَاؤِدَ وَقَالَ يَأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنِطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾١١﴿ وَحِشْرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾١٢﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ الْنَّمْلَ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَأَيُّهَا النَّمْلُ أَدْخُلُوهُ مَسِكِنَكُمْ لَا يَحْطِمُنَّكُمْ سُلَيْمَانٌ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾١٣﴿ فَنَبَسَّ صَاحِحًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزَعْنِي أَنْ أَشْكُرَ بِعَمَلَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلِدِيَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرَصَّدْهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَكَ الْأَصْلِحِينَ﴾ [النمل: ١٦-١٩].

ولما حُمل إليه عرش بلقيس قال : ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَلْوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِّيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

عن الحسن قال : قال نبي الله داود : «إلهي؛ لو أن لك شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهر والدهر ، ما وفيت حق نعمة واحدة»^(١) .

قال ابن القيم : «حبس السلطان رجلا فأرسل إليه صاحبه : اشكر الله فضرب ، فأرسل إليه : اشكر الله . فجيء بمحبوس مجوسي مبطون ، فقييد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في الرجل المذكور ، فكان المجوسي يقوم بالليل مرات ، فيحتاج الرجل أن يقف على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إليه صاحبه : اشكر الله . فقال له : إلى متى تقول : اشكر الله ، وأي بلاء فوق هذا؟ ، فقال : ولو وضع الزنار الذي في وسطه في

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، لابن القيم (١٢١).

وسطك ، كما وضع القيدُ الذي في رجلِه في رجلِك ؛ ماذا كنتَ تصنُع ؟
فاشكر الله»^(١) .

ودخلَ رجُلٌ على سهلِ بن عبد الله فقالَ : اللَّصُ دخل داري وأخذَ متابعي ، فقالَ : اشكر الله ، فلو دخل اللَّصُ قلبَك - وهو الشيطان - وأفسدَ عليك التوحيدَ ، ماذا كنتَ تصنُع ؟^(١) .

سُئلَ بعضُ الصالحين : كيف أصبحت ؟ ، فقالَ : أصبحت وينا من نعم الله ما لا يُحصى ، مع كثيرٍ ما يُعصى ، فلا ندرى على ما نشكر : على جميلٍ ما نَشَرَ ، أو على قبيحٍ ما ستر ؟

وقال آخر : أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أعظم : ذنوبٌ سترها الله على ؟ فلا يقدر أن يعيّنني بها أحد ، ومحبةٌ قدفها الله في قلوبِ الخلق ؛ لا يبلغها عملي .

نعم - إخوتي في الله - : من أصولِ السير إلى الله : كلَّما أنعم الله عليك بنعمه فاشكرْها .. إذا حفظت آيةً فاشكرْها ، إذا ذكرتَ لحظةً فاشكرْها ، إذا أعفيت لحيتك اشكرْها ، إذا صلَّيت جماعةً اشكرْها ، إذا تعلَّمتَ مسألةً اشكرْها ، إذا قمتَ ليلاً اشكرْها ، اشكر الله على نعمته ؛ لأنك إن لم تشكره تُعذَّب .. تلك سُنَّةٌ ربانية ؛ فلذلك انشغل بشكر النعمة .

ولكن كيف يكون شكر النعمة ؟

الشكُرُ يقوم على خمسة أركان :

١ - الإقرارُ بالنعمة . ٢ - الثناءُ على الله بالنعمـة .

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (١٤٤ - ١٤٥) .

٣- الخضوع لله بالنعم . ٤- حب المنعم .

٥- استعمال النعمة في شكر المنعم .

عن عَبْنَةَ بْنِ الْأَزْهَرِ قَالَ : كَانَ مُحَارِبُ بْنَ دِثارَ - قَاضِي الْكُوفَةِ -

قَرِيبُ الْجَوَارِ مَتَّى ، فَرِبِّمَا سَمِعْتُهُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ يَقُولُ :

«أَنَا الصَّغِيرُ الَّذِي رَبَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْمُسْعِفُ الَّذِي قَوَّيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْفَقِيرُ الَّذِي أَغْنَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْغَرِيبُ الَّذِي وَصَيَّبَتْهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الصُّعْلُوكُ الَّذِي مَوَلَّتْهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْعَزَّبُ الَّذِي زَوَّجْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا السَّاِغِبُ (الْجَائِعُ) الَّذِي أَشْبَعْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْعَارِي الَّذِي كَسَوْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْمَسَافِرُ الَّذِي صَاحَبَتْهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْغَائِبُ الَّذِي رَدَّدْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الرَّاحِلُ الَّذِي حَمَلْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الْمَرِيضُ الَّذِي شَفَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا السَّائِلُ الَّذِي أُعْطَيْتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ ، وَأَنَا الدَّاعِيُ الَّذِي أَجْبَتَهُ فَلَكَ الْحَمْدُ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ رَبَّنَا ، حَمْدًا كَثِيرًا عَلَى حَمْدِي لَكَ» اهـ.

لِلَّهِ مَا أَحْلَى هَذَا الْكَلَامُ!!.. نَعَمْ - وَاللَّهِ - : كَانَ كَلَامُهُمْ دَوَاءً

لِلْخَطَّائِينَ .

يَا رَبِّ

«تَمَّ نُورُكَ فَهَدَيْتَ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ ، عَظُمَ حِلْمُكَ فَغَفَرْتَ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ ، بَسَطْتَ يَدَكَ فَأَعْطَيْتَ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ؛ رَبَّنَا وَجْهُكَ أَكْرَمُ الوجوهِ ، وَجَاهُكَ أَعْظَمُ الْجَاهِ ، وَعَطَيْتَكَ أَفْضَلُ الْعَطَيَّةِ وَأَهْنَاهَا ، تُطَاعُ رَبَّنَا فَتَسْكُرُ ، وَتُعَصَّى فَتَعْفَرُ ، وَتُجَيَّبُ الْمُضْطَرُ ، وَتُكَشِّفُ الْضُّرُّ ، وَتُشَفِّي السَّقِيمَ ،

وَتَغْفِرُ الذَّنْبُ ، وَتَقْبِلُ التَّوْبَةَ ، وَلَا يَجْزِي بِالآثَارِ أَحَدٌ ، وَلَا يَلْعُغُ مِدْحَاتَكَ
قُولُ قَائِلٍ » .. فَلَكَ الْحَمْدُ ..

إخْوَتَاهُ ، الشَّكُرُ أساسُ المزِيدِ . أَحْبَتِي فِي اللَّهِ ، يَا مَنْ عَزَّمْتُمُ السَّيرَ
إِلَى اللَّهِ ، اشْكُرُوا اللَّهَ .. اشْكُرُوا اللَّهَ .. اشْكُرُوا اللَّهَ يِزْدَكُمْ ..

عَنْ عَلَيِّ تَصْوِيعَهُ أَنَّهُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ هَمْدَانَ : « إِنَّ النَّعْمَةَ مُوصَولَةٌ
بِالشَّكُرِ ، وَالشَّكُرُ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَزِيدِ ، وَهُمَا مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ ؛ فَلَنْ يَنْقُطِعَ
الْمَزِيدُ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - حَتَّى يَنْقُطِعَ الشَّكُرُ مِنَ الْعَبْدِ » اهـ .

فَإِذَا رَأَيْتَ إِيمَانَكَ - أَخِي فِي اللَّهِ - لَا يَزِيدُ فَارْجِعْ إِلَى الشَّكُرِ ..
اشْكُرْ تَرْزَدْ إِيمَانًا ؛ فَإِنَّ الشَّكُرُ أساسُ المَزِيدِ .

* * *

الأصل الخامس

أملك عصا التحويلة

بعض الناس يركب القطار ويظن أن السائق هو الذي يقوده ، وينسى أن هناك عاملاً بسيطاً بيده عصا صغيرة يحول بها مجرى القطار كله رغم أنف السائق .. فعصا تحويلة قلبك في يد من؟ !

أيها الإخوة : الصراط مذحضة مزلة ، تزل عنه الأقدام ، فمع طول السفر قد تتحول الأقدام عن الطريق دون شعور؛ ولذا ينبغي أن تملك عصا التحويلة فلا تسلّمها لأحد يتحكمك بها غير الله الذي يهديك الصراط المستقيم ، صراط الوصول إليه - سبحانه .

فكم منا من سلم العصا لزوجته فحولته من طالب علم إلى طالب دنيا ، وكم منا من سلمها لأولاده فحولوا همه من طالب جنة إلى طالب مال .. عصا تحويلة قلبك في يد من؟ ، أسلمتها لمن؟ ، لصاحب .. لزميل .. لشيخ .. لمدير؟ !!

أخي في الله ، سل نفسك من المتحكم فيك ، ومن الذي يسيطر على قلبك ، هل الله وحده؟ ، أم أشياء أخرى؟ .. قف مع نفسك وقفه لتسليم قلبك لله يقودك كيف شاء .

أخي في الله ، استسلم لله .. سلم قلبك لله؛ قال رسول الله ﷺ:

«ألا إِنَّ السُّلْطَانَ وَالْقُرْآنَ سِيفُتْرِقَانَ، فَدُورُوا مَعَ الْقُرْآنِ حِيثُ دَارٌ»^(١).
نعم : إننا نحتاج أن نملك عصا التحويلة لندور مع القرآن ، لندور مع الشرع ، لندور مع الدين ، مع الأمر والنهي ، فلا ثبت على الباطل .

أخي ، عصا التحويلة خطر ؛ فأي لعب بها قد يتسبب في أن يحيد القطار عن طريق الوصول ، وربما اصطدم فانقلب ، فتحكم - أخي - في كل ذرة من قلبك ، ووجهها إلى الله وحده ، حررك قطار نفسك في طريق واحد .. طريق الوصول إلى الله .

أخي ، سرت إلى الله سنين ثم تحولت ، فما الذي حولك؟! ، من الذي حولك؟! ، لم تغيرت فغيّرت اتجاهك؟! ، لم انزلقت رجلك فخرجت عن طريق السير إلى الله؟!

إننا بحاجة - إخواته - لأن نملك عصا التحويلة ؛ لكي نعيد السير إلى الطريق مرة أخرى ، حتى وإن حذنا أو تهنا أو خضنا أو ضللنا أو أخطأنا أو أذنبنا .. لا بد من العود .. ارجع والله عزوجل كريم يقبل توبه العبد إذا تاب ؛ قال الملك ﷺ : «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَحِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَّحِيمًا» [النساء: ١١٠] .. فعد إلى الله واتجه إلى الله ، وقف على طريق السير إلى الله .

فبعصا التحويلة غير اتجاهك ، وحول قلبك إلى الصراط المستقيم .. عدل طريقك ، وانظم سيرك ، ووجه قلبك تجذب الله غفورا رحيمـا .. املك عصا التحويلة تسلك طريق الوصول إلى الله .

* * *

(١) أخرجه : الحاكم بلفظ : «دوروا مع كتاب الله حيث ما دار» (١٤٨/٢) وبهذا النفظ ضعفه الألباني - رحمه الله تعالى - في السلسلة الضعيفة برقم (٣٦٠٥) .

الأصل السادس

يَوْمَكَ يَوْمَكَ

أيها الإخوة ، الله - جل جلاله - حين خلق العبد ما خلقه إلا ليعبده ؟
قال - تعالى - : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ثم
أجرى الله اللطيف الرحيم تكاليفه على العبد فكلفه ما يطيق .

قال الملك : ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ، يعني : ولو شاء
الله لأوقعكم في العنت والمشقة والتَّعب ؛ ولكن الله يقول : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ
يُكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ يُكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، ويقول - سبحانه
وتعالى - : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَفِّظَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] .

فمن رحمة الله ولطفه بالعبد في التكاليف أنه كلفك كل يوم على قدر
يومك ؛ لكي لا يعتنك ؛ ولذا فإن من ظلم العبد لنفسه أن يحمل هم
غد .. من رحمته - سبحانه - أن جعل التكاليف يوما بيوم .. فلو صليت
العشاء لا يطالبك الله بشيء أو فرض حتى أذان الفجر ، فكل وقت له
واجب ، والله لا يطالبك إلا بواجب الوقت .. لا يطالبك - سبحانه -
بواجب الغد .. أما اليوم فنعم .

إنك لو مِتَ الآن قبل صلاة العشاء ، لن يسألك الله عن العشاء .. لو
مِتَ قبل أن يمر العام ويتحول الحَوْلُ ؛ لن تُسأل عن زَكَاة هذه السنة .. لو

عشتْ عُمْرَكَ وَلَمْ يَبْلُغْ مَالُكُ النِّصَابَ لَا يَسْأَلُكَ اللَّهُ عَنِ الزَّكَاةِ . . . وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ . . فَمِنْ ظُلْمِ الْعَبْدِ لِنَفْسِهِ حَمْلُهُمْ غَدِيرٌ .

تَجُدُ الرَّجُلُ الْيَوْمَ جَالِسًا يَفْكُرُ : آخِرُ الشَّهْرِ مِنْ أَينْ سَنَاتِي بِالنَّقْوَدِ . . يَا أَخِي ، أَينْ أَنْتَ وَأَينْ آخِرُ الشَّهْرِ؟! . . تَجُدُهُ يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ : الْأَوْلَادُ عِنْدَمَا يَكْبِرُونَ أَيْنَ سَيَعِيشُونَ؟! . . يَا أَخِي ، عِنْدَمَا يَكْبِرُونَ فَلَهُمْ رَبٌّ يَتَكَفَّلُ بِهِمْ أَحَنُّ عَلَيْهِمْ مِنْكَ . . وَهَكُذا يَحْمِلُهُمْ فَيَنْشَغِلُ بِهِ .

تَجُدُ الْأَبَ في زَمَانِنَا - لِلأسَفِ الشَّدِيدِ - مَشْغُولًا بِشَرَاءِ قَطْعَةِ أَرْضٍ لِيَبْنِيَ بَيْتًا لِلْأَوْلَادِ . . مَشْغُولًا بِسَعَادَتِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَرَاحَتِهِمُ الْبَدْنِيَّةِ ، فَيَنْسِي فِي خِضْمِ المَشَاكِلِ وَالظَّرُوفِ أَنْ يَعْرِفَهُمْ طَرِيقَ اللَّهِ .

سَبِّحَنَ اللَّهَ الْعَظِيمِ!! .. عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَانَ لَهُ أَحَدُ عَشَرَ وَلَدًا ذَكَرًا ، غَيْرُ الْإِناثِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الْمَوْتُ قَالَ لَهُ كَاتِبُهُ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ : لَوْ أُوصِيَتْ بِهِمْ أَحَدًا .. أَوْصِيَهُمْ أَحَدًا يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ .. قَالَ لَهُ ذَلِكُ؛ لَأَنَّ عَمْرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ لَمْ يَتَرَكْ وَهُوَ يَمُوتُ إِلَّا عَشَرَةَ دِرَاهِمَ .. أَحَدَ عَشَرَ وَلَدًا وَرَثَهُمْ أَحَدَ عَشَرَ دِرَاهِمًا . قَالَ لَهُ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ : وَاللَّهِ لَسْتُ أُوصَيَ بِهِمْ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ؛ إِنْ يَكُونُوا صَالِحِينَ فَاللَّهُ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ . ثُمَّ جَمَعَهُمْ فَقَالَ : إِنِّي أَمُوتُ وَلَمْ أَتُرْكُ لَكُمْ شَيْئًا ، غَيْرَ أَنْكُمْ مَا مَرَرْتُمْ بِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ عَلَيْهِ حَقًّا .

وَهَذِهِ الْكَلْمَةُ الْأُخِيرَةُ كَلْمَةٌ جَمِيلَةٌ .. أَنْكَ حِينَ تَرَكُ أَوْلَادَكَ وَيَكُونُ لَكَ ذَكْرٌ طَيِّبٌ عِنْدَ النَّاسِ؛ تَجُدُهُمْ كَلِمًا مَرَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلَادُ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحُمْ أَبَاكِمْ؛ لَقَدْ كَانَ رَجَالًا صَالِحًا .. وَهَذِهِ تَكْفِي .

أصول الوصول إلى الله تعالى

نعم ، هذا هو الوالد الحقيقى الذى عرف الطريق إلى الله فعرفه لأنبائه ، لا ذلكم الأب الذى ضيع أيامه وانشغل بالدنيا .. وتعجب حين تعلم أن هذا الأب كلما اشغال بالأولاد ليرضيهم لا يرضون ؟ فتزداد المشاكل والهموم ، ولو أنه شغل نفسه وعياله بالله لحلت المشاكل .

إننا اليوم ونحن ننظر في واقع المسلمين ، لا نجد أحداً يعيش يومه ، فالكل ينظر للمستقبل وناسٌ أنه يمكن ألا يُكمل يومه .. قال ابن عمر : «إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح»^(١) .

لقد تعجبت لبعض الأفكار والأخلاقيات التي وصلت إلى القرى !! ، وكيف لا أدهش ونحن دائمًا نعد هؤلاء الفلاحين أصولنا .. هؤلاء أولاد الأصول .. هؤلاء هم الناس الذين يفهمون في الأصول ، ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين لوثوا صفاء الريف الروحي .

أفسد التلفاز أخلاقياتهم ، فتجد الرجل يرسل ابنته لتعلم ، وقد تسافر وحدها وترجع بالليل ؛ فتقول له : لماذا تعلم البنت ؟ فهي في النهاية ستتزوج وتجلس في البيت ؛ يقول لك : حتى يكون في يديها «سلاح» . وتقول له : وإذا طلقت بسبب السلاح أو لم تتزوج فما الحل ؟ ! .. وهل كان مع أمها سلاح ؟ ، هل كان معها «بكالوريا» ؟ ! .. وأمك أنت ماذا كان معها ؟ ! ماذا كان سلاحهم ؟ ! ! . إن السلاح هو رضا الله .

نعم : فهو لاء الناس ينظرون إلى المستقبل ولا يعيشون واقعهم ،

(١) هذا الجزء من الحديث موقوف على ابن عمر . انظر : «جامع الأصول» ، لابن الأثير (ح ١٨٥) .

لا يعيشونَ يومَهُم .. وانظرْ حولَك لترى الناسَ كيفَ يعيشونَ ، وكيفَ تعلقتْ قلوبُهم بالغدِ .

ولهذا؛ فلِكِي تصلَ إلى رضا اللَّهِ ، عِشْ يومًا بيوم ، فاجعلْ كلَّ يوم هدفًا تصلُ به إلى أعلى درجةٍ في الجنة .. ابدأ يومًا جديداً من صلاةِ الفجرِ ، وضعْ في حسابِك أنه آخرُ يوم في عمرِك؛ ولذا تسأْل نفسِك ماذا سأَفْعَلُ؟ .. أَوْلُ شيءٍ : أتوبُ - اللَّهُمَّ تبْ علينا يا ربِ .

إخواته ، هل فيكم أحدٌ يوْدُ أن يتوبَ اليومَ؟ ، إذا قالَ : نعمْ تُبْتُ ، قلتُ : مِنْ ماذا؟ ، قالَ : من كلِّ شيءٍ ، قلتَ : لستَ صادقًا .. إِنَّ الذي يقولَ : تُبْتُ من كلِّ شيءٍ يريدهُ أن يخادعَ اللَّهَ .. أخِي ، قلْ لي ، حَدَّدْ لي من أيِّ ذنبٍ تُبْتَ؟ ، من النَّظرِ للنساءِ ، من الكذبِ ، من السجائرِ ، أمَّ من النَّومِ عن صلاةِ الفجرِ ، أمَّ من النفاقِ .. تُبْتُ من ماذا؟! من أكلِّ الحرامِ ، أمَّ من حلقِ اللَّحِيَةِ .. من أيِّ شيءٍ تُبْتَ؟!

سأعطيكَ فرصةً أخرىَ الآن - وسَمِّها اختبارًا إن شئتَ - : استحضرْ في ذهنِكَ الآن ذنبًا ، ذنبًا ثقيلاً وَتُبْ منهَ الآن .. إِذَا هيَّا نتوبُ .. الآن .. اللَّهُمَّ تبْ علينا يا ربِ .. اللَّهُمَّ تقبلْ توبَتَنا ، واغسلْ حوبَتَنا ، وأجبْ دعوَتَنا .

نعم - أيها الإخوة - تبدأ اليومَ فتقولُ : اليومَ سأتوبُ من النظرِ إلى النساءِ .. وَعْدُ يارب .. وعهدُ بيني وبينك ، اليومَ لن أنظرَ ول يكن ما يكون ، اليومَ تحدُّ .. اليومَ سأحفظُ رُبَعاً ، اليومَ سأقرأ ثلاثة أجزاءً ، اليومَ سأصومُ ، اليومَ سأتصدقُ بخمسةِ جنيهاتٍ ، .. وهكذا كلَّ يومٍ تسأْلُ

نفسك : مَاذَا سأعْمَلُ الْيَوْمَ؟ ، فِيكُونُ لَكَ خُطَّةٌ عَمَلٌ وَاضْحَةٌ ، فَتَنْجُزُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئاً جَدِيدًا ؛ فَيَصِبُّ لِحَيَاةِكَ مَعْنَى .

يقول ابن القيم : «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ، ومدة سفره هي عمره الذي كتب له . فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه - تعالى - ، ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ؛ فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر . **فالكَيْسُ الْفَاطِنُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ كُلَّ مَرْحَلَةً نُصْبَ عَيْنِيهِ ؛ فَيَهْتَمُ بِقَطْعَهَا سَالِمًا غَانِمًا ، فَإِذَا قَطَعَهَا جَعَلَ الْأُخْرَى نُصْبَ عَيْنِيهِ وَلَا يَطْوِلُ عَلَيْهِ الْأَمْدُ فَيَقْسُوُ قَلْبُهُ وَيَمْتَدُ أَمْلَهُ وَيَحْضُرُهُ بِالْتَسْوِيفِ وَالْوَعْدِ وَالتَّأْخِيرِ وَالْمَطْلُ ، بَلْ يَعْدُ عَمْرَهُ تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ الْوَاحِدَةَ فَيَجْتَهِدُ فِي قَطْعَهَا بِخَيْرِ مَا بِحُضُورِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا تَيقَنَ قِصْرَهَا وَسُرْعَةَ اِنْقَضَائِهَا هَانَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ وَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْانْقِيَادَ إِلَى التَّزوُّدِ ، فَإِذَا اسْتَقْبَلَ الْمَرْحَلَةَ الْأُخْرَى مِنْ عَمْرِهِ اسْتَقْبَلَهَا كَذَلِكَ ، فَلَا يَزَالُ هَذَا دَأْبُهُ حَتَّى يَطْوِي مَرَاحِلَ عَمْرِهِ كُلَّهَا فَيَحْمِدُ سَعْيَهُ وَيَبْتَهِجُ بِمَا أَعْدَهُ لِيَوْمِ فَاقْتَهُ وَحاجَتِهِ ، فَإِذَا طَلَعَ صَبَّ الْآخِرَةِ وَانْقَشَعَ ظَلَامُ الدُّنْيَا ؛ فَحِينَئِذٍ يَحْمِدُ سَرَاهُ وَيَنْجُلُ عَنْهُ كُرَاهَ ، فَمَا أَحْسَنَ مَا يَسْتَقْبِلُ يَوْمَهُ وَقَدْ لَاحَ صَبَاحَهُ وَاسْتَبَانَ فَلَاحَهُ »^(١) .**

إِذَا نَرِيدُ أَنْ نَجْعَلَ كُلَّ يَوْمٍ وَحْدَةً مُسْتَقْلَةً نَعِيشُهَا وَنَخْطُطُ لَهَا فِي حَيَّهَا ، أَمَا «غَدًا» فَلَا عَلَاقَةَ لَنَا بِهِ ، فَحِينَما يَأْتِي سَنْفَكُّرُ لَهُ فِي حَيَّهِ ، وَأَمَا «أَمْسٍ» فَقَدْ انْقَضَى وَانْتَهَى فَلَا عَلَاقَةَ لَنَا بِهِ أَيْضًا ، نَحْنُ الْآنَ فِي «الْيَوْمِ»

(١) طَرِيقُ الْهَجْرَتَيْنِ (١٨٩) .

ماذا سنصنع به ، هل سنضيّعه بالتفكير في «أمس» و«غدٍ» ، أم أننا سنجعلُ حياتنا وحدةً مستقلةً نعيشها يوماً بيوم لثريّح ونستريح؟

أخي في الله ، فاتتك صلاةً بالأمس ، فاعزم اليوم ، على ألا تضيّع فرضاً في جماعةٍ .. بالأمس لم يكن في القراءة خشوعٌ ولا فهمٌ ولا تركيزٌ ، وكانت دماغك مشغولةً ، فتوكل اليوم على الله ، وارم حمولك عليه لتصل إلىه ، وعش يومك الذي أنت فيه .

ابنِ يومك وارفع بناءه بأداء ما يرضي الله ، ويقرب إليه ، بحيث إنك لو مِتَ في هذا اليوم دخلت الجنة - اللَّهُمَّ ارزقنا الجنَّةَ يا رب .

ويقولُ ابنُ القيِّم أيضًا : «السَّنَّةُ شَجَرَةٌ ، وَالشَّهُورُ فَرُوعُهَا ، وَالْأَيَّامُ

أَغْصَانُهَا ، وَالسَّاعَاتُ أُوراقُهَا ، وَالأنفاسُ ثَمُرُهَا ، فَمَنْ كَانَ أَنفَاسُهُ فِي طَاعَةٍ فَثَمَرَةُ شَجَرَتِهِ طَيِّبَةٌ ، وَمَنْ كَانَ فِي مُعْصِيَةٍ فَثَمَرَتُهُ حَنْظُلٌ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ الْجَدَادُ يَوْمَ الْمَعَادِ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَتَبَيَّنُ حُلُوُ الشَّمَارِ مِنْ مُرْهَا» اهـ .

البناتُ اللَّوَاتِي كُنَّ يَتَزَيَّنَّ فِي «الْكَوَافِيرِ» فِي دِمِيَاطِ وَانْهَدَمْ عَلَيْهِنَ الْبَيْتُ مُتْنَ .. أَرْبَعُ عَرَائِسَ وَالْبَنَاتُ اللَّاتِي مَعْهُنَ مُتْنَ جَمِيعًا .. وَلَوْ كَانَتْ تَلْكَ الْبَنْتُ الْعَرَوْسُ تَظَنُّ أَنَّهَا سَتَمُوتُ لَمَّا دَخَلَتْ ، وَلَمَّا ذَهَبَتْ ، وَلَعِيلَتْ بَطَاعَةَ اللَّهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ تَفَارَقَ فِيهِ الْحَيَاةُ اسْتَعْدَادًا لِلقاءِ اللَّهِ .. وَهَكُذَا يَوْمُكَ ، لَا بُدَّ أَنْ تَمَلَّهُ بَطَاعَةُ اللَّهِ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ الْيَوْمُ الْآخِرُ لَكَ عَلَى الدُّنْيَا؛ إِلَّا فَسِيَّاتِيكَ الْمَوْتُ كَمَا أَتَى الْعَرَائِسَ ، فَتَمُوتُ وَلَمْ تَصِلْ إِلَى اللَّهِ .

أَخِي فِي اللَّهِ ، حَبِيبِي فِي اللَّهِ ، أَوصِيكَ بِوَصِيَّةِ الْإِمَامِ الْمُوْفَّقِ ابْنِ

قَدَامَةَ رَحْمَةَ اللَّهِ إِذْ يَقُولُ : «فَاغْتَنِمْ - يَرْحُمُكَ اللَّهُ - حَيَاكَ النَّفِيسَةُ ، وَاحْتَفِظْ بِأَوْقَاتِكَ الْعَزِيزَةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَدَةَ حَيَاكَ مَحْدُودَةٌ ، وَأَنْفَاسَكَ مَعْدُودَةٌ ؛

أصول الوصول إلى الله تعالى

فكلُّ نَفْسٍ يَنْفَضُّ بِهِ جَزْءٌ مِنْكَ . وَالعُمُرُ كُلُّهُ قَصِيرٌ ، وَالباقِي مِنْهُ هُوَ الْيَسِيرُ ، وَكُلُّ جَزْءٍ مِنْهُ جَوْهِرَةٌ نَفِيسَةٌ لَا عَدْلَ لَهَا وَلَا خَلْفَ مِنْهَا ، فَإِنْ بِهِذِهِ الْحَيَاةِ الْيَسِيرَةِ خَلْوَدُ الْأَبْدِ فِي النَّعِيمِ أَوِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَإِذَا عَادَتْ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِخَلْوَدِ الْأَبْدِ؛ عَلِمْتَ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ يَعْدَلُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ أَلْفِ عَامٍ فِي نَعِيمِ ، وَمَا كَانَ هَكُذا فَلَا قِيمَةُ لَهُ ، فَلَا تُضِيغْ جَوَاهِرَ عُمُرِكَ النَّفِيسَةَ بِغَيْرِ طَاعَةٍ أَوْ قَرْبَةٍ تَقْرَبُ بِهَا ؛ فَإِنَّكَ لَوْ كَانَ مَعَكَ جَوْهِرَةٌ مِنْ جَوَاهِرِ الدُّنْيَا لَسَاءَكَ ذَهَابُهَا ، فَكَيْفَ تَفَرَّطُ فِي سَاعَاتِكَ ، وَكَيْفَ لَا تَحْزُنَ عَلَى عُمُرِكَ الْذَاهِبِ بِغَيْرِ عِوَضٍ؟!» ا.هـ.

وعن عمر بن ذر أنه كان يقول : «اَعْمَلُوا لِأَنفُسِكُمْ - رَحْمَكُمُ اللَّهُ - فِي هَذَا اللَّيْلِ وَسُوَادِهِ، فَإِنَّ الْمَغْبُونَ مَنْ غُبِنَ خَيْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَالْمَحْرُومُ مِنْ حُرْمَ خَيْرِهِمَا، إِنَّمَا جَعَلَ سَبِيلًا لِلْمُؤْمِنِينَ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِمْ، وَوَبِالْأَلْلَامِ لِلآخَرِينَ لِلْغَفْلَةِ عَنْ أَنفُسِهِمْ، فَأَهْبِطُوا لَهُ أَنفُسِكُمْ بِذِكْرِهِ؛ فَإِنَّمَا تَحْيَا الْقُلُوبُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . كُمْ مِنْ قَائِمٍ لَهُ - جَلَّ وَعَلَا - فِي هَذَا اللَّيْلِ قَدْ اغْبَطَ بَقِيَّاهُ فِي ظُلْمَةِ حَفْرَتِهِ، وَكُمْ مِنْ نَائِمٍ فِي هَذَا اللَّيْلِ قَدْ نَدَمَ عَلَى طَوْلِ نُوْمَتِهِ عَنْدَمَا يَرَى مِنْ كَرَامَةِ اللَّهِ لِلْعَابِدِينَ عَدَا؛ فَاغْتَنَمُوا مِمْرَ السَّاعَاتِ وَاللَّيَالِي وَالْأَيَامِ - رَحْمَكُمُ اللَّهُ -، وَرَاقِبُوا اللَّهَ - جَلَّ وَعَلَا - فِي كُلِّ لَحْظَةٍ، وَدَارُمُوا شَكَرَهُ» ا.هـ.

فَلَذِكَ أَطَالُبُكَ - أَخِي فِي اللَّهِ - لَكِي تَصِلَ إِلَى رَضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَمْرِ مَهْمَ : هُوَ أَنْ تَحْصُلَ لَكَ عُزْلَةٌ شَعُورِيَّةٌ تَمَامًا عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ وَمَا يَجْرِي فِيهِ؛ لَأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ الغَيْبَ؛ قَالَ رَبُّنَا - جَلَّ جَلَالَهُ - : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّا دَرَّتْ تَكْسِبُ غَدَاءً﴾ [لَقَمَانٌ: ٣٤] ، وَلَا تَخْفُ مِنِ الْمُسْتَقْبَلِ فَاللَّهُ مَعَكَ يَعْيِنُكَ ، وَهُوَ - سَبَحَانَهُ - لَا يُضِيغُ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ؛ ﴿إِنَّ وَلِيَّ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ

وَهُوَ يَتَوَلَّ الْصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦] ، فدع عنك هم غد لغد ، فرزق غد عند ربك ، ولربما جاء «غد» فلم يجده .. اللهم ارزقنا حسن الخاتمة .

فالزِّمْ يَوْمَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ ، وابذُلْ قُصَارِيْ جُهْدِكَ فِي أَنْ تَجْعَلَ مِنْ هَذَا الْيَوْمَ مَطِيَّةً لِلِّوْصُولِ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى - ؛ فَقَدْ يَكُونُ آخَرَ يَوْمَ لَكَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ .. فِي يَوْمَكَ يَوْمَكَ يَا طَالِبَ الِوْصُولِ .

يَقُولُ ابْنُ الْقِيمِ رَحْمَةُ اللَّهِ: «هَلَمْ إِلَى الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ وَمَجَاوِرِهِ فِي دَارِ السَّلَامِ بِلَا نَصَبٍ وَلَا تَعْبٍ وَلَا عَناءً ، بَلْ مِنْ أَقْرَبِ الْطَّرِيقِ وَأَسْهَلِهَا؛ وَذَلِكَ أَنَّكَ فِي وَقْتٍ بَيْنَ وَقْتَيْنِ وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ عُمُرُكَ ، وَهُوَ وَقْتُكَ الْحَاضِرُ بَيْنَ مَا مَضَى وَمَا يُسْتَقْبَلُ؛ فَالَّذِي مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ وَالاسْتِغْفَارِ ، وَذَلِكَ شَيْءٌ لَا تَعْبَرُ عَلَيْكَ فِيهِ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَعْانَاهُ عَمَلٌ شَاقٌ؛ وَإِنَّمَا هُوَ عَمَلُ الْقَلْبِ ، وَتَمْتَعُ فِيمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الذِّنْوَبِ ، وَامْتَنَاعُكَ تَرْكُ وَرَاحَةً ؛ لَيْسَ هُوَ عَمَلاً بِالْجَوَارِحِ يُشَقُّ عَلَيْكَ مَعَانِيْهُ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَزْمٌ وَنِيَّةٌ جَازِمَةٌ تُرْيِحُ بَدَنَكَ وَقَلْبَكَ وَسِرَّكَ ، فَمَا مَضَى تُصْلِحُهُ بِالتَّوْبَةِ ، وَمَا يُسْتَقْبَلُ تُصْلِحُهُ بِالْامْتِنَاعِ وَالْعَزْمِ وَالنِّيَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْجَوَارِحِ فِي هَذَيْنِ نَصَبَيْنِ لَا تَعْبُ ؛ وَلَكِنَّ الشَّائَنَ فِي عُمُرِكَ ، وَهُوَ وَقْتُكَ الَّذِي بَيْنَ الْوَقْتَيْنِ؛ فَإِنْ أَضَعْتَ سَعَادَتَكَ وَنِجَاتَكَ ، وَإِنْ حَفْظَتَهُ مَعَ إِصْلَاحِ الْوَقْتَيْنِ الَّذِي قَبْلَهُ وَبَعْدَهُ بِمَا ذَكَرْتَ؛ نِجَوْتَ وَفَرَّتْ بِالرَّاحَةِ وَاللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ»^(١) .

هَذِهِ خَلَاصَةُ الْكَلَامِ أَيُّهَا السَّائِرُ : يَوْمَكَ يَوْمَكَ .

* * *

(١) الفوائد (١٥١ - ١٥٢) .

الأصل السابع

وليسعك بيتك

قال رسول الله ﷺ لمن سأله عن النجاة: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابنك على خطيئتك»^(١). قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «أخسر الناس صفة من انشغل بالناس عن نفسه، وأخسر منه صفة من اشغل بنفسه عن الله».

وقال بعض السلف: «علامة إعراض الله عن العبد انشغاله بما لا يعنيه»، وقال بعض السلف أيضاً: «علامة الإفلاس كثرة الحديث عن الناس».

وقال ابن الجوزي: «إذا رأيت نفسك تأنس بالخلق و تستوحش من الخلوة؛ فاعلم أنك لا تصلح لله».

وقال ابن قدامة: «إذا رأيت الناس يعجبون بك؛ فاعلم أنهم إنما يعجبون بستر الله عليك؛ فلا تذهب عن الناس الذباب و حجرك مملوء بالعقارب».

مصيبه عصرنا الانشغال بالناس، ومن الانشغال بغير الله الانشغال

(١) أخرجه : الترمذى : ك : الزهد ، ب : ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦) وقال : حديث حسن ، وصححه الألبانى - رحمه الله تعالى .

بوسائل الإعلام والجرائد والمجلّات والتلفاز . . وللأسف الشديد بدأ بعض الإخوة يقتني التلفاز ، وهذه نكسة .. نكسة ؛ قال العلماء : الفتنة أن تستحلّ ما كنت تراه حراماً . فالذي كان اعتقاده أن التليفزيون حرام وبدأ اليوم يدخله بيته فهو مفتون - كما ذكرنا .

وتتجدد يقول : أنا أدخلته بيتي لمتابعة نشرة الأخبار لأعرف أحداث العالم ، وأشاهد بعض القنوات المفيدة ، . . اعلم يا أخي ، أنَّ الجلوس اليوم أمام نشرات الأخبار بغير ضوابط فتنـة .. نعم : فتنـة ؛ لأنك قد تنشغلُ بالعالم عن نفسك .

إخوتهـ ، إنَّ ما تشاهدونه في نشرات الأخبار من أحداث فلسطين - اللـهم اكشف عنـهم الكـربـة ، اللـهم انتقم من اليهـود وعـجل بـزـوالـهم - وكل ما حصل ؛ لا يساوي عـشر معاـشـار واحدـ على مـئـة ألفـ بالـنـسـبة لـمـا حـدـثـ فيـ أـماـكـنـ أـخـرىـ ، لـكـنـ الـأـماـكـنـ الـأـخـرىـ أـعـمـوـهاـ عـنـكـمـ وـعـتـمـواـ عـلـيـهـاـ ، وـهـذـهـ فـتـحـوـهـاـ لـكـمـ تـشـاهـدـوـنـهـاـ . . لـمـاـذاـ؟ـ . . مـاـ السـرـ؟ـ!ـ . . إـنـ النـيـرانـ الـتـيـ يـؤـجـجـوـنـهـاـ دـاـخـلـ النـفـوسـ لـهـاـ عـلـةـ ، فـتـيـقـظـ حـتـىـ لـاـ تـقـعـ فـيـ الشـرـكـ .

إنـاـ - إـخـوـتـاهـ - فـيـ زـمـنـ تـصـغـيرـ الـكـبـرـاءـ وـتـصـغـيرـ الـمـسـائـلـ الـكـبـيرـةـ ؛ وـلـذـلـكـ فـإـنـ الـقـضـيـةـ الـتـيـ تـقـلـقـكـمـ دـائـمـاـ ، قـضـيـةـ فـلـسـطـينـ . . هـذـهـ قـضـيـةـ كـبـيرـةـ جـدـاـ صـغـرـوـهـاـ فـيـ فـلـسـطـينـ ، ثـمـ قـامـوـاـ بـتـصـغـيرـهـاـ أـكـثـرـ فـيـ الـقـدـسـ . . وـالـقـضـيـةـ أـكـبـرـ مـنـ ذـلـكـ ؛ فـلـوـ أـنـ إـسـرـائـيلـ أـعـطـتـ الـفـلـسـطـينـيـنـ دـوـلـةـ مـسـتـقلـةـ ذاتـ سـيـادـةـ وـحـدـوـدـ وـكـفـتـ عنـ قـتـلـ الـمـسـلـمـيـنـ . . فـهـلـ عـنـدـهـاـ تـنـتـهـيـ الـقـضـيـةـ؟ـ لـاـ . . عـنـدـهـمـ اـنـتـهـتـ وـلـكـنـهـاـ عـنـدـنـاـ لـمـ تـنـتـهـيـ وـلـنـ تـنـتـهـيـ . . الـقـضـيـةـ

أصول الوصول إلى الله تعالى

قضية اليهود وليس فلسطين - اللَّهُمَّ انتَقِمْ من اليهود.. هذا مثال للإعلام في العالم؛ فما الفائدة من تضييع طاقات الشباب أمام هذه الشاشات؟!
 إنَّ الَّذِينَ يَجْلِسُونَ إِلَيْنَا أَمَامَ التَّفَازِ وَيَوْدُونَ أَنْ يُنْقِذُوهُمْ فَلَسْطِينُ تِرَاهُمْ أَكْثَرَ النَّاسِ رُكُودًا؛ فَتَرَى الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَنْشَغِلُ بِسَمَاعِ الْأَخْبَارِ أَكْثَرَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِالْمَصْحَفِ.. يَظْلَمُ يَتَكَلَّمُ فِي الْأَخْبَارِ وَتَنْقُلُهُ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَالدُّعَاءِ.. إِذَا فَالْتَّفَرُجُ وَالْانْشُغَالُ بِهَذِهِ التُّرَهَاتِ لَا يُنْقَذُ الْمُسْلِمِينَ.. لَابْدُ أَنْ تَفَهَّمَ الْوَضْعَ.. نَرِيدُ أَنْ نَوقِفَ التَّفَرُجَ وَالْانْشُغَالَ بِالنَّاسِ؛ لِأَنَّهُ مَوْقُفُ الْعَصِيفِ الْذَّلِيلِ الْمُتَخَذِّلِ، وَلَنْشُغَلَنَا أَوَّلًا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، فَبِصَلَاحِ النَّفْسِ تَنْصُلُ الْأُمَّةُ وَيَكُونُ النَّصْرُ.

ولذلك يقول العلماء عن هذه القضية: الفتنة دوارة، ويسمون ما يجري الآن «دوامات الفتنة».. الدوامة هل رأيتها؟.. الفتنة مثلها دوارة، فمن الممكن وفي دوران الفتنة أن تطالنا.. فوارد جدًا أن تجد الأعداء غدًا أمام بيتك، فيا ترى - ساعتها - هل ستثبت أم ستبיע دينك؟! وزوجتك ستثبت أم تبىعك؟! وأولادك هل سيثبتون على الدين أم أنهم سيت宦ون ويتعلمون ويترشدون؟!!.. تدبر ما أقول لك وقف مع نفسك وقفه رجل يريد لها النجاۃ.. انشغل بنفسك وأهل بيتك؛ قال الله تعالى - ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوَّا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦].

نعم : إن انشغالك بنفسك هو الأصل؛ قال الله : ﴿فَقَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَةً أُخْرَى﴾ [آل عمران: ١٦٤].. فالأسأل في الإسلام : انجُ بنفسك أولاً.

أيها الأخ الكريم، سؤال واضح ومحدد وصريح ويحتاج إلى إجابة قاطعة : كيف حالك مع الله؟ .. أسألك في التو واللحظة : الآن ، هل الله راض عنك؟ أجب ولا تكن مغرورا .. لو متّ اليوم في لحظتك هذه ، هل ستكون مع النبي محمد ﷺ في الجنة؟! .. هذه هي القضية التي أقصدُها .. أن تجعل نفسك قضيتك ، ورضا ربّك عنك هو موضوعك .

نعم يا شباب : كلنا مشغولون؛ ولكن ٩٩% من الشغل بالآخرين ، ٩٩% من الشغل بأنفسنا ليس بالله .. حتى الجزء اليسير الذي نشغل فيه بأنفسنا لنصلحها لا يكون لله - ولا حول ولا قوة إلا بالله - ؛ فالله ارزقنا الإخلاص واجعلنا من أهله ؛ لذلك لا تغتر بعباداتٍ تؤديها ، وفُرُباتٍ تقوم بها ، وطاعاتٍ تقدمها ، وعباداتٍ تغتر بصورها وهي في الحقيقة من الفتنة .

أيها الإخوة في الله ، أحبتي في الله ، تأملوا معي هذه القصة : خرج رجلٌ من الصوفية إلى الخلاء يعبد الله ، فوجد في الصحراء على الأرض غرابةً أعمى مكسور الجناح ، فوقف يتأمل ويقول : سبحان الله ! غرابٌ أعمى مكسور الجناح وفي صحراء ! من أين يأكل ويشرب وكيف يعيش؟ ! في بينما هو ينظر إذ جاء غرابٌ آخر فوقف ففتح الغراب الأعمى فمه ، فأطعنه الغراب الآخر في فمه وسقاه حتى شبع .

تعجب الرجل وقال : سبحان الله! .. والله لقد أراني الله آية .. أبعد هذا أسعى من أجل الرزق .. وأوى إلى كهف فأقام فيه ، فسمع به عالمٌ فسأل عن مكانه ، فقالوا : أوى إلى كهف يتبعده ، فمضى إليه وقال له : ما الذي حملتك على ما صنعت؟ ؟ فحكى له قصة الغراب ؛ قال له : سبحان الله! ولم رضيت أن تكون الأعمى؟!

أصول الوصول إلى الله تعالى

سبحان الله العظيم ، كم في هذه القصة من فوائد! .. منها : تصديق حديث رسول الله ﷺ : «نَصَرَ اللَّهُ امْرَأًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَاعَهَا فَأَدَاهَا كَمَا سَمِعَهَا ، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ»^(١) .. فالله أرى الآية للرجل الأول ، وأما الثاني فسمع بها فقط ولكنه انتفع بها أكثر من الأول ؛ فكان أفضل من الأول ، فلم لا تكون الأفضل؟! ..

لماذا ترضى أن تكون الأعمى؟! ، لم لا تكون أنت المبصر وتطعم العمى؟! ، لم ترض الدينية؟! ، لم تؤثر النوم والكسل؟! .. هذا هو الواقع الآن في الأمة ، فشبابها اليوم يفضلون العمى ، يريدون أن يناموا وغيرهم يعمل لهم ، يتظرون من يحمل عنهم همومهم ، ويحل لهم مشاكلهم .

نعم - إخواته - : كثير منا يطالب دائمًا بحقوقه ولا يلتفت إلى واجباته .. فقبل أن تطلب بحقك أَدَّ ما عليك من واجب ، ولا شك أنَّ أول الواجبات علينا أنفسنا .. وللأسف الشديد تجلس مع بعض الإخوة فتجد أحدهم يقول : أنا خائف على الأخ فلان؛ لأنه ظل أيامًا لم يصل الفجر .. أقول له : حَفْ أنت على نفسك .

نعم : لا مانع من أن نخاف على إخواننا؛ ولكن لا ينبغي أن نشغل بعيوبهم ؛ قال رسول الله ﷺ : «يرى أحدكم القذاة في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه»^(٢) . فإذا كنت يا هذا صادقاً في كلمتك

(١) أخرجه : أحمد (٣/٢٢٥) ، وابن ماجه (٢٣٦) ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى .

(٢) أخرجه : ابن حبان (١٨٤٨) ، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٥) موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه ، وانظر «الصحيحه» (٣٣) .

«أَخَافُ عَلَىٰ فَلَانٍ» فادهَبَ إِلَيْهِ سَرًّا، وابحثَ عَنْهُ لِعَلَّهُ مُتَوَرِّطٌ فِي مشكلةٍ، لعَلَّهُ عذَرًا، اذهَبْ إِلَيْهِ وساعِدْهُ عَلَى القيامِ للصَّلَاة؛ وَإِلَّا فَاكْفِهِ شرَّكَ، وَلَا تُعنِّ الشَّيْطَانَ عَلَيْهِ، وَانشُغِلْ بِنَفْسِكَ فَهَذَا أَوْلَىٰ بِكَ.

الزَّمْ نَفْسِكَ وَأَلْزِمْهَا طَاعَةَ اللَّهِ.. احْمَلْ هَمَّ نَفْسِكَ، فَهَذَا أَصْلُّ مِنَ الأَصْوَلِ الْمُهِمَّةِ.. وَلِيَسْعَكَ بَيْتُكَ.. انشُغِلْ بِإِصْلَاحِ قَلْبِكَ، وَأَمْرِ صَلَاتِكَ، وَذَكْرِكَ لِلَّهِ، وَحَفْظِكَ لِلْقُرْآنِ، وَتَعْلِمِكَ لِلْعِلْمِ، وَدُعْوَتِكَ إِلَى اللَّهِ، وَتَرْبِيَةِ أَوْلَادِكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ.. وَلِيَسْعَكَ بَيْتُكَ.

* * *

الأصل الثامن

الصادق حبيب الله

أريد أن أسألك سؤالاً ، وأجنبني بصرامة : بالله عليك ، هل تريد أن تدخل الجنة أم تود أن يكون معك اليوم مليونا من الجنية ؟! .. لا تجب الآن لأنك ستكتذب ، ربما تقول : الاثنين ، نجمع بين الخيرين .. أعطوني المليون وأدخلني الجنة أيضا ؟ أقول : لا .. لا يكون ؛ فالقضية إما دنيا وإما آخرة ؛ قال رسول الله ﷺ : «إن الآخرة قد تولت مقبلة ، وإن الدنيا قد تولت مدبرة ، ولكلّ منها بنون ؛ فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء الدنيا»^(١) .

من اشغل بدنياه أضرّ بآخرته ومن اشغل بآخرته أضرّ بدنياه ولا بدّ .

شعبة بن الحجاج أمير المؤمنين في الحديث قال : «لازمت الحديث فأفلست ، ولزم أخي فلان دكانه فأنجح وأفلح» .. قال : «فلان» ظل يتجاذب حتى أصبح صاحب ملايين ، أما أنا فطلبت العلم وليس عندي الآن أي شيء ..

(١) أخرجه : ابن عدي في «الكامل» ؛ لكن بلفظ : «أيها الناس إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر ، يتحقق فيها الحق ويبطل فيها الباطل أنها الناس ، فكونوا أبناء الآخرة ولا تكونوا أبناء دنيا ، فإن كل أم يتبعها ولدها» (٤٠٢/٤) .

ولذلك قال الإمام الشافعي : «لا يصلح لطلب هذا العلم إلا رجل ضربه الفقر . قالوا : ولا الغني المكفي ؟ ، قال : لا .. يعني : حتى من كان عنده مال يكفيه لا يصلح لطلب العلم .. ولأجل ذلك أقول بدون مبالغة : كُلُّكُمْ غَيْرُ صالحين لطلب العلم ؛ لأننا - يا شباب - أصحاب دنيا . فلنكنْ صادقينَ وواضحينَ وصريحة .. فلو كنا نطلب الله لرضينا بالكافف .

بقيُّ ابن مخلد . . ذلكم العالم تلميذ الإمام أحمد ، لما اشتكى إليه الطلبة الفقر ؛ قال : والله لقد جاء عليَّ يوم بعث فيه سراويلي لأشترى الكاغد - الورق - ، وقال : ولقد كانت تمضي عليَّ أيام لا أذوق فيها طعاماً ، فأنتقل بين المزابل أكل ورق الكُرْنِب الذي يلقيه الناس . . نعم : هذا هو طالب العلم .. وهذه هي الآخرة .. وهؤلاء هم الصادقون .

قال رسول الله ﷺ : «طوبى لمن هدي الإسلام ، ورزق كفافاً ، وقناعه الله بما آتاه»^(١) ؛ وقال ﷺ : «اللهم اجعل طعام آل محمد قوتا»^(٢) ، وكان ﷺ لا يدخل لغد .

إخواته ، ما المقصود بالصدق ؟ .. لأنَّ الناس اليوم قد صغروا قضية الصدق جداً ، فعندما يأتي أحد ليتكلم في الصدق تصرف الأذهان إلى قوله الحق وصدق اللسان فقط ، والصدق معنى أكبر من ذلك بكثير .

(١) أخرجه : الترمذى (٢٣٤٩) ، وصححه الألبانى - رحمه الله تعالى - في « صحيح الجامع » برقم (٣٨٢٦) .

(٢) أخرجه : البخارى (١٠٥٤) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

نعم : فنحن في زمن تصغير الكبير .. تصغير الأكابر والقضايا الكبيرة وتكبير الأصغر والمسائل الصغيرة .. والصدق أكبر مما تظنهن.

الصدق - إخواته - هو الإسلام؛ قال - سبحانه وتعالى - : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣] ، وقال ربنا : ﴿لَيْسَ أَلِّيْرَ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ أَلِّيْرَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَالْمَلِئِكَةِ وَالْكِتَبِ وَالنِّبِيِّنَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حِلِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَمَّى وَالْمَسْكِينَ وَأَبْنَى السَّبِيلَ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الْصَّلَاةَ وَءَاتَى أَنْزَكَوَةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ أَنْبَأَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا﴾ [البقرة: ١٧٧].

بعد أن ذكر الله أركان الإيمان وأركان الإسلام؛ قال : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَّقُوا﴾ .. إذا فالصدق هو الدين كله .. والتقوى أيضاً تشمل الدين كله ، فكل طاعةٍ تقوى .

لكنَّ أَعْزَأَنَوْاعَ الصِّدْقِ : صدق العزم؛ قال - تعالى - : ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: ٢١] .. هذه الآية مُبهرة .. اقرأها ثانية .. هل فهمتها؟ .. أسألك : لديك رغبة في دخول الجنة؟ .. لديك استعداد لقيام الليل الليلة من أولها لآخرها ، وتصبح صائمًا ، وتتصدق بنصف ما تملك من مال؟ ، تقول : نعم ، إن شاء الله .. وهذا ما يقوله الله في الآية .. ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ .. فترى هذا الشخص يسمع الكلام فيتكلّم كلامًا جميلاً ، فإذا عزم الأمر .. أتدرى ما معنى هذه النقاط؟! ، أي إذا عزم الأمر لم تجد أحداً ، ﴿فَلَوْ صَدَّقُوا اللَّهَ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ﴾ .

يقول ربك : ﴿وَفَسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَنَهُمْ لَئِنْ أَمْرَتُهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا نُقْسِمُوْا طَاعَةً مَعْرُوفَةً﴾ [النور: ٥٣].

عندى كراسة اسمها «آيات فاضحة» .. أجمع فيها الآيات التي تفضح البواطن وتظهر الحقائق وتجلو الخفايا السيئة والردية ، آيات تحسّ حين تقرؤها أنها تتكلّم عنك أنت وتجوّه أصابع الاتهام إليك ، وهذه الآية منها ، آية فاضحة فعلاً؛ فوْقَت الكلام تجدهم ، لكنَّ وقت الجد والتنفيذ ما تجد أحداً على الإطلاق - اللَّهُمَّ استرنا ولا تفضحنا ، اللَّهُمَّ عافِنَا ولا تبتلِنَا ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، اللَّهُمَّ إِنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزَقَنَا الصدق والإخلاص ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا صدقَ العزمِ معك يا الله .. آمين .

إخواته ، الصادق في عزمه : هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوةً تامةً ليس فيها ميلٌ ولا ضعفٌ ولا ترددٌ؛ بل يستحقّ نفسه أبداً بالعزّ المصمّ الجازم على الخيرات

إخواته ، اصدقوا في عزّكم مع الله ، وكونوا على استعداد للوفاء بهذا العزم؛ فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال؛ إذ لا مشقة في الوعيد والعزم ، فإذا حققت الحقائق ، وهاجت الشهوات؛ انحلّت العزيمة ولم يتحقق الوفاء بالعزم . قال - سبحانه تعالى - : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظَرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبَدِّيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه : «عمي أنس بن النضر - سمي به - لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ ، فكبّر عليه ، فقال : أول مشهد قد شهد

أصول الوصول إلى الله تعالى

رسول الله ﷺ غابت عنه !! ، أما والله ، لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع ، قال : فهاب أن يقول غيرها ، فشهاداً مع رسول الله ﷺ يوم أحد من العام الم قبل ، فاستقبل سعد بن معاذ ، فقال : يا أبا عمرو ، إلى أين ؟ - تنبئها على خطئه في الانهزام والفرار - ، ثم قال أنس : واهما لريح الجنة ! أجدوها دون أحد . فقاتل حتى قُتل ، فوْجَدَ في جسده بضع وثمانون ؛ من بين ضربة وطعنة ورمية . قالت عمتى الربيع بنت النضر : فما عرفت أخي إلا بيته . ونزلت هذه الآية : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَمُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] .. لله ذرء من صادق رباني !! .. يجدر حلاوة العمل قبل الشروع فيه ، يجد ريح الجنة قبل أن يقاتل ! .. وما ذاك إلا لصدقه في الوفاء بالعزم .

أيها الإخوة الأحباب ، من الشواهد القوية على الصدق في قصة أصحاب الأخدود^(١) : أنَّ الولد حينما تعلم من الراهب التوحيد وتعلم من الساحر الكفر ؛ كان في داخل قلبه إرادة صادقة لمعرفة الحق .. لديه ميولٌ فطرية للراهب لكنه يريد أن يكون لديه يقينٌ أنَّ ما هو عليه هو الصواب .. قال : حين رأى دابة تقطع طريق الناس اللهم إنْ كان أمرُ الراهب أحبٌ إليك فاقتله الدابة ودع الناس يمشون .. فلما كان صادقاً في طلب الحق أرأه الله آية .. وهذه نقطة مهمة جداً ، أنه صدق فعرفه الله الحق فعرفه وسار عليه وثبت ، فشق شيخه أمامه نصفين وشق صديقه أمامه نصفين ،

(١) متفق عليه : البخاري (٤٠٤٨) ، ومسلم (١٩٠٣) .

(٢) أخرجه : مسلم (٣٠٠٥) .

وَصُعِدَ بِهِ إِلَى الْجَبَلِ ، وَأَدْخَلَ إِلَى الْبَحْرِ وَهُوَ فِي مِنْتَهِي التَّبَاتِ . وَعَلَامَةُ الصَّدِيقِ أَنَّهُ دَلَّ الْمَلَكَ كَيْفَ يَقْتُلُهُ ! ! . قَالَ الْغَلامُ لِلْمَلِكِ : لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا أَمْرُكَ بِهِ ، حُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانِتِي وَضَعْهُ فِي كَبِدِ قَوْسِكَ ثُمَّ قَلَ : بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغَلامِ ؛ حِينَذَاكَ تَقْتَلَنِي .. إِذَا فَالْغَلامُ هُوَ الَّذِي دَلَّ الْمَلَكَ كَيْفَ يَقْتُلُهُ .. وَلِمَ ضَحَّى بِنَفْسِهِ فِي سَبِيلِ الْقَتْلِ ؟ ! ؛ حَتَّى يَسْمَعَ النَّاسُ كَلْمَةً : بِسْمِ اللَّهِ .. حَتَّى يَعْرَفَ النَّاسُ أَنَّ لَهُمْ مَعْبُودًا اسْمُهُ اللَّهُ .. هَذَا هُوَ الصَّدْقُ .

شَاهِدٌ ثَانٌ فِي الصَّدِيقِ مِنْ نَفْسِ الْقَصَّةِ .. الرَّاهِبُ لَمَّا جَاءَهُ الْغَلامُ وَقَالَ لَهُ : كَانَتْ دَابَّةً تَعْتَرِضُ طَرِيقَ النَّاسِ فَرَمَيْتُهَا فَقَتَلْتُهَا ؛ قَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أَيْ بَنِيَّ ، أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي .. صِدْقٌ .. فَلَمْ يُخْفِ تَلْكَ الْأَفْضَلِيَّةَ .

حَتَّى السَّاحِرُ كَانَ صَادِقًا مَعَ نَفْسِهِ .. تَعْلَمُونَ أَنَّ السَّاحِرَ كَذَابٌ كَبِيرٌ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ صَادِقًا مَعَ نَفْسِهِ ؛ حِيثُ قَالَ لِلْمَلِكِ : إِنِّي كَبَرْتُ ، فَأَبْلَغْنِي غَلامًا أَعْلَمُهُ السَّحْرُ يَكْنِي لَكَ مِنْ بَعْدِي .. السَّاحِرُ يَقُولُ : أَنَا سَأَمُوتُ .. لَمْ يَدَاهُنْ نَفْسَهُ - وَإِنْ كَانَ يَدَاهُنُ النَّاسَ .

إِذَا فَالْغَلامُ صَدَقَ فَعَرَفَ ، وَالرَّاهِبُ صَدَقَ فَلَمْ يُخْفِ ، وَالسَّاحِرُ صَدَقَ فَلَمْ يَدَاهُنْ نَفْسَهُ .

وَإِنْ كُنْتَ تَعْجَبُ مِنْ قَوْلَنَا : صَدَقَ السَّاحِرُ مَعَ نَفْسِهِ ، فَالْعَجَبُ أَكْثَرُ لِمَنْ لَمْ يَصِلُوهَا حَتَّى إِلَى تَلْكَ الدَّرْجَةِ « الصَّدِيقُ مَعَ النَّفْسِ » .. هُؤُلَاءِ الَّذِينَ يَدَاهُنُونَ حَتَّى عَلَى الْوَاقِعِ .. إِنْ بَعْضَنَا - وَلِلأَسْفِ الشَّدِيدِ - يَكْذِبُ الْكَذِبَةَ فَتَكْبُرُ فِي صَدِيقِهَا .. يَلْتَزِمُ بِالْكَذْبِ فَتَكْبُرُ الْكَذِبَةَ ، وَيَنْسِي أَنَّهُ هُوَ

أصول الوصول إلى الله تعالى

الذي كَذَبَهَا فِي الْأَصْلِ ، فَيُعِيشُ كَذْبَةً «شِيخ» أَو «مُلتَزِمٌ» .. تَمَامًا كَالذِي فِي يَدِهِ بَعْرَةٌ يَتَأْفُفُ مِنْهَا؛ وَلَكِنَّ النَّاسَ ظَنُوهَا تَمَرَّةً ، فَقَالُوا : تَمَرَّةً .. تَمَرَّةً لِذِيَّذَةٍ فِي يَدِهِ .. فَأَكَلُوهَا !!! .. نَعَمْ : أَكَلُوهَا لِمَهَانَةِ نَفْسِهِ .

قال محمد بن كعب : إنما يُكَذِّبُ الْكاذِبُ مِنْ مَهَانَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهِ .

قال بعضاً مِنْهُمْ : لَا يَشْمُ رائحةَ الصَّدِيقِ عَدُّ داهَنَ نَفْسِهِ أَوْ غَيْرَهُ .

أيضاً من القصص الطريفة ، أنه كان هناك رجلٌ أَمِيٌّ لا يَعْرِفُ القراءةَ ولا الكتابةَ وَمَعْهُ خطابٌ ، فكان يَمْشِي فِي الشَّارِعِ فَأَعْطَى الخطابَ لِرَجُلٍ يَقْرُؤُهُ لَهُ؛ لَكِنَّ هَذَا الرَّجُلُ كَانَ ضَعِيفَ النَّظَرِ ، فَحَاوَلَ أَنْ يَقْرَأَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فَأَخْرَجَ نَظَارَتَهُ وَقَرَأَ لَهُ وَقَدْ يُفْهَمُهُ الْمَوْضُوعُ .. فَقَالَ الْأَمِيُّ فِي نَفْسِهِ مُتَعْجِبًا : النَّظَارَةُ فَعَلَتْ كُلَّ هَذَا! .. وَقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا هَذِهِ النَّظَارَةُ الْعَجِيْبَةُ؟! ، قَالَ لَهُ : هَذِهِ نَظَارَةُ قِرَاءَةٍ ، فَذَهَبَ وَاشْتَرَى نَظَارَةً قِرَاءَةً وَلَبِسَهَا وَأَخْذَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَلَا يَسْتَطِعُ القراءةَ!! .. وَنَسِيَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ لَيْسَتْ فِي النَّظَارَةِ .. الْقَضِيَّةُ فِي الدَّمَاغِ الَّتِي وَرَاءَ النَّظَارَةِ .. فَهَمْتَ مَا أَقْصِدُ؟!

فَبَعْضُ النَّاسِ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ طَالَمَا أَطَالَ لِحِيَتَهُ ، وَقَرَأَ كَتَابِينِ ، وَاسْتَمَعَ لِبَعْضِ الشَّرَائِطِ ، وَحَضَرَ بَعْضَ الدُّرُوسِ قَدْ أَصْبَحَ «الإِمام» .. لَا يَا بْنِيَّ ، الْقَضِيَّةُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي وَرَاءَ النَّظَارَةِ .. فِي الْقَلْبِ الَّذِي وَرَاءَ الْمَظَهَرِ .. نَعَمْ - إِخْوَتَاهُ - : لَابْدَ أَنْ يَوَافِقَ الْمَظَهُرُ الْمَخْبُرُ؛ وَإِلَّا كُنَّا كَذَابِينَ غَشَاشِينَ مُخَادِعِينَ لِأَنفُسِنَا قَبْلَ النَّاسِ .

قال عبد الواحد بن زيد : كَانَ الْحَسْنُ إِذَا أَمَرَ بِشَيْءٍ كَانَ مِنْ أَعْمَلِ النَّاسِ بِهِ ، وَإِذَا نَهَى عن شَيْءٍ كَانَ مِنْ أَتَرَكِ النَّاسِ لَهُ ، وَلَمْ أَرَ أَحَدًا قُطُّ أَشْبَهَ سَرِيرَةً بِعَلَانِيَّةٍ مِنْهُ .

وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهي ، عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ، ويبكي .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية .

إخواته ، اصدقوا في أعمالكم مع الله ؛ «فمخالفة الظاهر للباطن عن قصد هي الرياء ، وإن كانت عن غير قصد يفوت بها الصدق ؛ فقد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله ، وإن لم يكن مرائياً» .

سؤال : هل تحب أن ينصر الله الإسلام؟ .. أرأيت أنَّ أمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ كلَّ أمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مثلُك .. لو أنَّ الأُمَّةَ كُلُّها الصغار والكبار مثلُك بالضبط .. بذنوِّيك وعيوبِك وإيمانِك وأعمالِك .. تُنصر الأُمَّةُ؟! .. الأُمَّةُ تُنصر بالخلص .. اللَّهُمَّ اجعلنا من المخلصين .. هل تصلح أنت للنصر؟! .. لا يمكن؛ وإلا فلو قلت: نعم، فأنت مغرور جدًا .. إدأ أقول لك: إن قولك: إنك تحب أن ينصر الله الإسلام كذب .. أَوْ نصر الدين أن تصلح نفسك .. من هنا البداية .

ولذا؛ فحينما أقول لك : هل تصلح أن تكون مجددًا للإسلام؟ ، فلا تقل: الله المستعان وتنصرف .. لا .. فكلمة «الله المستعان» هذه تحتاج إلى شغل ، تحتاج إلى علم وعبادة ، تحتاج إلى صلة بالله ، تحتاج إلى جهد ليل نهار .. فإن كنت صادقاً مع الله فتعال إلى هنا واحفِّز لنفسك خندقاً .. احفِّز بنفسك .. احفِّز واتعب؟ فأمر الدين يحتاج إلى شغل وسَهَر وجهاد؛ فاصدق ولا تكن كذاباً .

أصول الوصول إلى الله تعالى

الإمام النووي لما جاءه الموت قالوا له : لم لم تتزوج؟ ، قال : لو تذكري لفعلت .. نسيت .. والإمام ابن تيمية أيضاً مات ولم يتزوج .. أيضاً نسي .. سبحان الله العظيم ! نسوا الزواج ، تلكم القضية التي تكاد تطيش بعقل الشباب اليوم .. والملتزم منهم على الخصوص .

نعم : فمن يوم أن يلتزم الشاب لا تجد شيئاً في رأسه يفكر فيه ليل نهار إلا الزواج ، فصار الزواج شغله الشاغل وهمه الدائم؛ ولذلك أصبح الزواج عقبة .. فتراء إذا رأى متقبة قال : أتزوج هذه .. لا لا ، بل هذه .. وهكذا .. ليس هؤلاء المؤمل لهم أن يكونوا رجالاً ..

فهل هؤلاء هم الذين سيحملون الدين؟! .. هل هؤلاء هم الذين سينصرُ الله بهم الدين؟!! ، أين الرجال؟!! ، بل أين أنصاف الرجال؟! ، بل أين أشياه الرجال؟!! .. يا حسرة على الرجال !!

إخواته ، إنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ الدِّينَ بِرِجَالٍ قَضَيْتُهُمُ الدِّينُ .. رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ .. رِجَالٌ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا اللَّهُ .. رِجَالٌ يَحْبُّونَ اللَّهَ وَيَحْبِّهُم .. رِجَالٌ صَادِقُونَ فَعَلًا .

إِخْرَاجُهُ ، اصْدُقُوا اللَّهَ فِي إِسْتِقْرَامِكُمْ . . اسْتَقِيمُوا بِصَدِيقٍ وَلَا تَنْفِتوَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ .

قال الشاعر :

أرداكُمْ صِرَفًا فَلِمَّا مَزْجْتُمْ
بَعْدُتُمْ بِمَقْدَارِ التَّفَاتِكُمْ عَنَّا
وَقُلْنَا لَكُمْ لَا تُسْكِنُوا الْقُلُوبَ غَيْرَنَا
فَأَسْكَنْتُمُ الْأَغْيَارَ ؟ مَا أَنْشُمْ مَنَّا

قال جعفر الصادق : الصدق هو المجاهدة ، وأن لا تختار على الله غيره ، كما لم يختار عليك غيرك ؛ قال - تعالى - : ﴿هُوَ أَجْتَبَكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

والصدق - إخواته - مفتاح الصدقية ، وأعلى مراتب الصدق : الصدقية ، وأعلى مراتب الصدقية لأبي بكر رضي الله عنه^(١) :

كما جاء في الحديث : « وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً »^(٢) . فالصدق مفتاح الصدقية ، ومبؤها وهي غايتها ، فلا ينال درجتها كاذب البتة ، لا في قوله ، ولا في عمله ، ولا في حاله .. قال الله - تعالى - عن أبي بكر رضي الله عنه : ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُنَّقُونَ﴾ [الزمر : ٣٣].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : والذي نفسي بيده ، إن الله سمي أبا بكر في السماء صديقاً .

فالذى جاء بالصدق : من هو شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله . فالصدق : في هذه الثلاثة . فالصدق في الأقوال : استواء اللسان على الأقوال ، كاستواء السُّنْبُلَةِ على ساقها . والصدق في الأعمال : استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، كاستواء الرأس على الجسد . والصدق في الأحوال : استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص ، واستفراغ الوضع ، وبذل الطاقة ؛ فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق .

(١) انظر : صلاح الأمة (٥/٣٣ ، ٣٥ - ٣٦) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٦٠٩٤) ، ومسلم (٢٦٠٧) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به؛ تكون صديقته؛ ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ذرورة سَنَام الصَّدِيقَةِ، سُمِّيَّ «الصَّدِيقَ» على الإطلاق، و«الصَّدِيقُ» أبلغ من الصدوق، والصادق أبلغ من الصادق. فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقة؛ وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

قال ابن القيم: «قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث؛ لأنَّه

استغنى بكمال صديقته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف؛ فإنه قد سلم قلبه وسره وظاهره وباطنه للرسول ﷺ، فاستغنى به عمما منه . قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يُحدَثُ به على ما جاء به الرسول ﷺ؛ فإن وافقه قبله ، وإنْ رَدَه ، فُعِلِّمَ أنَّ مرتبة الصديقة فوق مرتبة التحديث^(١).

والفهم عن الله ورسوله ﷺ عنوان الصديقة، ومنتشر الولادة النبوية ، وفيه تفاوت مراتب العلماء ، حتى عدَّ ألفاً واحداً .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، **الصادق حبيب الله** ، فهل تريد الله أم تريد الدنيا؟ .. هل تريد الجنة أم تريد شهواتك؟ .. تريد الرفعة في الدنيا أم تريد المنزلة العليا في الجنة؟ .. هذه قضية تحتاج منك أن تكون صادقاً فيها .. فاصدق الله ؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «اصدق الله يصدقك»^(٢) .

(١) مدارج السالكين ٣٩/١ - ٤٠ .

(٢) أخرجه : النسائي ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في صحيح السنن .

قال أبو سليمان : أجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله - تعالى - غاية طلبتك .

وقال ذو النون المصري : الصدق سيف الله في أرضه ، ما وضع على شيء إلا قطعه .

وقيل : من طلب الله بالصدق ؛ أعطاه الله مرآة يبصر منها الحق والباطل .

وقال محمد بن سعيد المروزي : إذا طلبت الله بالصدق ؛ آتاك الله تعالى مرآة بيديك ، تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة .

وقال أبو سليمان : «من كان الصدق وسليته ؛ كان الرضا من الله جائزته» .. فاصدق الله - أخي - ؛ فالصادق حبيب الله .

* * *

الأصل التاسع

دوماً في المعاملة السَّحْبُ من الرَّصِيدِ

في المعاملة مع الله - جل جلاله - دائمًا السَّحْبُ من الرَّصِيدِ.

قال الله - تعالى - : ﴿فَإِن تَوَلُوا فَاعْلَمْ أَنَّهَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِعَذَابٍ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وأنت سائر في طريقك إلى الله تُفاجأ بأنك قد تعسرت عليك طاعة .. لست قادرًا على قيام الليل مثلاً .. وسائل ما السبب؟!

قال سفيان : اغتبت إنساناً فحرمت قيام الليل شهراً .. وقال بعضهم : أصبت ذنبًا فأنا منذ أربع سنين إلى ورا .. أربع سنين في النازل بسبب ذنب .. قال الله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابٌ أَسْتَرَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِعَذَابٍ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

وقال رسول الله ﷺ : «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك^(١) .. تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة» .. هذا هو معنى الكلمة «السَّحْبُ من الرَّصِيدِ».

(١) أخرجه : أحمد (٢٩٣/١ ، ٣٠٧) ، والترمذى (٢٥١٦) وقال : حديث حسن صحيح ، وصححه الألبانى - رحمه الله تعالى - في صحيح السنن .

فلا بد أن يكون لك عند الله رصيده سابق من الخبرات يُثمر خيرات جديدة يقبلك الله بكل تهمها ويكونان رصيدها لك في المستقبل .

وهكذا . . ﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَأَنَّهُمْ تَقْوَيْهُمْ﴾ [محمد: ١٧] فكلما ازدادوا هدى آتاهم تقوى ، وكلما ازدادوا تقوى زادهم هدى .

إن التعامل مع ربنا الكريم عظيم ، وكلما كان رصيده عنده أعلى كان رزقك منه في الخيرات أوفر .

انظر إلى الثلاثة الذين نزلت عليهم الصخرة في الغار لما كانوا في الأصل وأول الأمر مخلصين ، بدليل أنهم توسلوا بأعمال كانوا فيها مخلصين ؛ وفهم الله للتسل بها . . يعني : كي يوفقك الله فلا بد أن يكون لديك عمل ؛ قال - سبحانه تعالى - : ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأتعام: ١٢٧] . فالولاية تحتاج للعمل . . إذا فحينما تأتي لتبدا في التعامل مع الله فأنت تسحب من رصيده السابق . . من أعمال عنده ، فتستجلب بها الزيادة والجديد .

والبداية - لا شك - تحتاج إلى معاناة ؛ لذا يقول العلماء : «من كانت له بداية محرقة ؛ كانت له نهاية مشرقة» . . أن تكون الانطلاق الأولى قوية ومؤثرة وصحيحة . . قال أحد السلف : عالجت قيام الليل عشرين سنة ثم تمنت به عشرين سنة . . وقال آخر : حرست قلبي عشرين سنة فحرستني عشرين سنة . . نعم : لابد دائمًا أن يكون الساحب من الرصيد .

كنت مرة في سفر لبلد غربي فرأيت في المسجد شاباً قد امتلاء وجهه بنور الإيمان ، فتعجبت من أن أجده في هذا الجو وجهاً يذكر بالله ، **فقلت**

أصول الوصول إلى الله تعالى

له : مَنْ أَنْتَ وَمَا الَّذِي جَاءَكَ إِلَى هَنَا؟ ، قَالَ لِي : مِنْ شَهْرٍ وَأَنَا مَا كُثِّرَ فِي الْمَسْجِدِ لَا أَخْرُجُ .. لِمَاذَا؟! .. قَالَ : لِأَنِّي عِنْدَمَا سَافَرْتُ إِلَى هَذَا الْبَلْدِ انبَهَرْتُ ، وَطَبَعًا كُنْتُ أَعْيُشُ فِي بَلْدِي فِي الْكَبْتِ ، فَلَمَّا جَئْتُ إِلَى هَنَا وَجَدْتُ الْانْفَتَاحَ ، وَلَا أَحَدَ يَقُولُ لِي : أَينَ تَذَهَّبُ أَوْ مِنْ أَينَ أَتَيْتَ؟ ، فَالْحَيَاةُ مَفْتُوحَةٌ ، فَشَرَبْ لِلْخَمْرِ وَزَنَّا وَسَرَقَهُ وَكُلَّ شَيْءٍ .

يقول : حتَّى مَرِضْتُ مَرْضًا شَدِيدًا جَدًّا .. كُنْتُ أَظْلَلُ أَسْعَلُ حَتَّى أَسْقَطَ مِنْ عَلَى السَّرِيرِ وَأَنَا فِي الشَّقَّةِ وَحْدِي .. وَفِي لَحْظَةٍ سَعَلْتُ فَوَقَعْتُ فَحاوَلْتُ أَنْ أَقُومَ فَلَمْ أَسْتَطِعْ .. فَقَلَّتْ : يَا رَبِّ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَبَكَيْتُ .. ثُمَّ أَفَقْتُ وَقَلَّتْ : يَا رَبِّ!! لَكُنْ : بَأْيِ وَجْهٍ أَنَادِي رَبِّي؟!! .. فَأَنَا لَا أَصْلِي وَلَا أَصُومُ وَلَا أَعْرُفُ رَبَّنَا .. أَقُولُ يَا رَبِّ بِمَاذَا؟!! .. قَالَ : وَسَاعَةً أَنْ وَقَعْتُ فِي ذَهَنِي هَذِهِ الْكَلْمَةُ؛ ارْتَعَشْتُ وَخَرَجْتُ أَجْرِي بِسُرْعَةٍ أَبْحَثُ عَنْ مَسْجِدٍ؛ فَوَجَدْتُ هَذَا الْمَسْجِدَ فَدَخَلْتُ فِيهِ وَلَمْ أَخْرُجْ حَتَّى الْآن!!

فَالَّذِي أَعْجَبَنِي - يَا شَبَابُ - مِنْ هَذَا الْمَوْقِفِ هُوَ كَلْمَةُ هَذَا الشَّابِ :

«أَقُولُ : يَا رَبِّ؛ لَكُنْ يَا رَبِّ بِمَ؟!» .. مَاذَا لَدِيَ عِنْدَ اللَّهِ كَيْ أَدْعُوهُ؟!! ..

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى : «تَعْرَفَ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرُفُكَ فِي الشَّدَّةِ» .. هَذَا هُوَ مَعْنَى الْكَلْمَةِ الَّتِي أَقُولُهَا لَكُمْ دَائِمًا : «إِيَاكَ أَنْ تَبِعَهُ فَبِيَعْكَ» .

وَهُوَ أَيْضًا مَعْنَى حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ : «وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَعْرَضْ؛ فَأَعْرَضْ اللَّهُ عَنْهُ»^(١) ، وَمَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» [التوبه: ٦٧].

فَمَاذَا قَدَّمْتَ وَمَا رَصِيْدُكَ لَكِي تَطْلَبَ؟! ، وَهَلْ تَرِيدُ مِنَ اللَّهِ وَأَنْتَ لَسْتَ

(١) أَخْرَجَهُ : مُسْلِمٌ (٢١٧٦) .

على ما يريد؟ !! .. قال ابن القيم - عليه رحمة الله - : «كُنْ لِلَّهِ كَمَا يُرِيدُ؛ يَكُنْ لَكَ فَوْقَ مَا تُرِيدُ» .. فلذلك دوماً في المعاملة السّاحبُ من الرصيد .

عن الشعبي : أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ خَرَجُوا مَتَطْوِعِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَنَفَقَ حِمَارُ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَأَرَادُوهُ عَلَى أَنْ يَنْطَلِقَ مَعَهُمْ فَأَبَى، وَانْطَلَقَ أَصْحَابُهُ مَرْتَحِلِينَ وَتَرَكُوهُ، فَقَامَ فَتَوْضَأَ وَصَلَّى، ثُمَّ رَفَعَ يَدِيهِ فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي خَرَجْتُ مِنَ الدَّفْنَيَةِ (مَكَانٌ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْبَصْرَةِ) مَجَاهِدًا فِي سَبِيلِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَايِكَ، وَأَشْهُدُ أَنِّي تُحِيِّي الْمَوْتَىٰ وَتَبْعُثُ مِنْ فِي الْقِبَوْرِ . اللَّهُمَّ فَأَحْيِ لِي حَمَارِي . ثُمَّ قَامَ إِلَى الْحِمَارِ فَضَرَبَهُ؛ فَقَامَ الْحِمَارُ يَنْفِضُ أَذْنِيهِ، فَأَسْرَجَهُ وَأَلْجَمَهُ ثُمَّ رَكِبَهُ، فَأَجْرَاهُ حَتَّى لَحِقَ بِأَصْحَابِهِ، فَقَالُوا لَهُ : مَا شَاءْتُكَ؟ ، قَالَ : شَاءْتِي أَنَّ اللَّهَ بَعَثَ لِي حَمَارِي ..

فانظر - أخي في الله - ماذا قال الرجل .. قال : خرجت مجاهداً في سبيلك وابتغا مرضايتك .. **نعم** : هذا هو الرصيد الذي ساحب منه ، ولذلك استجيب دعاؤه . وهذا معنى التوسل بالعمل الصالح ؛ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيَا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنَّ إِيمَانُوا بِرَبِّكُمْ فَعَامَنَا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣] .. انظر إلى فاء الترتيب في قوله - تعالى - : ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ﴾ أي نتوسل لك بسرعة استجابتنا لمناديك أن تستجيب دعاءنا .

وانظر إلى البراء بن مالك الذي لقي المشركين وقد أوجعوا في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ : «إِنَّكَ لَوْ أَقْسَمْتَ عَلَى اللَّهِ لَا يَرَكَ» فَأَقْسِمَ عَلَى رَبِّكَ؛ فَقَالَ : أَقْسِمُ عَلَيْكَ يَا رَبَّ لَمَّا مَنَحْنَاكُمْ هُنَّا أَكْتَافُهُمْ، وَأَلْحَقْنَا بِنَبِيِّكُمْ؛ فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا .. نعم : مجاّب الدّعوة .. يسأل ربّه النصر للMuslimين ، ولنفسه الشهادة؛ فيُجاّب

أصول الوصول إلى الله تعالى

وينالها .. سبحان الله العظيم يُقسم على الله فَيُجِيبُ في التَّوْ وَاللَّحْظَةِ ..
نعم - إخواته - : لأنَّ له في الأصل رصيده يَسْحُبُ منه .

والواعظ البر عمر بن ذر ، قال عنه كثير بن محمد : سمعت عمر بن ذر يقول : اللَّهُمَّ إِنَا أَطْعَنَاكَ فِي أَحَبِّ الْأَشْيَاءِ إِلَيْكَ أَنْ تُطَاعَ فِيهِ : الإِيمَانُ بِكَ وَالإِقْرَارُ بِكَ ، وَلَمْ نُعَصِكَ فِي أَبْغَضِ الْأَشْيَاءِ أَنْ تُعَصِّيَ فِيهِ : الْكُفُرُ وَالْجَحْدُ بِكَ . اللَّهُمَّ فَاغْفِرْ لَنَا بَيْنَهُمَا ، وَأَنْتَ قُلْتَ : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [الحل: ٣٨] ، وَنَحْنُ نُقْسِمُ بِاللَّهِ جَهَدَ أَيْمَانِنَا لِتَبَعَّثَنَا مِنْ يَمُوتُ ، أَفْتَرَاكَ تَجْمُعُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِسْمَيْنِ فِي دَارِ وَاحِدَةٍ؟^(١) . نعم : قَدَّمَ الطَّاعَةُ وَالإِيمَانُ وَابْتَعَدَ عَمَّا يَغْضِبُ الرَّحْمَنُ ، فَحَرِّيَ أَنْ يُسْتَجَابَ لَهُ .

وعامر بن عبد قيس الذي كان يسأل ربَّه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ؛
فكان لا يُبالي أذكراً لقياً أم أثنياً .. استجواب الله دعاءه؛ لأنَّ له عند الله
رصيدها كبيراً من الصالحات .. فما رصيدهك أنت لكي تطلب؟!

حبيبي في الله ، أدلُّك على ما يزيد في رصيدهك من الحسنات؟ ..
القرآن .. القرآن معين لا ينضب .. هو أفضل الذكر وأحسن الطاعات؛
فعضْ عليه يساعدك في القيام بالصالحات .

أخي في الله ، قَدَّمَ صَالِحًا تَجِدُ صَالِحًا .. املأ رصيدهك لتسحب منه
عند الحاجة؛ فدوماً في المعاملة مع الله السَّحْبُ من الرصيد .

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٦/١٨٥).

الأصل العاشر

القرآن قائد وسائقٌ وحادي

قال الله - عزَّ وجلَّ - : «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٦﴾ فَلَا تُطِعُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدُهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا» [الفرقان: ٥٢-٥١] .. وجاهدهم بماذا؟ ، بالقرآن .. كأنَّ الله - جلَّ جلالُه - يشيرُ في هذه الآية إلى أنَّ هذا القرآن بديلٌ من إرسال الرُّسل؛ فقد كفلَ اللهُ به مهمَّة جميعِ الرُّسل؛ بأن يصنع القرآن رجلاً كالرُّسل .

يقول ربِّي - وأحقُّ القول قولُ ربِّي - : «وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَكَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ» [العنكبوت: ٥٠]؛ فقال الله : «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْكِتَابَ يُتَلَى عَلَيْهِمْ» [العنكبوت: ٥١] .. فهم يطلبون آية فعرَّفهم أعظم آيةٍ .. هي القرآن .

وقال رسول الله ﷺ : «ما من نبيٍ قبلَيْ أَلَا وَأُوتِيَ ما علِيَ مثُلُهُ آمنَ البشر ، وكان الذي أُوتِيَتْهُ كِتابًا يُتَلَى ، وأرجو أن أكون أكثَرَهُمْ تابِعًا يوم القيمة»^(١) .

وفي سورة البقرة يقول الله - سبحانه وتعالى - : «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّ يُحِيِّ هَذِهِ أُلَّا بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ

(١) متفق عليه: البخاري (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

عَامِ ثُمَّ بَعْثَهُ ﴿٢٥٩﴾ [البقرة: ٢٥٩] .. الرَّجُل يَقُول : هَل يُعْقِلُ أَنْ يُحْيِي اللَّهَ هَذِهِ .. كَيْفَ ؟ ! ؛ فَأَرَاهُ اللَّهُ الْآيَةَ فِي نَفْسِهِ .. أَمَاتَهُ اللَّهُ وَأَحْيَاهُ .. قَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ ؟ ، قَالَ : مَا رَأَيْتَ شَيْئًا .. قَالَ لَهُ اللَّهُ : كَمْ لَبْثَتْ ؟ ، قَالَ : لَبْثَتْ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .. لَا .. ﴿فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهُ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ .. أَرَاهُ الْآيَةَ بَعْينِيهِ ؛ ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُشِرِّنُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩] .. الْحِمَار قَدَّامَهُ .. هِيكِلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْأَرْضِ ، بَدَا الْعَظَمُ يَقِفُ وَيَتَرَكِبُ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ، وَبَعْدَ الْعَظَمِ الْغَضَارِيفُ وَبَعْدَهَا كُسِيَ اللَّحْمُ ثُمَّ نُفَخَ فِي الْحِمَارِ الرُّوحُ وَنَهَقَ .. نَظَرَتْ بِأَمْ عَيْنِكَ ؟ ! .. ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] .

وبعد هذه القصة مباشرة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحِيِ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] .. نَفْسُ السُّؤَالِ .. لَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يُرِهِ الْآيَةَ فِي نَفْسِهِ ؛ بَلْ قَالَ : ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الظَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَا تَبَّانَكَ سَعِيًّا﴾ [البقرة: ٢٦٠] .. فَالْأَوَّلُ أَرَاهُ اللَّهُ الْآيَةَ فِي نَفْسِهِ ، وَسِيدُنَا إِبْرَاهِيمَ أَرَاهُ اللَّهُ الْآيَةَ فِي الطَّيْرِ .. فِي الْكَوْنِ .

وَنَفْسُ السُّؤَالِ وَجْهُهُ الْعَاصُ بْنُ وَائِلِ السَّهْمِيُّ ، وَأَبْيُ بْنُ خَلْفٍ إِلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ﷺ ؛ قَالَ اللَّهُ : ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَسَيَ حَلْقَهُ﴾ قَالَ مَنْ يُحِيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يُسْرَايِيل: ٧٨] ؛ فَأَجَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِقُرْآنٍ : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بِلَى وَهُوَ أَخْلَقُ الْعَلِيمُ﴾ [يُسْرَايِيل: ٨١-٨٩] .

إذاً فالأول أراه الله الآية في نفسه .. في حماره وطعامه ، وسيدنا إبراهيم عليه السلام أراه الله الآية في الطير ، أما في أمّة محمد عليه السلام فالآية في القرآن ، هذه هي القضية .. قضيّة كلية .. أن ديننا كلُّه مرده إلى القرآن والسنة .. القرآن هو الأصل والسنّة متممة ومكملة ومفسرة .. ولذلك لابد أن تذكروا دوماً : **«كلُّ ما شغلك عن القرآن فهو شوئٌ عليك»**.

بعض الناس طيلة الوقت يستمع إلى الشرائط ، ويحضر للمشايخ ، ويقرأ في كتب العلم وهو هاجر للقرآن .. كلُّ هذا لن ينفعك .. القرآن هو الذي يصنعك .. القرآن يربّيك .. القرآن ينفعك .. فعليك بالقرآن حفظاً وتلاوةً وتدبّراً وتفسيراً ومذاكرة .. تفهم معنى الكلمة مذكرة؟ !

القرآن فيه علم العقيدة والفقه والسيرة والتفسير والتاريخ واللغة والبلاغة والرقائق .. كل شيء .. القرآن كلام الله .. كتاب مبارك يربّيك على العلم والعمل والدعوة .. القرآن هو طريقك لأن تكون رجلاً .. نعم : القرآن هو الذي يصنع الرجال ، وسيظل يصنعهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

نعم - إخواته - : القرآن مصنُّع الرجال .. القرآن يُفرّخ الأبطال .. في حظيرة العبودية .. وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته .. فهل أنت من أهل الله؟ .. هل أنت من أهل القرآن؟! .. هل وهبت كل حياتك للقرآن؟ ، وهل وضعْتَه على قمة أولوياتك؟ .. هل فكرت مرةً أن تُذَاكره كما تذَاكر الكتاب الدراسي بجدٍ واجتهاد؟!

أخي في الله ، إذا كنت بعيداً عن القرآن فاعلم أنك محروم كلَّ

أصول الوصول إلى الله تعالى

الحرمان ، ولو ذُقت لما ابتعدت .. تعالَى الله واعكُفْ على القرآن لِتُصْنَع ، وإلا فما أبعد الدواء عن تلك الأدواء .

قال - تعالى - : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١] .

كان المشركون يطلبون من رسول الله ﷺ آياتٍ حسيةً : تسخير الجبال أو تقطيع الأرض أو تكليم الموتى ؟ فأنزل الله هذا القرآن ، وكأنَّ الآيات تُشير إلى أنَّ هذا القرآن ليس من شأنه ذلك بل أعظم من ذلك وهو صياغة النفوس ، وصناعة القلوب ، وإيجاد الإنسان الذي يرضاه الله له عبداً .

لقد تربَّى الصحابة - رضوان الله عليهم - أفضل جيلٍ عرفه التاريخ على يدِ أعظم مربٍ عرَفتُه البشرية .. تربَّوا بالقرآن ، فكان منهم ما تسمع وتقرأ .. إيمانٌ وثباتٌ تزول دونَه الجبال .. وهاكَ مثلاً واحداً منهم :

عَبَّادُ بْنُ بِشَرٍ .. صَدِيقُ الْقُرْآنِ .. يقول عنه الدكتور عبد الرحمن

رأفت البasha - رحمه الله تعالى - :

«إن نشَدتُه بين العباد وجدته التقيَ النقيَ قوامَ الليل بأجزاءِ القرآن . وإن طلبته بين الأبطال أفيته الكنميَ الحميَ خواصَ المعارك لإعلاءِ كلمة الله . وإن بحثت عنه بين الولاة رأيته القويَ المؤمن على أموالِ المسلمين .

وقد استمع عبَّادُ بنُ بِشَرٍ إلى مُصَعَّبَ بنُ عمَيرَ حين أتى المدينة وهو يرتلُ القرآن بصوته الفضيِّ الدافئ ونبرته الشجيةِ الآسرة ؛ فشغفَ ابنُ بِشَرٍ بكلام الله حباً ، وأفسحَ له في سُورِيَّا قلبه مكاناً رحباً ، وجعله شُغلاً

الشاغل؛ فكان يردد في ليله ونهاره وحله وترحاله حتى عرف بين الصحابة بالإمام وصديق القرآن»^(١).

ومن الأئمة الذين ربّاهم القرآن، الإمام أبو بكر محمد بن أحمد بن سهل، المعروف بابن النابليسي : قال عنه أبو ذر الحافظ : سجنه بنو عبيد - الفاطميون - وصلبوه على السنة ، سمعت الدارقطني يذكره وي بكى ، ويقول : كان يقول وهو سُلخ : ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨].

«قال أبو الفرج ابن الفرج : أقام جوهر - القائد - لأبي تميم صاحب مصر أبا بكر النابليسي ، فقال له : بلغني أنك قلت : إذا كان مع الرجل عشرة أسمهم ، وجب أن يرمي في الرؤوم سهّما وفيينا تسعة .. قال : ما قلت هذا ، بل قلت : إذا كان معه عشرة أسمهم وجب أن يرميكم بتسعة ، وأن يرمي العاشر فيكم أيضًا ؛ فإنكم غيرتم الملة وقتلتم الصالحين ، وادعىتم نور الألوهية .. فشهره ثم ضربه ، ثم أمر يهوديًّا فسلخه .

قال معمُّر بن أحمد بن زياد الصوفي : أخبرني الثقة أنَّ أبا بكر سُلخ من مفرق رأسه ، حتى بلغ الوجه ، وكان يذكر الله ويصبر حتى بلغ الصدر ، فرحمه السلاخ ، فوكزه بالسكين موضع قلبه فقضى عليه ؛ وأخبرني الثقة : أنه كان إماماً في الحديث والفقه ، صائم الدهر ، كبير الصولة عند العامة والخاصة ، ولما سُلخ كان يسمع من جسده قراءة القرآن»^(٢).

(١) صور من حياة الصحابة (٣٥٦ - ٣٥٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٤٩ / ١٤٨ - ١٤٦).

أصول الوصول إلى الله تعالى

نعم : لما أطعْمَ القرآن لحمه ، وأسقاه دمه .. لما اخْتَلَطَ القرآن بـ لحمه ودمه فجرى في عروقه ونبض به حسنه ؛ نطق جسده الطاهر بالقرآن .. اللهم اجعلنا من أهل القرآن ، اللهم لا تحرمنا نعيم القرآن وطعم القرآن ولذة القرآن وحلوة القرآن .. يا كريم يا رحمن .. يا كريم يا منان ..

اللهم يا ربنا اجعل القرآن العظيم ربِيعَ قلوبِنا ، ونُورَ أبصارِنا ، وجلاءَ أحزانِنا وهمومِنا وغمومِنا ، اللهم اجعله حجّةً لنا لا علينا ، اللهم اجعله لنا في الدنيا إماماً ، وفي القبر مؤنساً ، ويوم القيمة شفيعاً ، وعلى الصراط نوراً ، ومن النار سترًا وحجاباً .. اللهم يا ربنا ربنا بالقرآن وللقرآن وعلى القرآن .. اللهم لا تحرمنا نعمة القرآن .. آمين ..

نعم - والله - : القرآن نعمة . **وتأمل ماذا يقول من ذاق نعمة**

القرآن .. إنه رجل ربَّاه القرآن وسرى بألفاظه ومعانيه في دمه .

«الحياة في ظلال القرآن نعمة» ، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها ، نعمة ترفع العمر وتباركه وتُزكيه ، والحمد لله لقد مَنَّ على بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، دُقْتُ فيها من نعمته ما لم أذق قطُّ في حياتي .. عِشتُ أتملاً في ظلال القرآن ذلك التصور الكامل الشامل الرفيع النظيف للوجود ، لغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني .. وعِشتُ في ظلال القرآن أحسُّ التناسق الجميل بين حركة الإنسان كما يريدها الله وحركة هذا الكون الذي أبدعه الله .. وعِشتُ في ظلال القرآن أرى الوجود أكبر بكثير من ظاهره المشهود ، أكبر في حقيقته وأكبر في تعدد جوانبه ، إنه عالم الغيب والشهادة لا عالم الشهادة وحده ، وإنه الدنيا والآخرة لا هذه

الدنيا وحدها .. عشتُ في ظلال القرآن أرى الإنسان أكرم بكثير من كل تقديرٍ عرفته البشرية من قبل لليسان ومن بعد ، إنه إنسانٌ بِنَفْخَةٍ من أمر الله .. وهو بهذه النَّفْخَةِ مُسْتَخْلِفٌ في الأرض .. وفي ظلال القرآن تعلَّمْتُ أنه لا مكان في هذا الوجود للصادفة العميماء ولا للفلتة العارضة ؛

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِهَدَى﴾ [القمر: ٤٩].

ومن ثم عشتُ - في ظلال القرآن - هاديَ النَّفْسِ ، مطمئنَ السَّرِيرَةِ ، قريرَ الضميرِ .. عشتُ أرى قضاءَ اللهِ وقدرهِ ، أمرَهُ ومشيئته في كل حادثٍ ، وفي كلِّ أمرٍ . عشتُ في كفِ اللهِ وفي رعايته . عشتُ أستشعرُ إيجابيةَ صِفاتِه - تعالى - وفاعليتها .. ﴿أَمَّنْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] .. ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوَّقَ عِبَادَهُ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ﴾ [الأنعام: ١٨] .. ﴿وَاللَّهُ عَالِيٌّ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] .. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءَ وَقَبِيلِهِ﴾ [الأفال: ٢٤] .. ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] .. ﴿وَمَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ بَغْرَاجًا﴾ [الطلاق: ٢] .. ﴿مَا مِنْ دَآبَةٍ إِلَّا هُوَ عَالِدٌ بِنَاصِيَّهَا﴾ [هود: ٥٦] .. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافِ عَبْدٍ وَيَنْحُقُونَا بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] .. ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨] .. ﴿وَمَنْ يُضْعِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]^(١).

ذلك ما أحَسَّ وهو يقرأ القرآن ويعيشُ معه ، مما التبيحةُ والمحظياتُ من هذه المعايشة الطويلة؟ .. يقول رَحْمَةُ اللَّهِ : « وانتهيتُ من فترَةِ الحياةِ في

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب - رحمه الله تعالى - ، المقدمة (١١ / ١١ - ١٣) بتصرف .

أصول الوصول إلى الله تعالى

ظلال القرآن إلى يقينِ جازم حاسم : أنه لا صلاح لهذه الأرض ، ولا راحة لهذه البشرية ، ولا طمأنينة لهذا الإنسان ، ولا رفعة ولا بركة ولا طهارة ولا تناست مع سُنن الكون وفطرة الحياة إلا بالرجوع إلى الله . والرجوع إلى الله - كما يتجلّى في ظلال القرآن - له صُورةٌ واحدةٌ وطريقٌ واحدٌ ، واحد لا سواه . إنه العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي رسّمه للبشرية في كتابه الكريم ، إنه تحكيمُ هذا الكتابِ وحده في حياتها ، والتحاكم إليه وحده في شؤونها ؛ وإلا فهو الفسادُ في الأرضِ ، والشقاوة للناس والارتكاس في الحمّاءِ الجاهلية التي تعبدُ الهوى من دون الله ﴿فَإِنَّ لَهُ مَا يَسْتَحِيْبُوا لَكَ فَأَعْلَمُ أَنَّمَا يَتَّعَوْنَ أَهْوَاهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ مَنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْكَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

إنَّ الاحتكامَ إلى منهج الله في كتابه ليس نافلةً ولا تطوعًا ولا موضع اختيار ، وإنما هو الإيمان أو فلا إيمان .. والأمر إذاً جدًّ .. إنه أمرٌ عقيدةٌ من أساسها ، ثم هو أمر سعادة هذه البشرية أو شقايتها . إن هذه البشرية وهي من صُنع الله لا تُفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صُنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواءِ الذي يخرجُ من عنده - سبحانه - ، وقد جعل في منهجه وحده مفاتيح كل مُغلقٍ وشفاءً كل داء ؛ ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] .. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] .

لقد تسلّم الإسلامُ القيادةَ بهذا القرآن وبالتصور الجديد الذي جاء به من القرآن ، وبالشريعة المستمدَّة من هذا التصور .. فكان ذلك مولداً

جديداً للإنسان ، أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به نشأته . لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم ، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً كان يعز على خيالها تصوّره مجرّد تصوّر قبل أن يُنشئه لها القرآن إنشاءً .. نعم لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال والعظمة والارتفاع والبساطة واليسر والواقعية والإيجابية والتوازن والتناسق .. بحيث لا يخطر للبشرية على بال ، لو لا أنَ الله أراده لها وحققه في حياتها .. في ظلال القرآن ، ومنهج القرآن ، وشريعة القرآن»^(١) .

لذلك نصيحتي لكم دائمًا : ربوا أولادكم على القرآن ، دعوهם للقرآن يربّيهم .. ربوا معهم على مائدة القرآن .. فالقرآن القرآن .. القرآن أصل .. ومن سلك طريق القرآن فقد بلغ مراد الله منه .

قال - تعالى - : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] . قال العلماء : حبل الله : القرآن .. فاجعل القرآن معك وكن مع القرآن .. لا تنسه أبداً؛ فإنه القائد والحادي والسائق إلى الله .. اللهم اجعلنا وأهلينا وذرّياتنا من أهل القرآن أهلك وخاصتك^(٢) .

* * *

(١) في ظلال القرآن ، المقدمة (١٥ / ١٦) بتصرف .

(٢) لنا محاضرة في شريطين بعنوان «القرآن يصنعك» استمع إليها تُفند بإذن الله .

الأصل الحادي عشر

لا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل

عندنا في مصر تجد الميكانيكي طوال الأسبوع بملبس العمل المُزَيّت ، تراه وهو لابس «العفريتية» الزرقاء ، ويداه مُزيّته ووجهه فيه الشّحْم ، ويوم الأحد لا تعرفه! .. فتراه قد رجَّل شعره ووضع عليه الفزلين والكريمات ، ولبس البدلة ووضع المنديل الأحمر والأزرّة الألمااظ ، وارتدى النّظارة الشمسية ، وخرج في أحسن صورة ، وهو يقول : وقت الشُّغُل شُغل ، أما آخر الأسبوع فتنزه وفسح وترويح .. هذا الأُسطُرِي لو جاء الورشة يوم الاثنين بهذا اللبس ماذا يقول له صاحب الورشة؟ ، سيقول له : ارجع ، فليس هذا شكل من يريد أن يشتغل! .. هذا ما أقصده بقول : لا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل .. فبعضنا يريد أن يعيش الجنة في الدنيا مثل هذا الرّجل .

إنَّ بعضنا يريد أن يلتزم بالدين وفي نفس الوقت يريد شقةً واسعة ، ومحمولاً وسيارةً مكيفة ، وعروسًا عينها زرقاء وشعرها أصفر وطويلة وعريضة ومطيبة وطالبة علم ، وعشرة أولاد صبيان ، وبناتاً تدلّله ، وخداماً وخدامة .. لا .. الدنيا دارُ ابتلاء؛ ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا إِلَّا نَسَنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤] ، ﴿أَلَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوْكُمْ أَيْكُمْ أَحَسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] .

المؤمن في هذه الدنيا في الشغل .. ومتى الفراغ؟ .. الفراغ في الجنة .. فحينما تدخل الجنة افعل ما شئت ..

الدنيا دار عمل ، فلا تلبس ثياب الفراغ أثناء العمل ، فلست في فسحة من أمرك ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ : «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١) .. الدنيا سجن المؤمن ، والسجن له ظروفه .. السجن له ملابسه وأكله وشربه ، وله أحكماته ومواعيده ، وله ضوابطه .. الدنيا سجن ؛ فلا تحاول في السجن أن تعيش الجنة .

السجن له مواعيده .. مواعيد الفسح .. هناك مواعيد للصلوة لا يصح النوم فيها ولا الشغل أثناءها .. هذا هو سجن الدنيا .. لابد أن تقطع هكذا .. لكن الذي يريد أن يعيشها على أنها الجنة ؛ فيأكل على مزاجه ويشرب على مزاجه ويمشي على مزاجه وينام على مزاجه ، ويفعل ما يريد وما يشتهي ؛ سيضل الطريق لا محالة .

لابد أن تعيش الدنيا كما يريد الله لا كما تريدها أنت .. فأنت الآن في سجن التكاليف الشرعية .. وإن كنت مكتفياً بهذه التكاليف النبيلة ، فهناك أنس غيرك مكتفون أيضاً بالعادات والتقاليد ؛ لكن ليس لهم أجر ولهم أنت أجر .. فلو كنت تمرض فالكافر يمرضون ، ولو كنت تتعب فالمنافقون يتبعون .. إذا كنت تؤذى في سبيل الله ؛ فهناك من يؤذون من أجل مناهج باطلة بل وكفرية .. ﴿إِن تَكُونُوا تَّالِمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَّالَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] ؛ أنت ترجو بالذي

(١) أخرجه : مسلم (٢٩٥٦) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

- تعلمُه أجرًا هم لا يرجونه .. وهذا هو عزاؤك .. أنَّ اللَّهَ - تعالى - سيعطيك .. فضع نفسك في سجن التكاليف الشرعية ليكون الخروج على باب الجنة .

ولذلك لم يقلِ اللَّهُ للمؤمنين بعد عزوة أحد : كفاكم ما حدث واقعدوا في بيوتكم .. لا .. بل قال - سبحانه وتعاليٰ - : ﴿وَلَا تَهْمُوا فِي أَبْغَاءِ﴾ .. خلُقُهم وإياكم أن ترکوهم .. نعم : شُغل مستمرٌ ، وعملٌ متواصل ، وجُهدٌ غير مُنقطع .

ومع ذلك تجِدُ بعض الناس يريدُ أن يتناولَ كلَ الشهوات ، وأن يعيشَ دومًا في عافية .. يا أخي ، إنَّ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ أُوذى وطُرد وشُتمَّ بل وُتُفْلَى في وجهه الشريف .. اضطُهدَ أعزُّ وأطهُرُ مخلوقٍ على ظهرِ الأرض .. ﷺ .. شتموه ووضعوا الترابَ على رأسِه .. خنقُوه بشوبيه ورموا الحجَرَ عليه .. وحُفرَ له حُفرة في غزوة أحد ليقع فيها .. فوقع وَجْحِشَتْ ساقاه .. ودخلت حلقات المغفر في وَجْنتيه .. شَقُوا رأسه وأَدْمَوا وَجْهَهُ وضربوا كَتَنه .. ورموا بالسهام .. وفي الطَّائف رَمْوه بالحجارة حتى جُرَحَ كُلُّ جسده - فِدَاهُ أبي وأمي ونفسي ﷺ .. وقع من على الفرس فجُحِشَ جنبُه الشريف .. مَرِضَ بالحُمَّى حتى لم يُطْقِ حُمَّاه أحد .. عاش غريباً .. مُطَارِداً من كُفَّارٍ يريدون قتله .. فِدَاهُ أبي وأمي ونفسي رسولُ اللَّهِ .

من يوم أن نُوديَ ﷺ بـ ﴿يَأَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ قُرْ قَلَنْدِر﴾ [المدثر: ٢-١] ؛ قام ولم يرقُدْ أو يركد بعدها لحظة .. ذهبَ زمانُ النوم يا خديجة .

إخواته ، إنَّ المُتَفَقَّهَ في سِيرَةِ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ﷺ لا يجُدُ لحظةً استرخَ فيها ؛ فَأَيَامُهُ كُلُّهَا جِهَادٌ وَتَعْبٌ وَمَشَقَّةٌ .. وَإِنَّ الْعَيْنَ لَتَذَرِّفُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً بِهِ .. مَشَى كثِيرًا وَجَرِيَ كثِيرًا .. جَاءَ شُهُورًا .. وَكَانَ يَأْكُلُ الدَّقَلَ (أَرْدَأَ التَّمَرِ) وَرَبِّما لَا يَجِدُه .. سَهْرَ السَّنِينَ الطَّوِيلَةِ .. وَنَامَ عَلَى الْحَصِيرِ .. وَلَمْ يَلْبِسْ الْدِيَاجَ أوَ الْحَرِيرَ .. عَاشَ هَذِهِ الدُّنْيَا فِي كَدْ وَنَصَبٍ؛ لِيُقِيمَ الْحَقَّ وَيُبَلِّغَ دُعَوَةَ رَبِّهِ .

بِأَبِيِّهِ وَأَمِيِّهِ وَنَفْسِيِّهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .. أُرْسِلَ بِالْمَدَّثِرِ فَقَامَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ؛ فَلَمْ يَهْدَأْ حَتَّى جَاءَهُ نَصْرُ اللَّهِ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا .
هَكَذَا عَاشَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتُرِيدُ أَنْتَ أَنْ تَعِيشَهَا نَظِيفَةً حُلْوَةً! ..
تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَهَا مُمْتَعًا مُعَافِيًّا! .. تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَهَا فِي رَاحَةٍ وَآمَانٍ! ..
لَا يَأْخُذُهَا .. هَذِهِ دُنْيَا .. الْأَصْلُ فِيهَا الْمَشَاكِلُ وَالْأَحْزَانُ؛ وَإِلَّا لَمَّا كَانَ
هُنَاكَ اشْتِيَاقٌ لِلآخِرَةِ .. الدُّنْيَا - يَا أَخِي - لِلْعَمَلِ وَالتَّعَبِ وَالْجِدْ
وَالاجْتِهَادِ؛ فَلَا تَلْبِسْ ثيابَ الفراغِ أثناءَ العملِ .

الدُّنْيَا شُغْلٌ .. شُغْلٌ لِلآخِرَةِ؛ فَالْزَّمِ الشُّغْلَ حَتَّى تَمَرَّ هَذِهِ الدَّارِ
بِسَلامٍ .. إِنَّمَا أَرَدْتُ زَوْجَةً فَلَتَكُنْ مَا تَكُونُ .. قَصِيرَةً أَوْ نَحِيفَةً أَوْ ..
أَوْ .. الْمَهْمَمُ أَنْ تَكُونَ صَاحِبَةً دِينٍ وَ «بَنْتُ أَصْوَلٍ» .. وَلَا تَتَنَازَّلَ عَنِ
هَذِينَ الشَّرْطَيْنِ أَبَدًا .. وَارْضَ بِهَا مَهْمَمًا كَانَتْ صِفَاتُهَا ، وَاتَّخِذْهَا بُلْغَةً إِلَى
الْجَنَّةِ .. وَفِي الْجَنَّةِ سِيَصْنَعُهَا اللَّهُ لَكَ مِنْ جَدِيدٍ ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُ إِنْشَاءً﴾
﴿فَعَلَّمَنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ ﴿عُرُبًا أَتَرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٧-٣٥] ؛ بَلْ وَيَزِيدُ لَكَ سَبْعِينَ حُورِيَّةً
مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ .. الْأَزْمُ الشُّغْلُ وَلَا تَحْزُنْ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا تَفْكُرْ

أصول الوصول إلى الله تعالى

فيها ، فإن جاءتك أو لمَّحْتَ إليك ، فسخرُها في خدمةِ ما أنتَ فيه من عمل الآخرة ؛ وإلا فاطرِها جانبًا وامض في طريقك إلى الله .

إخواته ، إنَّ الذي يسير على هذا النهج هو رَجُلُ الآخرةِ الذي يريد الوصول ؛ فلا يخلُع ثياب العمل حتى يلقى الله ، أمَّا الذي يريد أن يلبس ثياب الفراغ أثناء العمل فيشغل قلبه بالزوجة والمال والأولاد فهو رَجُلُ الدنيا يعيش لها ؛ ولذا لن يصل إلى الله مطلقاً حتى يخلع ثياب الفراغ ، ويلبس دائمًا ثياب العمل للآخرة .

فوظف - أخي في الله - كلَّ أركان حياتك في العمل للآخرة ، وواصل الشغل ليلاً نهار .. فأنت في مقام مُستعبد ، ولا يصح للأجير أن يلبس ثياب الراحة في زمان الاستئجار ، وكل زمان المُتّقي نهار صوم .. فواصل السير ولا تنقطع .

* * *

الأصل الثاني عشر

في الطريق موافق للتمييز

السائلُ إِلَى اللَّهِ أَوْ عَمُومُ مَنْ يَعِيشُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا بُدَّ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِمَوَاقِفٍ . . فَهَذِهِ الْحَيَاةُ أَمْوَاجٌ تَرَادُفُ يَرْكُبُ الْإِنْسَانُ فِيهَا طَبْقًا عَنْ طَبْقٍ . . هَذِهِ الْمَوَاقِفُ لِلتَّمَحِيصِ .

قال - سبحانه - : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنُنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾٢٣٧﴿ هَذِهَا بِيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوَاعِظٌ لِلْمُتَّقِينَ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَخْرُنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾٢٣٨﴿ إِنْ يَمْسِكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شَهَادَةً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾٢٣٩﴿ وَلِيُمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفَّارِينَ ﴾٢٤٠﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَكُدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧-١٤٢] .

تَدْلُكَ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - سبحانه وَتَعَالَى - يَقْلِبُ الْأَيَّامَ عَلَى النَّاسِ لِيَتَبَيَّنَ أَحْوَالَهُمْ ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ عِلْمَ ظُهُورٍ وَإِقَامَةٍ حُجَّةٍ عَلَى الْعِبَادِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْجَنَّةَ مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا . . فَالسَّائِرُونَ إِلَى اللَّهِ صَفْوَةٌ؛ وَلَكِنْ ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ أَمْوَانِيْنَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْحَيْثَ مِنَ الْطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعُكُمْ عَلَى الْعَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَلَا يُنَزِّلُنَا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَرِسُولِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩] .

أصول الوصول إلى الله تعالى

أيتها الإخوة ، التمييزُ بين النعمة والنّقمة والفتنة ، وبين الميّنة والحجّة ، وبين العطية والبليّة ، وبين المحنّة والميحة أمرٌ مهمٌ للسائر في الطريق إلى الله . ففي طريق الوصول إلى الله لا بد أن تكون صاحب تمييزٍ بين النعمة والفتنة .. فقد يصيب رجلين شيءٌ واحدٌ ، ويكون بالنسبة لأحدِهما نعمة وللآخر فتنة .. قد يكون الشيء الواحد لرجل بليّةً وللآخر عطيةً .

يقول ربك : ﴿أَوْ كَصَّبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩] .. صَبَّ «ماء» يُحيي الله به الأرض؛ ولكن في نفس الوقت فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ .. ﴿يَجْعَلُونَ أَصَدِيعَهُمْ فِي مَاذَا هُم مِنَ الظَّوَاعِنِ حَذَرَ الْمَوْتَ﴾ [البقرة: ١٩] .

يقول العلماء : هذا هو المثل المائي الذي ضربه الله ﷺ للقرآن ، أنه صَبَّ وهو للمؤمنين ؛ قال - تعالى - : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] .

في قصة كعب بن مالك لما جاءه كتابٌ من ملك غسان يقول له : «بلغنا أنَّ صاحبَك قد قلَّاكَ ، ولم يجعلك الله بدارٍ مهانةً ، فالحقُّ بنُواسك» ؟ لم يقل - أي كعب - : جاء الغيث .. ولكنه التمييز .. قال : «وهذا من البلاء ، فتيممت التّنور فسجّرْتُه» .

نعم : فقد يُرزق العبد مالاً ويُظن أنه نعمة ويكون هذا المال بالنسبة له فتنة .. قد يُرزق عملاً وهذا العمل من وجهة نظر الناس جميعاً كرم ، وهو في حقه بلاء .. قد يحفظ القرآن ويكون عليه حجة .. نعم : القرآن حجة لك أو عليك .

قال العلماء : «إذا رأيت أنَّ الله يعطي العبد على معااصيه؛ فاعلم أنه

استدرج» . . تعصي ويُكرِّمك ، وتعصي ويَزِيدُك ، وتعصي ويُبارك لك . .
إذا سَيَنْتَقِمُ منك . . لا تطمن؛ فهو - سبحانه - يَجْرُوك لِيَنْتَقِمَ منك ؛ قال - تعالى - :
﴿سَنَسْتَرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَمْلَى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤-٤٥].

يقول صاحب الظلال في هاتين الآيتين : « وإن شأن المُكذبين وأهل الأرض أجمعين لأهون وأصغر من أن يُدبر الله لهم هذه التدابير . . ولكنه - سبحانه - يُحذِّرهم نفسه ليُدرِّكوا أنفسهم قبل فوات الأوان . ولعلهموا أن الأمان الظاهر الذي يدعوه لهم هو الفخ الذي يقعون فيه وهم مغوروون . وأن إمهالهم على الظلم والبغى والإعراض والضلال هو استدرج لهم إلى أسوأ مصير . وأنه تدبِّر من الله ليحملوا أوزارهم كاملة ، ويأتوا إلى الموقف مُثقلين بالذنب ، مُستحقين للخزي والرَّهق والتعذيب . .

وليس أكبر من التحذير ، وكشف الاستدرج والتدبير ، عدلاً ولا رحمة . والله - سبحانه - يقدِّم لأعدائه وأعداء دينه ورسوله عدله ورحمته في هذا التحذير وذلك النذير . وهم بعد ذلك وما يختارون لأنفسهم ، فقد كُشِّفَ القيَّاعَ وَوَضَّحتَ الأمور !

إنه - سبحانه - يُمهِلُ ولا يُهملُ . و يُملي للظلم حتى إذا أخذه لم يُفْلِه . وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سننه التي قدَّرها بمشيئته . ويقول لرسوله ﷺ : ﴿فَدَرَنِي وَمَنْ يَكْذِبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤] ، وخل بيني وبين المعترِّين بالمال والبنين والجاه والسلطان ، فساملي لهم ، وأجعل هذه النعمة فَخَّهم ! فُيظْمِئُنْ رسوله ، ويُحذِّرُ أعداؤه . ثم يَدْعُهم لذلك التهديد الرعيب !»^(١).

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٦٦٩ - ٣٦٦٨).

أصول الوصول إلى الله تعالى

فلا تفرح - أخي في الله - بالكرم بعد المعصية ، وكن مميزاً بين العطية والبليه وبين النعمة والنقمه ؛ ولذا قال ﷺ : ﴿لَكُلَا لَمْ يَنْهَاكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا أَتَدْعُكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

تقول زوجة سعيد بن عامر الجمحي : استيقظت يوماً على صوته وهو يقول : أعود بالله منك ، أعود بالله منك ، أعود بالله منك ، فقمت فوجدت بين يديه سرّة مالٍ وهو يدفعها بيده لأنها عقربٌ ، قلت : ما لك ، قال : «دخلت على الدنيا لتفسّد على ديني» .

نعم - إخواته - : لابد أن يكون لديك بصيرة وتمييز بين ما ينفعك وما يضرك في آخرتك . فإذا أعطاك الله نعمة واستعملتها في طاعته كانت نعمة ، وإذا استعملتها في المعصية كانت محنّة وفتنة .. أعطاك الله مالاً : هل هذا المال زادك قرباً أم أبعداً؟! .. أعطاك زوجة أعانتك على طاعته ، فهذه الزوجة نعمة ، ولو شغلتك عن الله كانت فتنه ..

فانظر كل لحظة في حياتك لترى النعم التي وهبها الله لك : هل تقرّبك منه أن تبعنك عنه؟ .. هل هي نعم أم فتن؟ .. هل توافقك بين يدي الله أم تشعلك عنه؟ .. تزيدك إيماناً أم تقسي قلبك؟ .. تزيدك شكرًا أم طمعًا؟!

قف مع نعم الله لتعلم أين قدمك .. لتعلم أين أنت .. في طريق الوصول أم تائه في طرق أخرى؟ .. فرق بين النعمة والنقمه .. وبين المحنّة والميحة .. وبين البليه والعطية .. وبين الحجّة والمته .. مميز لتعرف أين الفتنة لتجتنبها فتصل إلى الله بسلام .

* * *

الأصل الثالث عشر

الاعتصام بالله عقيدة وعمل ودعا

قال - تعالى - : ﴿ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧]. إذا فالإنسان يحتاج مولى ونصيرا ، وليس لك من دون الله ولبي ولا نصير؟ فلذلك إذا أردت الوالى والنصير فاعتصم بالله؛ قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ ﴾ [آل عمران: ١٠١] .. ولكن كيف نعتصم بالله؟

امرأة العزيز قالت : ﴿ وَلَقَدْ رَوَدْنَاهُ عَنْ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمُ ﴾ [يوسف: ٣٢] . . .
كيف استعصم؟ .. أولاً : عقيدة : قال : «مَعَاذُ اللَّهِ» .. أَعُوذُ بِاللَّهِ،
أَتَجِئُ إِلَى اللَّهِ وَأَحْتَمِي بِهِ وَحْدَه .. وَلَمْ يَقُلْ لَهَا : هَلْ أَصَابَكِ الْجُنُونُ؟! ..
وَلَمْ يَقُلْ أَيْضًا : أَلَا تَعْرِفِينَ مَنْ أَنَا؟! ، أَنَا يُوسُفُ بْنُ يَعقوبِ ابْنِ إِسْحَاقَ
ابْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .. أَنَا ابْنُ هُؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ .. لَمْ يَقُلْ لَهَا : اذْهَبِي لِحَالِكِ
يَا بُنْيَةَ هَدَاكِ اللَّهِ .. لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ؛ وَإِنَّمَا قَالَ : مَعَاذُ اللَّهِ . عقيدة أنَّ الذي
يُنْجِينِي هُوَ اللَّهُ .

وأيضاً لما فشلت امرأة العزيز وسمعت النسوة يتكلمن؛ قالت في نفسها : آتني بهن إلينه أم آتني به إلينهن؟ .. الأمران .. أنت بهن وأقعدتهن وأخرجتهن .. خرج ولم يكن أمامه كيد امرأة بل كيد نساء؛ فقال في التو : ﴿ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف: ٣٣] .. يا رب ،

أصول الوصول إلى الله تعالى

السجن أحبُ إلَيَّ من حَرِيرٍ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ . . سُبْحَانَ اللَّهِ! . . تَسْمُ رائحةُ الصدقِ مِنَ الْكَلَامِ .

بِاللَّهِ عَلَيْكَ - أَخِيَّ - هَلْ تَجِدُ فِي نَفْسِكَ هَذِهِ النَّقْطَةِ؟ . . إِنَّا - وَلِلأَسْفِ - نُضَحِّكُ مِنْ أَنفُسِنَا . . نَهْرَجُ وَنَلْعَبُ فِي دِينِ اللَّهِ . . هَلْ فَعَلَّا السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ دُعَوَةِ الْفَاتِنَاتِ أَوْ الْغَانِيَاتِ الْفَاجِرَاتِ؟ . . قَالَ يُوسُفُ : يَا رَبُّ ، عَذَابُ السَّجْنِ أَحْسَنُ عَنِّي مِنْ قُصُورِ الْعَزِيزِ . . عَذَابُ مِنْ أَجْلِكَ يَا رَبُّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَنَا مِنْ أَنَا لَكَ عَاصِ . . هَذَا هُوَ الاعتصامُ؛ فَكُنْ عَلَى عِقِيدَةٍ صَادِقَةٍ بِاللَّهِ لِتَعْتَصِمَ بِهَا وَقْتُ الشَّدَائِدِ .

يَقُولُ رَبِّي فِي يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشْدَدَهُ، أَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجَّرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُفُ : ٢٢].

«فَقَدْ أُوتِيَ صِحَّةُ الْحُكْمِ عَلَى الْأُمُورِ ، وَأُوتِيَ عِلْمًا بِمَصَائِرِ الْأَحَادِيثِ أَوْ بِتَأْوِيلِ الرُّؤْيَا ، أَوْ بِمَا هُوَ أَعْمَ ، مِنَ الْعِلْمِ بِالْحَيَاةِ وَأَحْوَالِهَا ؛ فَاللَّفْظُ عَامٌ وَيُشْمَلُ الْكَثِيرَ . وَكَانَ ذَلِكَ جَزَاءُ إِحْسَانِهِ . إِحْسَانُهُ فِي الْإِعْتِقَادِ وَإِحْسَانُهُ فِي السُّلُوكِ : ﴿وَكَذَلِكَ نَجَّرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ . . وَعِنْدِهِ تَجْيِيئُ الْمِحْنَةِ الثَّانِيَةِ فِي حَيَاتِهِ ، وَهِيَ أَشَدُّ وَأَعْمَقُ مِنَ الْمِحْنَةِ الْأُولَى . تَجْيِيئُهُ وَقَدْ أُوتِيَ صِحَّةُ الْحُكْمِ وَأُوتِيَ الْعِلْمَ - رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ - لِيَوَاجِهَهَا وَيَنْجُو مِنْهَا جَزَاءُ إِحْسَانِهِ الَّذِي سَجَّلَهُ اللَّهُ فِي قُرْآنِهِ .

وَالآن نَشَهُدُ ذَلِكَ الْمَشَهَدَ الْعَاصِفَ الْخَطِيرَ الْمُثِيرَ كَمَا يَرْسِمُهُ التَّعْبِيرُ :

﴿وَرَدَدْتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَقَّتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيَّا لَكَ قَالَ مَعَادَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّ أَحْسَنَ مَوَابَيْ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يُوسُفُ : ٢٣] . .

وإذن فقد كانت المُراودة في هذه المرة مكشوفةً ، وكانت الدّعوة فيها سافِرَةً إلى الفعل الأخير .. وحركة تغليق الأبواب لا تكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعه الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣] .

هذه الدعوة السافرة الظاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة ، وقد لا تكون أبداً إذا لم تضطر إليها المرأة اضطراراً . والفتى يعيش معها وقوتها وفتوتها تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتتضيّح ، فلابد كانت هناك إغراءاتٌ شتى حقيقةً لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّمَا رَفِيقُ أَحْسَنِ مَثَوَىٰ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ ..

«معاذ الله» ..

أعيده نفسي بالله أن أفعل ؛ ﴿إِنَّمَا رَفِيقُ أَحْسَنِ مَثَوَىٰ﴾ .. وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .

﴿إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ .. الذين يتتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ما تدعيني اللحظة إليه﴾^(١) .. عقيدة .. عقيدة في الله اعتصم بها يوسف فنجاه الله من الفتنة .

(١) في ظلال القرآن (٤/١٩٧٩) بتصريف .

ويقول شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في المفاسد العاجلة والأجلة لِعُشْقِ الصُّورِ :

«والله - سبحانه وتعالى - إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس؛ وهم قوم لوط والنساء؛ فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته به، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصره وعيقته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه، فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هنا في غاية القوة؛ **وذلك لوجهه** :

أحدها : ما رَكَبَ الله - سبحانه - في طبع الرجل من ميله إلى المرأة، كما يميل العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، حتى إن كثيراً من الناس يصبر على الطعام والشراب ولا يصبر على النساء، وهذا لا يُدْمِع إذا صادف حلالاً.

الثاني : أن يوسف عليه السلام كان شاباً، وشهوة الشباب وحده أقوى.

الثالث : أنه كان عزباً لا زوجة له ولا سريرة تكسر حدة الشهوة.

الرابع : أنه كان في بلاد غربة لا يتأتى للغريب فيها قضاء الوطر، ما يتأتى لغيره في وطنه وأهله ومعارفه.

الخامس : أن المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إن كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها.

السادس : أنها غير آبية ولا ممتنعة؛ فإن كثيراً من الناس يُزيل رغبتها في

المرأة إباوتها وامتناعها ، لما يجد في نفسه من ذُلّ النفس والخُضوع والسؤال لها .

السابع : أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد ، فكفتْه مَؤْونَة الطلب وذُلّ الرَّغبة إليها ، بل كانت هي الراِغبة الذَّليلة وهو العزيز المرغوب إليه .

الثامن : أنه في دارِها وتحت سُلطانِها وقهْرِها ، بحيث يَخْشى إن لم يُطَاوِعْها من أذاها له ، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة .

التاسع : أنه لا يَخْشى أن تَنْمَ عليه هي ولا أحد من جهتها؛ فها هي الطالبة والراغبة ، وقد غلَّقت الأبواب وغيَّرت الرُّقباء .

العاشر : أنه كان مَمْلوِكًا لها في الدار؛ بحيث يَدْخُلُ ويَخْرُجُ ويَحْضُرُ معها ، ولا يُنْكِرُ عليه ، وكان الأمْن سابقًا على الطلب ، وهو أقوى الدواعي .

الحادي عشر : أنها استعانت عليه بائِمَّةِ المَكْرِ والاحْتِيَالِ ، فَأَرْتُهُ إِيَاهُنَّ وشَكَتْ حالها إِلَيْهِنَّ؛ لتسْتَعينَ بِهِنَّ عَلَيْهِ ، فاستعان هو بِالله عَلَيْهِنَّ؛ فقال : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبِرْ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

الثاني عشر : أنها تَوَعَّدَتْ بالسَّجْنِ والصَّغَارِ ، وهذا نوع إِكْرَاهٍ؛ إذ هو تهديدٌ من يَغْلِبُ على الظن وقوع ما هَدَّدَ به ، فيجتمع داعي الشهوة ، وداعي حبِّ السَّلامة من ضيق السجن والصغار .

الثالث عشر : أن الزوج لم يُظْهِرْ من الغَيْرَةِ والنَّخْوَةِ ما يُفَرِّقُ به بينهما ، وَيُبَعِّدُ كُلَّاً مِنْهُما عن صاحبه .

أصول الوصول إلى الله تعالى

ومع هذه الدواعي كلّها فقد آثر مرضاه اللّه وخوفه ، وحمله حبّه للّه على أن يختار السجن على الزنا ؛ فقال : ﴿رَتِ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣] ، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه ، وأن ربّه - تعالى - إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا إليهن بطبعه ، وكان من الجاهلين ، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه^(١) .

ثم إن الاعتصام لن يكون إلا إذا كان هناك عملٌ ودعاء .. فمثلاً : الآخر الذي أقول له تبّ ، فيقول : ادع لي يا «عم الشيخ» ؛ أقول له : يا بني ، «تبّ» هذه تحتاج إلى عملٍ وشغل ، وأن تدعوا أنت لنفسك أولاً ، ثم أدعوك بعد ذلك .. يوسف عليه السلام كان محسناً .. محسناً في الاعتقاد ومحسناً في السلوك ؛ وفوق ذلك دعا بالعصمة ؛ فكانت النجاة .. نجا لأنّه في الأصل أحسن العمل .

نعم : كان يوسف محسناً مع ربّه وأيضاً مع الناس ، وقد سمي الله قصته ﴿أَحَسَنَ الْفَاصِص﴾ [يوسف: ٣] ، ووصفه السجناء بالإحسان فقالوا : ﴿نَيْشَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين﴾ [يوسف: ٣٦] .. وبالإحسان مكّنه اللّه - تعالى - في الأرض ؛ ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَاهُ لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين﴾ [يوسف: ٥٦] .. وقال له إخوه لهم لا يعرفونه : ﴿فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين﴾ [يوسف: ٧٨] .. ثم أثني على ربه بإحسانه إليه : ﴿وَقَدْ أَحَسَنَ بِإِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠] .

(١) الداء والدواء (١٨٥ - ١٨٧) باختصار .

الاعتصام بالله عقيدة وعمل ودعا

١٧٥

قال - تعالى - : ﴿وَلَقَدْ هَمَتْ يِهُ، وَهَمَ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَعَاهُ بُرْهَنَ رَبِّهِ
كَذِلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْسُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]
، وهؤلاء ليس للشيطان عليهم سلطان أبداً .. ومع كل ذلك فزع
يوسف إلى الله وقال : ﴿مَعَاذَ اللَّهُ إِنَّمَا رَفِيقُ أَحْسَنِ شَوَّافٍ إِنَّمَا لَا يُفْلِحُ
الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] . ولا بد أن نعلم أن طهارة يوسف عليه السلام كانت
أساس الاعتصام .. إذا فالاعتصام بالله لا بد أن يكون على عقيدة راسخة
بالله وعمل دائم له ، وسلوك قوي معه - سبحانه - ومع الناس .

نعم - إخواته - : الاعتصام عمل .. الاعتصام دعاء .. الاعتصام
عقيدة .

فاربط قلبك بالله وحده ، واصدق معه ، واعمل ما في وسعك ، وادع
بإخلاص ، يعصيكم الله فتهندي إلى طريق الوصول إليه .

قال ربك : ﴿وَمَنْ يَعْنَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] .

قال ابن كثير رحمه الله : «أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو
العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ،
و طريق السداد وحصول المراد»^(١) .

فاعتصم بالله يا طالب الوصول .

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٣٦٦/١) .

الأصل الرابع عشر

من استطال الطريق ضعف مشيه

الطريق إلى الله طويلة جداً، بعيدة جداً؛ ولذا تحتاج إلى همة وعمل دائم وعدم التفات لكي تقطعها وتصل سلام؛ وإنما فلو ظلت تقول: الطريق طويلة وبعيدة وأنت مكانك؛ فلن تصل.. فاستعن بالله واترك الشكوى.. اعمل واجتهد واتعب حتى الموت؛ قال - تعالى - : ﴿وَأَعْذُبُ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين﴾ [الحجر: ٩٩]؛ أي الموت.

وقال - تعالى - : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشرح: ٧]. قال ابن كثير:
 «وقال زيد بن أسلم والضحاك: فإذا فرغت أي من الجهاد، فانصب أي: في العبادة: ﴿وَإِلَيْ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨]. قال الثوري: اجعل نيتك ورغبتك إلى الله - عز وجل»^(١).

«إذا فرغت من شغلك مع الناس ومع الأرض، ومع شواغل الحياة.. إذا فرغت من هذا كله، فتوجه بقلبك كله إذن إلى ما يستحق أن تنصب فيه وتتكدّ وتتجهـ.. العبادة والتجدد والتطلع والتوجه.. ﴿وَإِلَيْ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾.. إلى ربك وحده خالياً من كل شيء حتى من أمر الناس الذين تستغل بدعوتهم.. إنه لابد من الزاد للطريق.. وهذا الزاد.. ولا بد

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٥٢٨).

من العدة للجهاد . وهنا العدة .. وهنا ستجد يسرا مع كل عسر ، وفرجا مع كل ضيق .. هذا هو الطريق !^(١) .

هذا هو الطريق إلى الله ، فجدا ولا تنم ؛ فرسول الله ﷺ لما قال له خديجة : ألا تنام يا رسول الله ؟ ! قال : « مضى عهد النوم يا خديجة » . وقال ﷺ لعائشة لما تعجبت من عبادته وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه : « أفلأ كون عبدا شكورا »^(٢) .

أخي في الله ، اثب في الطريق على الطاعة ولا تيأس من طول الطريق ، فما عليك إلا أن تجد السير وترسخ الخطأ ولا تلتفت وستصل بإذن الله .. صبر نفسك واصطبر ، واعلم أن الصبر على الطاعة هو الصبر الأعلى ، وأكمل الناس صبرا على الطاعة أولوا العزم من الرسل ؛ ولذا أمر رسوله ﷺ أن يصبر صبرهم ؛ فقال - تعالى - : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، ومعلوم أن الأمر للقدوة أمر لاتبعاه .. ونهاه أن يتشبه بصاحب الحوت ؛ حيث لم يصبر صبر أولي العزم ؛ فقال - تعالى - : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] .

ولقد جعل الله الوصول إليه والفوز بالجنة والنجاة من النار لا يحظى به إلا الصابرون ؛ فقال - تعالى - : ﴿إِنَّ جَزِيزَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَرَبُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١] .

(١) في ظلال القرآن (٣٩٣/٦) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٤٨٣٧) ، ومسلم (٢٨٢٠) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وفي الصحيح عن رسولنا ﷺ : «وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(١). وأخبر ﷺ أن الصبر ضياءً .

وقال علي بن أبي طالب : الصبر مطية لا تكتب .

وقال سليمان بن القاسم : كل عمل يُعرف ثوابه إلا الصبر؛ قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا يُؤْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] ، قال : كالماء المنهمر .

أخي في الله ، اصبر في السير إلى الله ولا تستطل الطريق ؛ فلقد صبر نوح فأوقف أنفاسه على الدعوة إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً .. لم يستطل الطريق ، بل ظل مع الله في أطول صبر عرفه تاريخ البشرية .. وأكرم صبر .

قال ابن كثير في قصص الأنبياء : «وكان كلما انفرضَ جيلٌ وصَوْا من بعدهم بعدم الإيمان به - أي بنوح - ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولدهُ وعقلَ عنه كلامَه؛ وصَاه فيما بينه وبينه ألا يؤمن بنوح .. أبداً ما عاش ودائماً ما يَقْيِ .» اهـ.

قال - تعالى - : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيَلَّا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدُهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ⑥ وَيَقِنَّ كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي إِذَا نِيمَ وَأَسْتَغْشَرُوا شِيَاهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبِرُوا أَسْتَكْبَارًا ⑦ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّي أَعَنَّتْ لَهُمْ وَأَسْرَرْتْ لَهُمْ إِسْرَارًا ⑨ فَقُلْتُ أُسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَارًا ⑩ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ

(١) متفق عليه : البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣) .

مَدْرَارًا ﴿١﴾ وَيُمِدِّدُكَ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَيَجْعَلَ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَرًا ﴿٢﴾ مَا لَكُمْ لَا تَجْوَنَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٣﴾ [نوح: ١٣-٥].

قال أبو القاسم الغرناطي في التسهيل لعلوم التنزيل : «ذكر أوّلاً أنه دعاهم بالليل والنهار ، ثم ذكر أنه دعاهم جهاراً ، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار ، وهذه غاية الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة» اه.

وقال القاسمي في محسن التأويل : «بذل نوح غاية الجهد دائمًا بلا فتورٍ ولا توانٍ ، وضاقت عليه الحيل في تلك المدد الطوال» اه.

ويقول أخي فضيلة الشيخ سيد بن حسين العفاني - حفظه الله تعالى - :

«كفاية نبيل طويل .. سلك نوح إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم شتى الأساليب ومتنوع الوسائل في دأب طويل ، وفي صبر جميل ، وجهد نبيل ، ألف سنة إلا خمسين عاماً .. ثم عاد إلى ربه يقدم حسابه ، ويبيث شکواه ، في هذا البيان المفصل وفي هذه اللهجة المؤثرة .

وصورة نوح في دعوته ، وهو لا يمل ولا يفترا ، ولا ييأس أيام الإعراض والإصرار ، صورة لإصرار الداعية على الدعوة ، وتحين كل فرصة ليبلغهم إياها ، وإصرارهم هم على الضلال .

ولم ينس نوح - عليه الصلاة والسلام - الدعوة حتى حين حضرته الوفاة ؛ فقد وصى ابنيه بـ «لا إله إلا الله» ونهاهما عن الشرك ، وأمرهما بسبحان الله وبحمده .

وإن الإنسان ليأخذه الدهش والعجب ، كما تغمّره الرّوعة والخشوع ، وهو يستعرض هذا الجهد الموصول من الرسل - عليهم صلوات الله

أصول الوصول إلى الله تعالى

وسلامه - لهداية البشرية الضالة المعاندة ، ويتذرّع إرادة الله المستقرة على إرسال هؤلاء الرسل ، واحداً بعد واحد ل بهذه البشرية المعرضة العنيدة .

وقد يَعِنْ لِلإِنْسَانِ أَنْ يَسْأَلُ : تُرى هل تساوي الحصيلة هذا الجهد الطويل ، وتلك التضحيات النبيلة ، من لدن نوح عليه السلام إلى محمد عليهما السلام ، ثم ما كان بينهما وما تلاهما من جهود المؤمنين بدعاة الله وتضحياتهم الصخام ، تُرى : هل تساوي هذا الجهد الذي وصفه نوح عليه السلام ، وقد استغرق عمراً طويلاً بالغ الطول ، لم يكتفي قومه فيه بالإعراض ، بل أتبعوه بالسخرية والاتهام ، وهو يتلقاها بالصبر والحسنى ، والأدب الجميل والبيان المنير؟!!

ثم تلك الجهود الموصولة منذ ذلك التاريخ ، وتلك التضحيات النبيلة التي لم تنتهي على مدار التاريخ من رسلي يستهزأ بهم ، أو يحرقون بالنار ، أو يُنشرون بالمنشار ، أو يهجرون الأهل والديار .. حتى تجاء الرسالة الأخيرة ، فيجدد فيها محمد عليهما السلام ذلك الجهد المشهود المعروف ، ثم تتواتي الجهود المضنية والتضحيات المذهلة من القائمين على دعوته في كل أرض وفي كل جيل؟؟..

تُرى تساوي الحصيلة كل هذه الجهود ، وكل هذا الجهاد الشاق المثير؟!

ثم تُرى هذه البشرية كلها تساوي تلك العناية الكريمة من الله ، المُتجلىة في استقرار إرادته - سبحانه - على إرسال الرسل تُرى ، بعد العناد والإعراض والإصرار والاستكبار من هذا الخلق الهزيل الصغير المُسمى بالإنسان؟! . **والجواب بعد التذير : أن نعم .. وبلا جدال !!**

إنَّ استقرار حقيقة الإيمان بالله في الأرض يساوي كل هذا الجهد ،

وكل هذا الصبر ، وكل هذه المشقة ، وكل هذه التضحيات النبيلة المطردة من الرسل وأتباعهم الصادقين في كل جيل !

فالدعوة إلى الله لابد أن تمضي في طريقها كما أراد الله؛ لأن الحصيلة تستحق الجهد المضني والتضحيات النبيلة ، ولو صغررت فانحصرت في قلب واحد ، يقرب من الله ويحبه ويشتاق إليه . قال عليهما السلام : « عرضت على الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد »^(١) اهـ^(٢) .

حبيبي في الله ، لا تستطع الطريق إلى الله؛ فمن استطال الطريق ضعف مشيه ؛ فواصل العمل .. واصل؛ فالله معك .. واعلم أن الشرط في السير أن تجهد وتتعب .. فواصل العمل ولا تقطع .. وتذكر دائمًا نوحًا عليهما السلام .. أخي في الله ، اعمل بلا انقطاع ، وعند الله المستراح .

إخواته ، زِنوا حلو المُشتهى بمر العقاب بين لكم التفاوت .. لما عرف القوم قدر الحياة ، أماتوا فيها الهوى فعاشوا ، جمعوا بأكف الجد من الزمن ما نشهده زمان البطالة .. هان عليهم طول الطريق لعلهم أين المقصد ، وحلت له مراتب البلى حباً لعواقب السلامة ، فيما بشر لهم يوم يقال : ﴿هَذَا يَوْمُكُم﴾ .

* * *

(١) متفق عليه : البخاري (٤٩٤٩) ، ومسلم (٢٦٤٦) .

(٢) صلاح الأمة في علو الهمة (٢٢ - ١٨) باختصار .

الأصل الخامس عشر

السر الدفين لعدم القبول وجود حظ للنفس في العمل

هل تُصلِّي لِلَّهِ أَمْ لِتَسْتَجِمْ؟! .. تَصُومُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُرِيحَ بَطْنَكَ ، أَمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَرْضِي اللَّهَ عَنْكَ؟! .. تُكْرِمُ النَّاسَ لِيَعْمَلُوكَ مُعَامَلَةً حَسَنَةً أَمْ تُكْرِمُهُمْ لِلَّهِ لَأَنَّكَ تُحِبُّهُ؟! .. أَعْفَيْتَ لِحِيَاتِكَ تَوْقِيرًا أَمْ لَأَنَّهَا سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ؟! .. تَدْفَعُ مَا عَلَيْكَ لِيَقُولَ عنْكَ النَّاسُ : مُحْتَرِمٌ أَمْ تُتَرْضِي رَبَّكَ؟! .. تَحْجُجُ وَتَعْتَمِرُ رِيَاءً وَفُسْحَةً وَتَغْيِيرَ جَوْ أَمْ لِتَسْتَغْفِرَ رَبَّكَ هَنَاكَ؟! ..

قال الحسن رضي الله عنه: رَحِيمُ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عَنْدَ هَمَّهُ ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ مَضِيًّا ، وَإِنْ كَانَ لِغَيْرِهِ : تَأْخِرُ .. اغْتَرَبَتْ عَنْ بَلْدِكَ ، وَهَاجَرَتْ إِلَى اللَّهِ لِمَاذَا؟ .. لِتَتَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَتَعْبُدَ اللَّهَ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لِمَاذَا؟ .. لِمَاذَا تَتَعَلَّمُ الْعِلْمَ؟! .. لِمَاذَا تَدْعُو إِلَى اللَّهِ؟! .. لِمَاذَا تَقْوُمُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟! .. لِمَاذَا تَتَصَدِّقُ؟! .. لَوْ كَانَ فِي هَذِهِ الْأَعْمَالِ شَيْءٌ وَلَوْ بَسِطُّ مِنْ حَظَّ النَّفْسِ؛ لَا يَقْبِلُهَا اللَّهُ أَبْدًا.

قال الله تعالى - في الحديث القدسي : «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً وَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشَرَكَهُ»^(١) .. فَاللَّهُ يَعْزِيزُهُ عَنِّي .. عَزِيزٌ .. يَعْلَمُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغَيْ بِهِ وَجْهُهُ .. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْإِخْلَاصَ وَاجْعَلْنَا مِنْ أَهْلِهِ .

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَد (٣٠١/٢) ، وَمُسْلِم (٢٩٨٥) وَاللَّفْظُ لَهُ .

السرُّ الدفين لعدم القَبُول وجود حَظٌ للنَّفْسِ في العمل

١٧٣

لذلك فإنَّ الذين يأتون يوم القيمة وأعمالهم لم تُقبل سيفاجئون بأنَّ أعمالهم كانت لله، ولكنها لم تكن خالصةً.. كان فيها شيءٌ من حظ النفس.. يالله!! .. فصحح نيتك؛ فالطريق إلى الله لا يصلح فيها إلا حَسَنُ النية.. أخلص قبل أن يأتيك يوم القيمة.

وآه من يوم القيمة! .. اللَّهُمَّ ارْحُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَعْفَنَا ، اللَّهُمَّ ارْحُمْ ذلَّ وقوفنا بين يديك يا أرحم الراحمين .. يوم القيمة وما أدرك ما يوم القيمة! .. إياك أن تنسى ذلك اليوم .. قال ربنا : ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتِنَ﴾ [الرحمن: ٤٦].. تذَكَّرْ هذا المقام يوم وقوفك بين يديه وأعمالك كلُّها معروضة عليه .. يوم يقول لك : عبدي ، عشت سبعين سنة ولم تصل إلا سنتين لماذا؟ ، فتُقسِّمُ : وعزتك وجلالك يا رب صَلَيْتُ من يوم أن ذهبت إلى المدرسة وأنا في أولى ابتدائي ، ماذا حصل؟!! .. تجُدُّ خمسين سنة من عمرك لم تُقبل وعشرين سنتين فقط قُبِلت!! .. ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنْ أَنَّهُ مَا لَمْ يَكُنُوا يَحْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].. السبب : وجود حظ النفس .. صُمِّتَ كثيراً ، ولم يُقبل إلا التَّرْقُ القليل .. نعم : لوجود حظ النفس في العمل.

أقول لكم كثيراً : لو كان لها «دور ثان» ، لو كان فيها «ملحق» ، أو لو كان لها «إعادة» ؟ لقلنا : يا رب ، أخطأنا فارجعنا نصلح ما كان منا .. لكن هي مرة واحدة إذا ذهبت فيها إلى جهنم كانت المصيبة .. قال الحسن : «ابن آدم ، عَنْ نَفْسِكَ فَكَائِنُ ، فَإِنَّكَ إِنْ دَخَلْتَ النَّارَ لَمْ تَنْجِزْ بَعْدَهَا أَبَدًا» .. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حَسَنَ الْخَاتِمَةِ ، اللَّهُمَّ قَنَا عِذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عبادك .

أصول الوصول إلى الله تعالى

نعم - إخواته - : السر الدفين لعدم القبول هو وجود حظ النفس في العمل .. أن تتزوج بالبنت الفلانية لأنها تعجبك وتحبها ولا تتزوج ليعنفك الله ويسترك .. تكرم الناس ليكرموك ليس لأجل أن يكرمك الله .. تصلي لتسريح ليس لأنه أمرك بالصلاه .. تؤدي الحقوق كما ينبغي ليقولوا عنك : أمين ، ليس لأن الله أزمك بذلك ..

فوجود حظ النفس في العمل معناه : أن تستغل لحسابك .. تعمل لنفسك وليس لله .. وجود حظ النفس .. إياك أن تنسى هذه الكلمة .. أن تصير «شغالاً» لحسابك .. لمزاجك .. لهواك .. لنفسك .. لا لله .. اللهم استرنا ولا تفضحنا .

هذه هي المشكلة الكبيرة .. أن معظمَنا أكثر عمله لنفسه لا لله .. هذه هي الحقيقة ولا تغضب؛ لذلك قف وقفه جادةً وحقق الإخلاص .. جرّد النية لله ، فلا تدري متى تموت .. أخلص يُقبل عملك ، وإلا فسيُطُرُح في وجهك ، وتختسر الوصول إلى الله .

قال أبو أيوب مولى ضيغم بن مالك : قال لي أبو مالك يوماً : يا أبا أيوب ، احذن نفسك على نفسك؛ فإني رأيت هموم المؤمنين في الدنيا لا تنقضي ، و أيام الله ، لكن لم تأت الدار الآخرة المؤمن بالسُّرور؛ لقد اجتمع عليه الأمران : هم الدنيا ، وشقاء الآخرة . قال : قلت : بأبي أنت وأمي ، وكيف لا تأتيه الآخرة بالسُّرور ، وهو ينصلب لله في دار الدنيا ويدأب؟! ، قال : يا أبا أيوب ، فكيف بالقبول؟! وكيف بالسلامة؟! ، ثم قال : كم من رجل يرى أنه قد أصلح نفسه ، وقد أصلح قرباته ، قد أصلح

السرُّ الدفين لعدم القَبُول وجود حَظٌ للنفسِ في العمل

١٧٥

هِمْتَه ، قد أصلحَ عَمَلَه ؛ يُجَمِّعُ ذَلِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يُضَرِّبُ بِهِ وَجْهُهُ»^(١) .

إخوته ، حاسبوا أنفسكم وانظروا فيها .. عامرُ بن قيسٍ كان يقول لنفسه : قُومِي يا مأوى كل سوءٍ ، فوعزَّةُ ربِّي لأزحفَنَ بِكِ رَحْفَ الْبَعِيرِ ، وإن استطعتُ أن لا يَمْسَسَ الأَرْضَ رَهْمُكَ (شحم الجسم) لافعلن . ثم يَتَلَوَّى كما يتلَوَّى الْحَبُّ عَلَى الْمِقْلَى ، ثم يَقُومُ فِينَادِي : اللَّهُمَّ إِنَّ النَّارَ قد منعني من النوم ؛ فاغفر لي .

وَتَعَبَّدَ رَجُلٌ بِبَيْتِ شِعْرٍ سَمِعَهُ :

لِنَفْسِي أَبْكَيِ لَسْتُ أَبْكِي لِغَيْرِهَا
لِنَفْسِي فِي نَفْسِي عَنِ النَّاسِ شَاغِلٌ
إِخوته ، إن فِتْنَةَ النَّفْسِ وَالشَّهْوَةِ ، وجاذبَيْهِ الْأَرْضِ وَالدَّعَةِ
وَالْأَطْمَئْنَانِ ، وصعوبة الاستقامة على صِرَاطِ الإِيمَانِ ، والاستواء على
مُرْتَضَاهُ ، مع المُعَوَّقاتِ وَالْمُثْبَطَاتِ في أعمقِ النَّفْسِ - هي الفِتْنَةُ
الْكُبْرَى .

لَكُنْ مَا الْحُلُّ - إِخوته - لَنْفَنِي عَنْ أَعْمَالِنَا حَظُّ النَّفْسِ لِيَقْبَلَنَا اللَّهُ؟

النَّفْسُ تَصْهَرُ هَا الْمُجَاهِدَةُ فَتَنْفَيِ عنْهَا الْخَبَثَ ، وَتَسْتَجِيْشُ كَامِنَ قُوَّاهَا
الْمَذْخُورَةِ فَتَسْتَيقِظُ . ويكتفي قول الله عَزَّوجلَّ : «وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِي نَّا
لَهُمْ يَنْهَا مُسْلِمًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلَّهُ مُحْسِنِينَ» [العنكبوت: ٦٩] .

قال أبو يزيد البسطامي : عَالَجْتُ كُلَّ شَيْءٍ ، فَمَا عَالَجْتُ أَصْعَبَ مِنْ
مُعَالِجَةِ نَفْسِي ، مَا شَيْءٌ أَهُونُ عَلَيَّ مِنْهَا .

(١) صفة الصفوة ، لابن الجوزي (٣٦٠ / ٣) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

وقال : دَعَوْتُ نفسي إلى الله ، فَأَبْتَ عَلَيَّ وَاسْتَصَبَتْ ، فَتَرَكْتُهَا
وَمَضَيْتُ إِلَى الله .

وقيل لبعض أهل الرياضة : كيف غَلَبْتَ نفسك؟ ؟ فقال : قمتُ صفَّ
حربها بسلاحِ الجِدْ ، فخرجَ مَرْحُبُ الْهُوَى يُدَافِعُ ، فعلاهُ العزُّ بصارِمِ
الحرزم ، فلم تمضِ ساعةً حتى هلكَتْ خيرٌ .

وقيل لآخر : كيف قَدَرْتَ عَلَيَّ هَوَاك؟ ؟ فقال : خَدَعْتُهُ حَتَّى أَسْرَتُهُ ،
وَاسْتَلَبْتُ عُودَهُ فَكَسَرْتُهُ ، وَقَيَّدْتُهُ بَقِيدِ العُزلَةِ ، وَحَفَرْتُ لَهُ مَطْمُورَ الْخُمولِ
فِي بَيْتِ التَّواضُّعِ ، وَضَرَبْتُهُ بِسَيَاطِ الْجُوعِ فَلَانَ .. يا فُلانُ : أَلَكَ فِي
مَجَاهِدِ النَّفْسِ نِيَّةٌ ، أَمِ النِّيَّةُ نِيَّةٌ؟ .. أَتَعْبَتَنِي وَأَنْتَ أَنْتَ .. إِلَى مَنِي تَجُولُ
فِي طَلَبِ هُجُولٍ؟!^(١) ، مَا عَزَّ يُوسُفُ إِلَّا بَتَرَكَ مَا ذَلَّ بِهِ مَا عَزَّ .

إِخْوَتَاهُ ، لَا يَقْبِلُ اللَّهُ عَمَلاً فِيهِ حَظٌ لِلنَّفْسِ ، فَخَلُوَا أَنْفُسَكُمْ وَتَعَالَوْا
إِلَى الله .. وَاسْتَعِينُوا بِالله عَلَيْهَا بِالْمَجَاهِدَةِ وَالْإِحْسَانِ فِي الْمُعَامَلَةِ ؛ قَالَ
رَبِّي - وَأَحَقُّ الْقَوْلِ قَوْلُ رَبِّي - : ﴿وَالَّذِينَ جَهَدُوا فِينَا لَنَهَدِيَنَّهُمْ سُبُّلًا وَإِنَّ
اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] .

* * *

(١) جمع هَجْلٌ : وهي المفازة الواسعة ، وَتُجْمَعُ عَلَى أَهْجَالٍ وَهَجَالٍ أَيْضًا . انظر :
المعجم الوسيط .

الأصل السادس عشر

الأمر كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ؛ فَسَلِّمْ تَسْلِمْ

قال - تعالى - عن إبراهيم : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلَمِينَ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ [البقرة : ١٣٢-١٣١].

قال ابن كثير رحمه الله : « قوله - تعالى - : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلَمِينَ﴾ أي : أمره الله - تعالى - بالإخلاص له والاستسلام والانقياد؛ فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً . قوله : ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أي : وصى بهذه الملة وهي الإسلام لله ، أو يعود الضمير على الكلمة ، وهي قوله : ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّي الْعَلَمِينَ﴾ ؛ لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم » اهـ .

فَسَلِّمْ لِرِبِّكَ يَا طَالِبَ الْوَصْوَلِ ، فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ . قال الملك : ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰ كُمْ عَمَّا يَعْمَلُونَ لِكَيْلًا تَحْرَزُونَ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصْبَحَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ سورة الحج ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمْرَ أَمْنَةً نُعَاسًا يَعْشَنَ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةً قَدْ أَهْمَمْتُمْ أَنفُسَهُمْ يَظْهُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ طَنَ الْجَهَلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبَدِّلُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا فُتَنَا هَنَهَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : ١٥٤-١٥٣] .

أصول الوصول إلى الله تعالى

﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ .. نعم : فكم من ناسٍ في هذه الدنيا لا هم لهم إلا أنفسهم .. سلّموا أمرهم لأنفسهم لا لله .. وقديماً قالوا : من عاش لنفسه عاش صغيراً ومات حقيراً .. فسلّم نفسك لله وحده يأمرها وينهاها بما هو أفع وأصلاح لها ، فهو سبحانه عليم حكيم .. ضع يديك ورجليك في قيود الشريعة الفضيّة لتحرر من ذل العبودية لغير الله .. سلّم تسلّم فالامر كله لله .

كم رأينا رجالاً أهم شيء لديه أن يأكل ويشرب ويلبس وينام .. أهم شيء مزاجه ، أمّا العيال فمالي وللعيال !؛ فأنا الذي آتي بالعيال .. والزوجة ؟! .. ومالي بالزوجة ، فلتذهب لأهلها يطعموها .. وعن الآخرة يقول : حينما يأتي الحساب سترجع !!

طبعاً أنت ستعجب لهذا الرجل ، فكلامه لا يقوله إلا جاهل أو عاص ، ولكن لا تعجب ، فهذا الكلام موجود بداخل الكثير منا - معاشر المُلتزمين - وإن كان لا يقوله بلسانه .. نعم : كثيرٌ منا يود أن يعيش لنفسه - ونفسه فقط - .. ودعونا نتصارح حتى تعالج تلك المشاكل؛ وإلا فسيظل السوس ينخر في العظم .. عظم الأمة .

إن سبب مصائبنا اليوم أنفسنا .. ترانا «منكسين موكسين» لماذا؟ .. من أنفسنا .. شلة يهود .. شرذمة يهود يضربونا على أم رؤوسنا لماذا؟ .. لماذا استضعفونا واستهانوا بنا؟ .. لهواننا على أنفسنا .. مع أننا أكثر من هؤلاء الناس جميعاً ، وعندنا كل الإمكانيات التي توصلنا لسيطرة العالم ولكن لا نسود .. لأن «السوس» في قلوبنا .

إِنَّ أَوَّلَ نَصْرٍ الدِّينِ أَنْ تُصْلِحَ نَفْسَكَ .. فَمِنْ هَنَا الْمَنْتَلِقُ، وَمِنْ هَنَا الْبَدَائِيَّةُ .. وَإِصْلَاحُ النَّفْسِ يَكُونُ بِتَسْلِيمِهَا لِلَّهِ بِكُلِّ حُبٍّ وَرَضَا يَأْمُرُهَا وَيَنْهَا كَيْفَ شَاءَ ..

البداية من نفسك .. وَهَذَا الْكَلَامُ قُلْتُهُ مِنْ عِشْرِينَ سَنَةً .. وَعَشْرَ .. وَخَمْسَ .. وَالْأَمْسَ .. وَالْيَوْمَ .. وَسَأَظْلِلُ أَقْوَلَهُ حَتَّى أَمْوَاتُ؛ لَأَنَّهُ قَانُونُ إِلَهِي؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] .. قَانُونُ إِلَهِي .. ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ مُغَيِّرًا تَعْمَلَهُمْ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] ..

وَإِنَّ الَّذِي يَتَحَدَّثُ عَنِ التَّغْيِيرِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ لَنْ يَغْيِرَ شَيْئًا عَلَى الإِطْلَاقِ .. فَالْبَدَائِيَّةُ إِذَا مِنْ أَيْنَ؟ .. مِنْ عِنْدِ أَنفُسِنَا .. وَهَذَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِي؛ وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ كَمَا مَرَّ ..

إِذَا فَلَابِدُ مِنِ التَّحْدِيقِ .. تَدْرِي مَعْنَى التَّحْدِيقِ؟ .. التَّحْدِيقُ فِي ذَوَاتِ أَنفُسِنَا .. أَيُّ شَيْءٍ فِي أَنفُسِنَا يَجُبُ أَنْ يَتَغَيِّرَ؟ .. فَغَيْرُ نَفْسَكَ وَسَلْمَ نَفْسَكَ لَا لِنَفْسِكَ وَلَكِنَّهُ لَهُ ..

يقول الله - تعالى - : ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدَّ أَهَمَّهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظْنُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ كَلَّ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .. يقول هؤلاء المنافقون : مِنَ الَّذِي أَتَى بِنَا إِلَى هَذَا .. مَا لَنَا وَلَهُذَا الْأَمْرُ؟! .. كَالَّذِينَ يَقُولُونَ : مَا لَنَا وَفِلَسْطِينُ؟! ، وَيَقُولُونَ : هُمُ الَّذِينَ بَاعُوا أَرْضَهُمْ .. إِنَّ الْقَضِيَّةَ يَا هؤلاء!! لِيَسْتُ فِلَسْطِينُ .. هَذِهِ قَضِيَّةُ إِسْلَامٍ وَالْيَهُودِ .. الْقَضِيَّةُ قَضِيَّةُ إِسْلَامٍ وَكُفَّرٍ ..

أصول الوصول إلى الله تعالى

وإنَّ الذي يهتمُ ويحزنُ لأحوالِ المسلمين ينبغي أنْ يفكَر في نفسه فُيصلِحُها لتنصلحَ أمَّةُ الْجَرِيحةِ . . ولُيسْلِمُ لله ولِيقْلُ بِلسانِ الحالِ والمقال : سمعَا وطاعةً يا رب . . ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . . فلا يحلُّ لِحِيته مثلاً ويقول : احْلِقْهَا وَأَرْخِ دِماغَكَ . . لا . . فأين السمع والطاعة إِذَا؟! . . أين التسليم الذي تحدث عنه؟!! . . أنت لم تُرِخْ نَفْسَكَ بل عَصَيْتَ رَبَّكَ الذي بيده الأمرُ والنهيُ .

لماذا سجن الإمام أحمد بن حنبل؟ . . من أجل العقيدة . . يقولون له :
القرآنُ مَخْلوقٌ ، قال لهم : القرآنُ كلامُ اللهِ غيرُ مَخْلوقٍ . . سَجَنُوه وَضَرَبُوه . . الذي ضربه قال : ضربتُ أَحْمَدَ سَبْعَةَ عَشَرَ سَوْطًا لَوْ ضُرِبَهَا جَلْ لَأْنَهَدَ . . نعم : سُجِنَ . . وفي شِعْبِ أبي طالبٍ كم ضُرِبَ أَنَاسٌ ! . . النبي ﷺ نَفْسُهُ سُجِنَ وَضُرِبَ . . فالتأديب بالسَّجْنِ والضرب الآن ليس جديداً . . ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِيلَ لِرُسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] . .

أبو سيدنا إبراهيم قال له : ﴿لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ لِأَرْجِمنَكَ﴾ [مريم: ٤٦] . . فِرْعَوْنُ قال لموسى ﷺ : ﴿لَا جَعَلْنَكَ مِنَ الْمَسْجُونِ﴾ [الشعراء: ٢٩] . . فـهـذـه سـُنـنـةـ كـوـنـيـةـ . . سـُنـنـةـ دـائـمـةـ لـاـ تـغـيـرـ . . وـابـتـلـأـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ كـانـ مـنـ أـجـلـ كـلـمـةـ مـاـ أـسـهـلـ أـنـ يـتـنـازـلـ عـنـهـ النـاسـ الـيـوـمـ ؛ـ بـلـ وـالـمـلـتـزـمـوـنـ .

قال أبو سعيد الواسطي : دخلتُ على أَحْمَدَ السِّجْنَ قَبْلَ الضَّرِبِ فقلتُ : يا أبا عبد الله ، عليكِ عِيالٌ ولكَ صِبيانٌ وأنتَ مَعْذورٌ ، كَأَنِّي أُسْهِلُ عَلَيْهِ الإِجَابَةِ . . كَأَنَّهُ يَقُولُ لَهِ بِلُغَةِ عَصْرِنَا : وَرَاءَكَ عِيالٌ وَتَحْتَاجُ إِلَى تَرْبِيَتِهِمْ ، قُلْ لَهُمُ الْكَلْمَةُ الَّتِي يَرِيدُونَهَا . . «القرآنُ مَخْلوقٌ» . . وَأَرْخَ

من هنا .. ألسَتَ من داخل قلبك تعتقدُ أن القرآن كلام الله؟! ؛ إذا لا حرج عليك ، طالما أن قلبك مطمئن بالإيمان!

فقال الإمام أحمد: «يا أبا سعيد، إنْ كان هذا عقلك فقد استرحت!! .. وما أكثر أصحاب العقول المستريحة في زماننا .. أراح دماغه .. وغير عابي بأي أمر .. وترك نفسه مع الماشي ، وحينما يموت لا يجد إلا النار .

لذلك - إخواته - حينما يقول الله : ﴿هَل لَنَا مِنْ أَلْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؛ نقول له : إن الأمر كله لله . الأمر أمر الله .. فإذا أرادك أن تحمل فاحمل ما أمرك به .. هذه مسئوليتك .. وهذه هي الأمانة التي قال الله عنها : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيَتْ أَنْ يَحْمِلُنَّهَا وَأَشْفَقُنَّ مِنْهَا وَحْلَهَا إِلَّا إِنَّمَا كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] .. احمل مسئولية هذا الدين ، فالدين أمانة .. الدين نسبك وصهرك .. الدين مسئولية كل مسلم .. الدين مسئوليتك الشخصية ، وسوف تُسأل عنه .. والله ثم والله لتسأل عن دين الله .. ماذا عمِلت به ، وماذا قدَّمت له؟

قال أبو بكر الصديق لما منعوا الزكاة : أينَصُّ الدين وأنا حي؟! ! كلا والله .. فهل ينقص وانت حي .. هل ينقص الدين في بيتك وفي منطقتك وفي أرضك وفي كل العالم؟! .. نعم ينقص؛ لأنك لم تحمله .

والمنافقون هم الذين لا يريدون أن يحملوا الدين .. ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ أَلْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ .. يقولون لأنفسهم : ما الذي أتي بكم إلى هنا؟! .. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبَدِّلُونَ لَكُمْ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ

أصول الوصول إلى الله تعالى

لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَتَلْنَا هُنَّا ﴿١٥٤﴾ [آل عمران: ١٥٤] .. لو كان الموضوع بأيدينا! .. ما الذي جاء بنا إلى هنا؟! .. ما لنا ولقتال! .. لماذا نقاتل؟! .. لا .. فليس الأمر بأيديكم؛ ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَّ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] .. لو لم يأتكم رسول ولو لم تخرجوا لقتلتم هنا أيضاً .. طالما أنه - سبحانه - كتب عليكم أن تقتلوا هنا فسوف تُقتلون هنا ولا محالة .. هذا قدر.

ولذلك فإن من يخلق لحيته حتى لا يؤذى تجده يحلقها فيؤذى .. مكتوبة مكتوبة .. فالقضية ليست قضية أسباب .. القضية من مسبب الأسباب .. انتبه .. لذلك حينما يأتي ويقول : أخلق لحيتي ، نقول له : يا أخي ، البلاء يدفع بطاعة الله ورسوله لا بمعصية الله ورسوله .. فهل تعصي ربك لتدفع عنك البلاء؟! .. اللهم ارفع عن المسلمين البلاء ..

أطع ربك .. نفذ أوامره ؛ فالأمر كله له لا لمن تخافُ منهم .. سلم تسلّم ؛ فالذي أمرك الله .. الله العزيز .. الله الجبار .. الله اللطيف ﴿الله لطيفٌ يعِبادُه﴾ [الشورى: ١٩] .. الله الرحيم .. الله الحفيظ .. فكُن معه ، فأنت في حماه ، ولن يُضيّعك أبداً ؛ فهو الله ..

كلمة جميلة جداً لأبي إسماعيل الهروي يُبيّن فيها هذا الأصل .. يقول : «أن تعلم أنَّ الأمر صادرٌ من عينِ من لا يخافُ عواقبَ الأمر» .. فالذي أمرك من؟ .. الله .. هل يخاف؟ .. أعودُ بالله وحاشا لله .. قال ربي : ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنِّهِمْ فَسَوَّهَا ﴿١٤﴾ ولَا يخافُ عَقَبَهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥] .

فَكُنْ مَعَهُ وَسِيمِيكَ وَيَحْرُسُكَ وَيَحْفَظُكَ وَيُسَدِّدُكَ وَيَنْجِيَكَ، وَإِنْ
أَبْتَلَكَ فَسِيرُ ضِيَكَ.

قَالَ ابْنُ الْقِيمِ - رَحْمَةُ اللَّهِ - : «أُصْدِقُ اللَّهَ، إِذَا صَدَقَتْ عِشْتَ بَيْنَ
عَطْفِهِ وَلُطْفِهِ؛ فَعَطْفُهُ يَقِيكَ مَا تَحْذِرُهُ، وَلُطْفُهُ يُرْضِيكَ بِمَا يُقْدِرُهُ» أَهْ.

سَتَعِيشُ وَتَحْيَا بَيْنَ الْعَطْفِ وَاللُّطْفِ.. فَيُعْطَفُ عَلَيْكَ.. فَكُلُّ مَا
تَخَافُ مِنْهُ لَنْ يَحْدُثَ؛ لَأَنَّهُ - سُبْحَانَهُ - هُوَ الْمَلِكُ، فَلَا يَجْرِي فِي الْكَوْنِ
شَيْءٌ إِلَّا بِقَدْرِهِ وَإِذْنِهِ وَمُشَيْئَتِهِ، فَسِيمِيكَ بِعَطْفِهِ.. وَإِذَا قَدَرَ عَلَيْكَ شَيْئًا
تَكْرِهُهُ فَسِيرُ ضِيَكَ بِلُطْفِهِ.. إِذَا فَكُنْ لَّهُ كَمَا يُرِيدُ؛ يَحْمِلُكَ وَيُرْضِيكَ..
فَسَلْمٌ لَهُ تَسْلِمْ.

فُلَانُ كَانَ يَقُودُ السِّيَارَةَ وَفِي لَحْظَةِ الْقَدْرِ لَمْ يَرَ أَمَامَهُ؛ فَكَانَتِ الْحَادِثَةُ..
وَفِيهَا حَصَلَ الْعَطْفُ وَاللُّطْفُ.. فَالْعَطْفُ: أَنَّ السِّيَارَةَ تَكَسَّرَتْ لَكُنَّهُ خَرَجَ
هُوَ وَأَوْلَادُهُ سَالِمِينَ.. هَذَا عَطْفٌ.. أَمَا اللُّطْفُ: إِنَّهُ نَزَلَ مِنَ السِّيَارَةِ
سَاجِدًا يَقُولُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ.. يَقُولُونَ لَهُ: السِّيَارَةُ انتَهَتْ؛ يَقُولُ: يَا أَخِي،
الْحَمْدُ لِلَّهِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ.. فَهَذَا لُطْفٌ.. وَعَلَى الْعَكْسِ: مَنْ يَحْلِقُ
لِحَيَّتِهِ.. فَيَعُصِي فِيؤْذِي فَيَتَلَفَّظُ بِمَا يُسِخْطُ اللَّهَ.. فَلَا هُوَ نَفَذَ الْأَمْرَ فَعَاشَ
بِعَطْفِ اللَّهِ، وَلَا هُوَ سَكَنَ فَعَاشَ سَعِيدًا وَفَازَ بِلُطْفِ اللَّهِ.

وَهَكَذَا .. إِذَا عَشْتَ لَهُ فَنَفَذْتَ أَوْامِرَهُ؛ وَسَلَّمْتَ لَهُ زِمَامَ نَفْسِكَ
فَأَطْعَتَهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ؛ سَلِمْتَ، وَسَيِّرَكَ بَيْنَ عَطْفِهِ وَلُطْفِهِ - اللَّهُمَّ
احفظنا بِعَطْفِكَ وَلُطْفِكَ يَا رَبَّ.. فَسَلْمٌ تَسْلِمْ لِتَصِلَّ؛ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ لَهُ.



الأصل السابع عشر

دليل عدم رضاك عنك عدم رضاك عنه

رجلٌ تضايقه زوجته بعض الشيء، ولكنَّه رجلٌ صالحٌ وراضٍ وصابرٌ ويقول : بذنبي .. هذا الرجل الراضي يُفاجأ بأنَّ الله يُرضيه ؛ ففيأتيه برجلٍ يجلسُ بجواره ويقول له : يا أخي ، لا أدرِي ماذا أفعلُ مع زوجتي !! .. كَلَّما أكلَّمها كلمة تُوبُخني وتُهيني .. فيقول صاحبُنا : اللَّهُمَّ لك الحمدُ ، إِذَا فَأْنَا فِي نِعْمَةٍ .

ورجلٌ آخرٌ كلما تضايقه زوجته يقول : يا رب ، ماذا عملتُ في دنياي حتى تبتليَّني بهذه البلوى؟! ؛ فيُقِيدُ الله له رجلاً بجواره يقول له : يا أخي ، سبحان الله ! ، لماذا تعذب نفسك؟! طلقها واسترِحْ من مشاكلها!! .. ولو رضيَ لأرضاه الله .

قال سفيان : قال الحسن : من رضيَ بما قسم الله له وسَعَهُ ، وباركَ الله له فيه ، ومن لم يرضَ لم يَسْعَهُ ، ولم يباركَ له فيه .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنةً ما أقامني الله في حالٍ فكرهْتُه ، وما نقلَّني إلى غيرِه فسخطْتُه .

لقد حدث لأحد الإخوة موقفٌ عجيبٌ .. كان نائماً بالليل فعُطِشَ فقام ليشربَ ورَجَعَ ، فوجد زوجته قد استيقظت وتقول له : أين كنت؟ ،

دليل عدم رضاك عنك عدم رضاك عنه

١٨٥

قال : كنت أشرب ، فبكت وقالت له : لِمَ لَمْ توقظني ؟ ، لِمَ لَمْ تأمرني ؟ ،
ما فائدتي إذن ؟ !!

فالذى وضع هذا الرجل لهذا ، ووضع هذه لهذا مَنْ ؟ .. اللَّه ..
فحينما ترضى يُرضيك ، وحينما تسخط يزيدُك سُخْطًا؛ قال رسول اللَّه
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَ قَوْمًا ابْلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فِلَهُ الرَّضَا، وَمَنْ سَخَطَ
فَعَلَيْهِ السُّخْطُ»^(١) .. هذه هي القضية : أنك إذا كنت راضياً دائمًا ،
أرضاك اللَّه وبعث إليك ما يُرضيك ومنْ يُرضيك .

والقصة التي مررت من خير الشواهد .. قصة حُدَيْر .. لَمَّا مَشَوْا
ووجَدَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ فِي يَدِهِ الْهُدَيْة؛ لَمْ يَقُلْ : وَأَنَا ؟ ، وَلَمْ يَرْجِعْ
لِيَقُولْ : أَنَا لَمْ آخُذْ هُدَيْتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ .. وَلَوْ طَلَبَ لِأَعْطَاهُ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. لَكِنَّ الرَّجُلَ كَانَ راضِيًّا ، فَيَكْفِيهِ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَهُ .. وَلَمَّا ذَكَرَ الرَّسُولُ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِ ؛ أَرْسَلَ إِلَيْهِ هُدَيْتِهِ بِسْرَعَةٍ .. فَحَازَ الْهُدَيْة وَذَكَرَ اللَّهَ .. لِرَضَاهِ .

سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معروف أنه كان مستجاب الدعوة ، وكان قد كُفَّ بصره في آخر عمره ، قال له ابنه : يا أبا إرثاك تدعوا للناس ! هَلَا دعوت لنفسك أن يرَدَ اللَّهُ عَلَيْكَ بَصَرَك ، قال : يا بُنْيَ ، قضاء اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَصَرِي .

إخواته ، هل أنتم راضون عن اللَّه ؟ ، هل فعلاً قضاء اللَّهِ وقدره أحبُ
إليكم مما أنتم فيه من بلاء وفتنة وغُربة ؟ .. إذا أردتم أن تتأكدوا ؛ فالرَّضا
عن اللَّه يَصِحُّ بِثَلَاثَةِ شُرُوطٍ ذكرها ابن القِيمِ في المدارج :

(١) أخرجه : أحمد والترمذى ، وصححه الألبانى فى «الصحيحه» برقم (١٤٦) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

الأول : استواء النعمة والبلاية عند العبد؛ لأنَّه يشاهد حسن اختيار الله له .

الثاني : سقوط الخصومة عن الخلق ، إلا فيما كان حَقّاً لِللهِ وَرَسُولِهِ ﷺ . فالراضي لا يُخاصِمُ ولا يعاتِبُ إلا فيما يتعلَّقُ بِحَقِّ اللَّهِ ، وهذه كانت حال رسول الله ﷺ ؛ فإنه لم يكن يُخاصِمُ أحداً ، ولا يعاتِبُ إلا فيما يتعلَّقُ بِحَقِّ اللَّهِ ، كما أنه لا يغضُبُ لنفسه ، فإذا انْهَكَت محرام اللَّهِ لم يقم لغضبه شيءٌ حتى يتقمَّ لله . فالمخاصمة لحظة النفس تُطفئ نور الرضا وتدُهُّب بهجتها ، وتبدل بالمرارة حلاوتها ، وتُكدر صفوَه .

- والشرط الثالث: **الخلاص من المسألة للخلق والإلحاح**؛ قال -

تعالى - : ﴿يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءٌ مِّنَ الْتَّعْفُفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلَّا حَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٧٣]. قال ابن عباس : إذا كان عنده غداء لم يسأل عشاء ، وإذا كان عنده عشاء لم يسأل غداء^(١) .

ثم يبَيِّنَ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّ مِنْعَ اللَّهِ - تَعَالَى - لِعَبْدِهِ عَطَاءً ، وَابْتِلَاءً إِيَّاهُ عَافِيَةً ،
فَيَقُولُ :

«إِنَّهُ - سُبْحَانَهُ - لَا يَقْضِي لِعْبَدِهِ الْمُؤْمِنُ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ،
سَاءَهُ ذَلِكَ الْقَضَاءُ أَوْ سَرَّهُ. فَقَضَاؤُهُ لِعْبَدِهِ الْمُؤْمِنُ عَطَاءٌ، وَإِنْ كَانَ فِي
صُورَةِ الْمَنْعِ. وَنِعْمَةٌ، وَإِنْ كَانَتْ فِي صُورَةِ مَحْنَةٍ. وَبِلَاوَهُ عَافِيَةٌ، وَإِنْ
كَانَ فِي صُورَةِ بَلِيهٍ. وَلَكِنْ لِجَهْلِ الْعَبْدِ وَظُلْمِهِ لَا يَعُدُّ الْعَطَاءُ وَالنِّعْمَةُ
وَالْعَافِيَةُ إِلَّا مَا اتَّدَّ بِهِ فِي الْعَاجِلِ، وَكَانَ مَلائِمًا لِطَبْعِهِ. وَلَوْ رَزْقٌ مِنْ

(١) مدارج السالكين (٢١٣ / ٢) وما بعدها باختصار .

المعرفة حظاً وافراً لعد الممنوع نعمة ، والبلاء رحمة ، وتلذذ بالبلاء أكثر من لذته بالعافية ، وتلذذ بالفقر أكثر من لذته بالغنى ، وكان في حال القلة أعظم شكرًا من حال الكثرة .

فالراضي : هو الذي يعُد نعم الله عليه فيما يكرهه ، أكثر وأعظم من نعمه عليه فيما يحبه ؛ كما قال بعض السلف : ارض عن الله في جميع ما يفعله بك ؛ فإنه ما منعك إلا ليعطيك ، ولا ابتلاك إلا ليغافيك ، ولا أمرضك إلا ليشفيك ، ولا أماتك إلا ليحييك . فإياك أن تفارق الرضى عنه طرفة عين ، فتسقط من عينه^(١) .

إخواته ، قال الثوري يوماً عند رابعة : اللهم ارض عنا . فقالت : أما تستحي أن تسأله الرضا عنك وأنت غير راض عنه ؟ ، فقال : أستغفر الله . ثم قال لها جعفر بن سليمان : متى يكون العبد راضياً عن الله ؟ ، قالت : إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة .

ودخل رجل على أبي العالية في مرضه الذي مات فيه ، فقال : إن أحبه إلى ، أحبه إلى الله - عز وجل .

وقيل ليحيى بن معاذ : متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا ؟ ، فقال : إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربّه ، فيقول : إن أعطيتني قبلت ، وإن منعتني رضيت ، وإن تركتني عبد ، وإن دعوتني أجبت .

وعن حفص بن حميد قال : كنت عند عبد الله بن المبارك بالكوفة ،

(١) مدارج السالكين (٢٢٤ / ٢ - ٢٢٥) بتصرف .

حين ماتت امرأته ، فسألته : ما الرضا؟ ، قال : الرضا : لا يتمنى خلاف حاله .

ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع فقال : إنني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إنني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج في عيني .

بشير الطبرى كان عنده مزرعة فيها أربعين جاموساً .. ثروة تقدر ببليون جنيه اليوم .. فهجم الروم يوماً عليها ، فساقوا الجواميس كلّها . وكان عنده مئة عبد يحرسونها ، فأرسل هؤلاء العبيد إلى بشير أنْ قد أخذت الجواميس ، فركب مع ولدِه إليهم .. فلما وصل إلى المزرعة لقيه العبيد ي يكون .. يا سيدنا ، يا مولانا : أخذت الجواميس ، فقال : وأنتم أيضاً : اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله .. فقال له ابنه : أفترتنا يا أباَنا ، فقال : اسكت يا بني ، إنَّ الله أراد أن يبتلي رضائي به ، فأحببْتُ أن أزيدَه .. رحمة الله يا بشير .. إنَّ الله يتحنّن أرضي بقضائه أم لا ، قلت له : لا ، أنا راضٍ جداً ، وهذه الزيادة أيضاً من أجلك يا رب .. اذهبوا فأنتم أحرار لوجه الله !!

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر والدهر ذو دليل والرزق مقسوم والخير أجمع في ما اختار خالقنا وفي اختيار سواه اللوم والشوم **يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - :**

«وثمرة الرضا : الفرح والسرور بالرب - تبارك وتعالى - ، ورأيت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - في المنام ، وكأني ذكرت له

دليل عدم رضاك عنك عدم رضاك عنه

١٨٩

شيئاً من أعمال القلب ، وأخذت في تعظيمه ومنفعته - لا أذكره الآن - ؛
فقال : أمّا أنا فطريقتي : الفرح بالله ، والسرور به . أو نحو هذا من
العبارة»^(١) .

إلهي .. سُسْنَا كِيف شِئْت ؟ فَسُوفَ نرْضَى .. إِلَهِي :

لِي لِتَمْسُوكَ حَالًا بَعْدَ حَالٍ	إِذَا ارْتَحَلَ الْكَرَامُ إِلَيْكَ يَوْمًا
بِحَلْمِكَ عَنْ حُلُولٍ وَارْتَحَالٍ	فَإِنَّ رِحَالَنَا حُطَّثٌ لِتَرْضَى
إِلَيْكَ مُعَرِّضِينَ بِلَا اعْتِدَالٍ	أَنْخَنَا فِي فِنَائِكَ يَا إِلَهِي
إِلَيْكَ تَدْبِيرِنَا يَا ذَا الْمَعْالِي	فَسُسْنَا كِيفَ شِئْتَ وَلَا تَكْلُنَا

يقول ابن الجوزي - عليه رحمة الله وبركاته - في «صَيْدُ الْخَاطِرِ»

تحت عنوان «فصل : تذكرة أحوال الرسول» :

«من أراد أن يعلم حقيقة الرّضى عن الله - عَزَّ وَجَلَّ - في أفعاله ،
 وأن يدرِّيَ من أين ينشأ الرّضى ؛ فليتَفَكَّرْ في أحوال رسول الله ﷺ .

فإنه لَمَّا تَكَاملَتْ مَعْرِفَتَهُ بِالْخَالقِ - سُبْحَانَهُ - رَأَى أَنَّ الْخَالقَ مَالِكُ ،
وَلِلْمَالِكِ التَّصْرِفُ فِي مَمْلُوكِهِ ، وَرَآهُ حَكِيمًا لَا يَصْنَعُ شَيْئًا عَبَّا ، فَسَلَّمَ
تَسْلِيمَ مَمْلُوكٍ لِلْحَكِيمِ ؛ فَكَانَتِ الْعَجَابُ تَجْرِي عَلَيْهِ وَلَا يَوْجِدُ مِنْهُ تَغْيِيرٌ ،
وَلَا مِنَ الطَّبِيعَ تَأْفُفٌ .

ولا يقول بلسان الحال : لو كان كذا ، بل يُبَثُّ لِلْأَقْدَارِ ثُبُوتَ الْجَبَلِ

لعواصفِ الرّياحِ .

(١) مدارج السالكين (٢/١٧٤) .

هذا سيد الرسل ﷺ بعث إلى الخلق وحده ، والكفر قد ملا الآفاق ، فجعل يفتر من مكان إلى مكان ، واستتر في دار الخيزران^(١) ، وهم يضربونه إذا خرج ، ويذمون عقبه ، وشق السلي على ظهره ، وهو ساكت ساكن .

ويخرج كل موسم فيقول : من يؤويني ، من ينصرني ؟

ثم خرج من مكانة فلم يقدر على العود إلا في جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع تأفع .

إذ لو كان غيره لقال : يا رب ، أنت مالك الخلق ، وقدر على النصر ، فلِمْ أَذَلَّ ؟

كما قال عمر رضي الله عنه يوم صلح الحديبية : ألسنا على الحق ؟ ، فلِمْ نعطي الدنيا في ديننا ؟ !!

ولما قال هذا ، قال له الرسول ﷺ : «إنِي عبدُ الله ، ولن يضيئنِي» ، فجمعت الكلمات الأصلية اللذين ذكرناهما .

فقوله : إنِي عبدُ الله ، إقرار بالملك وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بي ما يشاء .

وقوله : لن يضيئنِي ، بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئاً عبئاً .

ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خزائن السموات والأرض .

(١) هي دار الأرقام . آلت إلى الخيزران بعد ذلك .

دليل عدم رضاك عنك عدم رضاك عنه

(١٩١)

وتُقتلُ أصحابه ، ويُشجع وجهه ، وتُكسرُ رُباعيَّته ، ويُمثَلُ بعْمه وهو ساكت .

ثم يُرْزق ابناً ويسْلِب منه ، فيتعلَّل بالحسن والحسين فيُخِبِّر بما سيجري عليهما .

ويسكنُ بالطبع إلى عائشة رضي الله عنها ، فيُغَضِّ عيشه بقذفها .
ويبالغ في إظهار المعجزات ، فيقام في وجهه مُسَيِّلَة والعَسِيَّ وابن صياد .

ويُقيِّم ناموس الأمانة والصدق ، فيقال : كاذب ساحر .

ثم يَعْلَقُه المرض كما يُوعِدُ رجال ، وهو ساكن ساكت .
فإن أخبر بحاله فليعَلِّم الصَّبر .

ثم يُشدَّد عليه الموت ، فيسلِّب روحه الشريفة وهو مضطجع في كسراء مُلَبْد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليُلْتَبِذ .
هذا شيء ما قدر على الصَّبر عليه كما ينبغي نبي قبله ، ولو ابتليت به الملائكة ما صَبَرَت .

هذا آدم عليه السلام يُباخ له الجنَّة سوى شجرة ، فلا يقع دُبُّ حرصه إلا على العقر . ونبينا عليه السلام يقول في المباح : « مالي وللنديا » !

وهذا نوح عليه السلام يَضِجُّ مما لاقى ، فيصيح من كَمَدٍ وجَدَه ﴿لَا نَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَفَرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] . ونبينا عليه السلام يقول : « اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون » .

هذا الكليم موسى ﷺ ، يستغيث عند عبادة قومه العجل على القَدْرِ قائلًا : **﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَةٌ﴾** [الأعراف: ١٥٥] ، وُووجهُ إليه مَلَكُ الموت فَيَقْلُعُ عينَه .

وعيسى ﷺ **يقول** : «إن صرفت الموت عن أحدٍ فاصرفة عنّي» . وَبَيْنَا **يُحَيِّرُ** بين البقاء والموت ، فيختار الرَّحِيل إلى الرَّفِيقِ الأعلى .

هذا سليمان ﷺ **يقول** : هب لي مُلْكًا ، وَبَيْنَا **يُحَيِّرُ** يقول : «اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً» .

هذا - والله - فعل رجل عرف الوجود والمُوجَد ، فمات أَعْراضه ، وسَكَنَ اعْراضاته ؛ فصار هواه فيما يجري ^(١) .

إذا رضيت يا عبد الله؛ فاعلم أن الله راض عنك .. فدليل عدم رضاه عنك عدم رضاك عنه .. فارض عن الله تصل إليه .. وتذكر دائمًا أحوال الرَّسُول ﷺ .

* * *

(١) صيد الخاطر (٣٥٥ - ٣٥٨) .

الأصل الثامن عشر

إِيَّاكَ أَنْ تَمْكُرَ بِهِ فِيمْكُرَ بِكَ

تَدَبَّرْ معي هذه الآيات : قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ الْسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال - تعالى - : ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَذْكُرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] ، وقال - تعالى - : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتُزْوَلَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦] ، وقال - تعالى - : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَيْقَبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ حَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكَيْةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢-٥٠] ، وقال - تعالى - : ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَقَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦] .

وقال عَزَّوجَلَّ : ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسْتَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُ فِي إِيَّائِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: ٢١] ، وقال عَزَّوجَلَّ : ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣] ، وقال عَزَّوجَلَّ : ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠] ، وقال عَزَّوجَلَّ : ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا الْسَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيهِمُ

العَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِيْهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِيْنَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَحْوِيْفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧-٤٨﴾ [النحل: ٤٧-٤٨].

وقال - جل وعلا - : ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَفَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ، وقال - جل وعلا - : ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرًا إِلَيْهِ أَسَيٌّ وَلَا يَحْيِقُ الْمَكْرُ أَسَيٌّ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ، وقال - جل وعلا - : ﴿وَمَكْرٌ أُولَئِكَ هُوَ يُبُورُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال - جل وعلا - : ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٤٢] ، وقال - جل وعلا - : ﴿أَفَأَمْنَوْا مَكَرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمُنْ مَكَرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَسِيرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] .

إن التأمل في هذه الآيات ومعادوتها قراءتها بتأنٍ وتدبر يُعرِّسُ في القلب الخوف من المكر؛ فها هي عاقبة المكر تراها واضحةً أمامك في الآيات .. وكم الآيات تقول لك : إياك أن تمكر .. إياك ..

قال رسول الله ﷺ : «المكر والخدعة والخيانة في النار»^(١) .. فإياك أن تمكر فيمكر بك ..

كثيرٌ من الناس يعيش في هذه الدنيا يعامل الله بالمكر .. غباء .. يتعامل مع زوجته بالمكر، مع أبيه بالمكر، مع مديره وزميله في العمل بالمكر، مع جاره ومن حوله بالمكر؛ فيظن أنَّه يستطيع أن يمكر بالله!

(١) أخرجه : الحاكم في «المستدرك» (٤/٦٠٧)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في « صحيح الجامع الصغير » برقم (٦٠٢).

كلمة خطيرة لابن الجوزي يقول فيها : «تُصرُّ على المعاشي وتصانع بعض الطاعات ، والله إن هذا لمكر» اه.

فتراء قد واعد البنت الفلانية ليقابلها غدا ، ويجلس في المسجد أمام الخطيب وهو يفكر في الموعد .. إصرار على المعصية .. أتمكر بربك؟! .. يأكل الحرام وواعد على رشوة ، ومع ذلك يصلبي ويتصدق و حاجز في العمرة .. تمكر بمن؟!

وستجد من يجلس في المسجد يستغفر وهو يحمل علبة السجائر .. مصر على المعصية ، ويقول : اللهم تب علي! .. بمن تمكر؟!! .. وأعجب من هؤلاء جميعا من إذا سمع بهذا الكلام قال معاندا : إذا والله لن أتوب ولن أصلى .. لا .. أنا لا أقول ذلك الكلام لتقول هذا ، ولكن أقوله لكي لا تمكر بربك .. فهو الذي خلقك ويعلمك .

فالذي قد واعد البنت الفلانية وجاء ليصلبي يمكر .. **نعم :** هذا مكر .. وتعجب من قوله حين يسمع بهذا الكلام : أنا آسف ، لن أصلى بعد ذلك .. وهذا هو الغلط .. هذا هو العور في البصيرة .. فبدلا من أن تقول : تبت إلى الله ، تقول هذا الكلام؟! .. سلم يا رب سلم .. تصر على المعاشي وتصانع بعض الطاعات إن هذا لمكر .. فالمفتوض والمتوقع حينما أقول لك هذا الكلام أن تقول : لا للعصية ، لا أن تقول : لا للطاعة!!

وفرق كبير بين الذي يعصي ثم يستغفر ويتب ويندم ويعزم على لا يعود ، وبين من يمكر السيئات .. وفرق كبير بين من يعلم السوء بجهالة ثم يتوب من قريب ، وبين الذي يدبر ويمكر ويصر ويستمر .

هذا هو المُلْحَظُ الْخَطِيرُ عِنْدِ تَأْمُلِ الْآيَاتِ السَّابِقَةِ :

أَنَّكَ تجِدُ التَّفَرِيقَ بَيْنَ مَنْ يَتَورَّطُ فِي الْمُعَاصِي عِنْدَ غَلَبَةِ الشَّهْوَةِ مَعَ الْجَهْلِ وَشَدَّةِ الْغَفْلَةِ ، وَبَيْنَ مَنْ يَمْكُرُ لِلْمَوْضُوعِ فِي حِتَالٍ وَيَدْبِرُ وَيَحْتَاطُ وَيَلْفُّ وَيَدُورُ ، وَيَبْحَثُ عَنِ الشُّبُهَاتِ وَيَتَعَامِلُ عَنِ الْضَّوَابِطِ ؛ لَذَا كَانَتْ عَقَوْبَةُ الْمَاكِرِ أَشَدَّ بَكْثِيرٍ مِنْ عَقَوْبَةِ الْعَاصِي

لَذَا إِذَا قَلْتُ لَكَ : تُصَانِعُ بِالْطَّاعَاتِ وَأَنْتَ مُصْرِّ عَلَى الْمُعَاصِي ؟ فَلَا تَقُولُ : إِذَا لَنْ أَصْلَيَ حَتَّى أَنْتَهِيَ عَنِ الْمُعَاصِي ! ! .. لَأَنَّ هَذَا مَكْرُ ! ! .. وَلَمْ لَا تَنْتَهِيَ عَنِ الْمُعَاصِي وَتَسْتَمِرُ فِي الصَّلَاةِ ! ! .. اللَّهُمَّ تَبْ عَلَى كُلِّ عَاصِ مُسْلِمٍ يَا رَبِّ ..

وَتَأْمُلْ مَعِي قَصَّةَ أَصْحَابِ السَّبْتِ لِمَا مَكْرُوا عَلَى اللَّهِ وَاسْتَخْفُوا بِزَوْاجِهِ ؛ مُسِخُوا قِرَدَةً ..

قال الله - تعالى - : ﴿وَسَأَلُوكُمْ عَنِ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَكُمْ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبِّتِهِمْ شُرَّاعًا وَيَوْمَ لَا يَسْتَوْنَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. أي : وسائل يا محمد يهود المدينة عن أخبار أسلافهم وعن أمر القرية التي كانت بقرب البحر وعلى شاطئه ماذا حلّ بهم لما عصوا أمر الله واصطادوا يوم السبت؟، ألم يمسهم قردة وخنازير؟! والاعتداء في السبت مجرد معصية أهون من كثير من معاصيهم؛ كقتل الأنبياء وطلب رؤية الله جهراً وطلب أصنام وعبادة العجل .. الاعتداء في السبت أخف من كل هذا بلا شك .. وفي كل هذا لم يمسخوا؛ وإنما مسخوا

باعتدائهم في السبت .. وهذا يدلُّك على أنَّ العقوبة لم تكن على مجرد المعصية ؛ وإنما العقوبة على المكر .

قال الفَّيْروزَابَادِيُّ : «إِنَّ مَعْصِيَتَهُمْ هَذَا كَانَ فِيهَا اسْتِخْفَافٌ بِاللَّهِ» ؛ إِذ حفروا الْحُفْرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَنَصَبُوا عَلَيْهَا الشَّبَّاكَ فَوَقَعَتْ فِيهَا الْأَسْمَاكُ يَوْمَ السَّبْتِ وَهُمْ يَنْظَرُونَ ، ثُمَّ جَمَعُوا السَّمْكَ يَوْمَ الْأَحَدِ .. فَتَرَاهُمْ قَدْ خَادُوا وَمَكَرُوا بِنَصْبِ الشَّبَّاكِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَجَلَسُوا كَالْمُسْتَخْفَفِينَ بِرَبِّهِمْ يَوْمَ السَّبْتِ يَضَعُونَ أَيْدِيهِمْ فِي جِيوبِهِمْ وَهُمْ يَنْظَرُونَ إِلَى السَّمْكِ يَتْسَاقِطُ فِي شَبَّاكِهِمْ الَّتِي نَصَبُوهَا وَيَقُولُونَ : يَا رَبَّ ، انْظُرْ كَيْفَ نَحْنُ مُطِيعُونَ لَكَ يَوْمَ السَّبْتِ فَلَمْ نَصْنَعْ شَيْئًا مُطْلَقًا .. وَهِيَهَاتِ هِيَهَاتِ .

تَعَالَ مَعِي إِلَى سَرْدِ الْقِصَّةِ :

«كَانَ بَنُو إِسْرَائِيلَ قَدْ طَلَبُوا أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ يَوْمَ رَاحَةٍ يَتَخَذُونَهُ عِيدًا للعبادة ؛ وَلَا يَشْتَغِلُونَ فِيهِ بِشَؤُونِ الْمَعَاشِ ، فَجَعَلَ لَهُمْ السَّبْتَ .. ثُمَّ كَانَ الْاِبْتِلَاءُ لِيَرِيَّهُمُ اللَّهُ وَيَعْلَمُهُمْ كَيْفَ تَقْوَى إِرَادَتُهُمْ عَلَى الْمُغْرِيَاتِ وَالْأَطْمَاعِ ؛ وَكَيْفَ يَنْهَضُونَ بِعَهْوَدِهِمْ حِينَ تَصْطَدُمُ بِهِنَّ الْمُغْرِيَاتِ وَالْأَطْمَاعِ .. وَكَانَ ذَلِكَ ضَرُورِيًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ تَخَلَّخُتْ شَخْصِيَّاتُهُمْ وَطَبَاعُهُمْ بِسَبِبِ الذُّلِّ الَّذِي عَاشُوا فِيهِ طَوِيلًا ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ تَحرِيرِ الإِرَادَةِ بَعْدِ الذُّلِّ وَالْعَبُودِيَّةِ ؛ لِتَعْتَادَ الصِّمْدَةِ وَالثِّباتِ . فَضَلَّا عَلَى أَنَّ هَذَا ضَرُورِيٌّ لِكُلِّ مَنْ يَحْمِلُونَ دُعَوةَ اللَّهِ ؛ وَيُؤْهَلُونَ لِأَمَانَةِ الْخِلَافَةِ فِي الْأَرْضِ .. وَقَدْ كَانَ اخْتِبَارُ الإِرَادَةِ وَالْاسْتِعْلَاءِ عَلَى الإِغْرَاءِ هُوَ أَوَّلُ اخْتِيَارٍ وُجْهَ مِنْ قَبْلٍ إِلَى آدَمَ وَحَوَاءِ .. فَلَمْ يَصْمُدَا لَهُ وَاسْتَمْعَا لِإِغْرَاءِ الشَّيْطَانِ بِشَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكِ

لا يُبَلِّى ! ، ثُمَّ ظَلَّ هو الاختبار الذي لا بُدَّ أنْ تجتاره كُلُّ جماعةٍ قَبْلَ أَنْ يأذنَ اللَّهُ لَهَا بِأَمَانَةِ الْاسْتِخْلَافِ فِي الْأَرْضِ .. إِنَّمَا يختلفُ شَكْلُ الابتلاءِ ، وَلَا تَغْيِيرَ فِحْوَاهُ !

وَلَمْ يَصْمُدْ فَرِيقٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ - فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ - لِلابْتِلَاءِ الَّذِي كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِسَبِّبِ مَا تَكَرَّرَ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ فَسُوقِهِمْ وَانْحرافِهِمْ .. لَقَدْ جَعَلَتْ الْحِيتَانُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ تَتَرَاءَى لَهُمْ عَلَى السَّاحِلِ ، قَرِيبَةً الْمَأْخَذِ ، سَهْلَةً الصَّيْدِ . فَتَفَوَّتُهُمْ وَتَفَلَّتُ مِنْ أَيْدِيهِمْ بِسَبِّبِ حُرْمَةِ السَّبْتِ الَّتِي قَطَعُوهَا عَلَى أَنفُسِهِمْ ! ، فَإِذَا مَضَى السَّبْتُ وَجَاءَتْهُمْ أَيَّامُ الْحِلَّ ؛ لَمْ يَجِدُوا الْحِيتَانَ قَرِيبَةً ظَاهِرَةً ، كَمَا كَانُوا يَجِدُونَهَا يَوْمَ الْحُرُمِ ! .. وَهَذَا مَا أَمْرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَذَكِّرَهُمْ بِهِ ، وَيَذَكِّرَهُمْ مَاذَا فَعَلُوا وَمَاذَا قَالُوا ..

عَلَى أَيَّةٍ حَالٍ ، لَقَدْ وَقَعَ ذَلِكَ لِأَهْلِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. فَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ تَهْيِجُ مَطَامِعَهُمْ أَمَامَ هَذَا الإِغْرَاءِ ، فَتَسْتَهَا وَأَيْزَانُهُمْ ، وَيَنْسَوْنَ عَهْدَهُمْ مَعَ رَبِّهِمْ وَمِيثَاقِهِمْ ، فَيَحْتَالُونَ الْجِيلَ - عَلَى طَرِيقَةِ الْيَهُودِ - لِلصَّيْدِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ ! ، وَمَا أَكْثَرُ الْجِيلِ عِنْدَمَا يَلْتَوِي الْقَلْبُ ، وَتَقْلِيلُ التَّقْوَى ، وَيُصْبِحُ التَّعَامِلُ مَعَ مَجْرِ النَّصُوصِ ، وَيُرَادُ التَّفْلُتُ مِنْ ظَاهِرِ النَّصُوصِ^(١) .

إِنَّ أَوَامِرَ الشَّرِيعَةِ وَنُوَايِّهَا لَا يَحْرُسُهَا مَجْرُدُ وَجُودِ النَّصُوصِ فِي الْكُتُبِ أَوْ عَلَى أَلْسِنَةِ الدُّعَاةِ وَالْوُعَاظِ ، بَلْ وَلَا السِيفُ وَلَا الْمِدْفَعُ ؛ إِنَّمَا

(١) الظلال (٣/١٣٨٣ - ١٣٨٤) بِتَصْرِفِهِ .

تَحْرُسُهَا الْقُلُوبُ الْيَقْظَةُ التَّقِيَّةُ الَّتِي تَسْتَقِرُ تَقْوِي اللَّهَ فِيهَا وَخَشِيَّهُ ، فَتَحْرُسُ هِيَ شَرِيعَتَهَا وَتَحْمِيَهَا . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

«إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ وَبَيْنُهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسَ فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتَ فَقَدْ اسْتَبَرَأَ لِدِينِهِ وَعَرَضَهُ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ ، كَالرَّاعِي بَرْعَانِ حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعِ فِيهِ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى ، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ» ، ثُمَّ عَقَبَ عَلَى ذَلِكَ بِقُولِهِ : «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْعَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِيَ الْقُلُوبُ»^(١) .

فِيهَا قَلْنَا : حلال .. حرام .. يجوز .. لا يجوز .. يجب .. يُكَرِّه .. فلن يَجِدَ هَذَا الْكَلَامُ صَدِّي إِلَّا عِنْدَ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ التَّقِيَّةِ وَالنَّوَايَا الطَّيِّبَةِ .

«مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَفْشِلُ الْأَنْظَمَةُ وَالْأَوْضَاعُ الَّتِي لَا تَقْوِيُ عَلَى حِرَاسَةِ الْقُلُوبِ التَّقِيَّةِ . وَتَفْشِلُ النَّظَرِيَّاتُ وَالْمَذَاهِبُ الَّتِي يَضْعِفُهَا الْبَشَرُ لِلْبَشَرِ وَلَا سُلْطَانٌ فِيهَا مِنَ اللَّهِ .. وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ تَعْجَزُ الْأَجْهِزَةُ الْبَشَرِيَّةُ الَّتِي تُقْيِيمُهَا الدُّولُ لِحِرَاسَةِ الْقَوَافِنِ وَتَنْفِيذِهَا . وَتَعْجَزُ الْمُلاَحِقَةُ وَالْمُراَقِبَةُ الَّتِي تُتَابِعُ الْأَمْوَارَ مِنْ سُطُونِهَا !

وَهَكَذَا رَاحَ فَرِيقٌ مِنْ سُكَّانِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ يَحْتَالُونَ عَلَى السَّبَّتِ ، الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْهِم الصَّيْدُ فِيهِ .. وَرُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ

(١) متفق عليه: البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الحواجيز على السُّمَكِ وَيُحَوِّلُونَ عَلَيْهِ فِي يَوْمِ السَّبْتِ؛ حَتَّى إِذَا جَاءَ الْأَحَدُ سَارُوا إِلَيْهِ فَجَمِعُوهُ؛ وَقَالُوا: إِنَّهُمْ لَمْ يَصْطَادُوهُ فِي السَّبْتِ، فَقَدْ كَانَ فِي الْمَاءِ - وَرَاءَ الْحَوَاجِزِ - غَيْرَ مَصِيدٍ»^(١).

وَأَنَّى لَهُمْ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى اللَّهِ؛ وَاللَّهُ - سُبْحَانَهُ - يُرَاقِبُ خَلْجَاتِ النُّفُوسِ وَأَسْرَارِ الْقُلُوبِ.. فَمَنْهُمَا قَالُوا: «غَيْرَ مَصِيدٍ» بِالسِّتْهِمِ؛ فَقَدْ اصْطَادُوهُ بِقُلُوبِهِمْ وَنِيَّاتِهِمْ..

فِيَا مَنْ تَصِيدُ الْمُعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ مَكْرًا وَخِدَاعًا، اللَّهُ يَرَاكَ وَيَعْلَمُ نُوَايَاكَ؛ فَاتَّقُ اللَّهَ وَاحْذَرْ مَغْبَةَ ذَنْبِكَ وَعَاقِبَةَ فِعْلِكِ.. وَمَنْهُمَا خَدَعَتِ النَّاسَ وَمَكَرَتِ عَلَى الْخَلْقِ وَدَخَلَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ؛ فَلَنْ تَخْدَعَ اللَّهَ.. وَإِذَا مَكَرْتِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ ﴿لَا يَحِيقُ الْمَكْرُ لِسَيِّئٍ إِلَّا بِأَهْلِهِ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنْتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتِ اللَّهِ تَبِدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنْتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

يَا مَنْ تَمْلأُ قَلْبَكَ بِالْهَمْمَ وَتُدَنِّسُهُ بِالْمُعَاصِي عَامِدًا، ثُمَّ تَسْأَلُ اللَّهَ سَلَامَةَ الْقَلْبِ!.. إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ.. مُسْتَمِرٌ فِي شَحْنِ قَلْبِكَ بِالْهَمْمَ وَمَتَعِمِدٌ.. تَحْمِلُهُمُ الْمَالِ وَهُمُ الْلُّبْسُ وَهُمُ الصِّيفِ وَهُمُ الشَّتَاءُ وَهُمُ الْعِيَالِ وَهُمُ الْبَنَاتِ وَهُمُ الْمُرْتَبِ وَهُمُ الشُّغْلِ وَهُمُ.. وَهُمُ.. وَتَقُولُ: يَا رَبِّ، طَهِّرْ قَلْبِي.. وَأَنْتَ الْمَداومُ عَلَى تَدْنِيسِهِ!!.. إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ.. اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا يَا رَبِّ.

حَرِيصٌ عَلَى الدِّنِيَا، غَافِلٌ عَنِ الْآخِرَةِ، كَثِيرُ الذُّنُوبِ، بَطِيءُ التَّوْبَةِ،

(١) المَرْجَعُ السَّابِقُ (١٣٨٤/٣).

ثم تشكو قسوة القلب !! .. إنَّ هذا لمكرٌ .. إياكَ أنْ تمكرَ .. كن صادقاً مع الله .. لا تكن ثعلباً؛ فالطريقُ وَعَرَّةٌ .. الطريقُ إلى الله وَعَرَّةٌ، ولن تصلَ إلا ب توفيقه ، أَفَبِهِ تمكرٌ وهو دليلُكَ الْوَحِيدُ؟! !

ولذا إذا أردتَ الوصولَ إلى الله؛ فتُبْ من المكرِ ، فاجعل همومنك هماً واحداً هو الله .. الهمومُ نَجْسَةٌ فطهر قلبك منها .. اللَّهُمَ طهُرْ قلوبنا يا رب .

أسباب تطهير القلب من الهموم

ولكي أساعدك - ساعَدَنِي اللهُ وإِيَّاكَ - ، فمن أسبابِ تطهيرِ القلبِ من الهموم سبعةٌ :

أوَّلًا : الصلاة على النَّبِيِّ ﷺ :

لَمَّا قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَجْعَلْ كُلَّ دُعَائِي صَلَاتَةً عَلَيْكَ؟ ؟
قَالَ : «إِذَا يَكْفِكَ اللَّهُ مَا أَهْمَكَ»^(١) .

وفي الرواية الثانية : «يُغْفَرْ ذَنْبُكَ وَتُكْفَ مَا أَهْمَكَ»^(٢) .

أحد مشايخنا ذهب إليه رجلٌ يشتكي سرقة سيارته ، فقال له : اذهب واجلس في المسجدِ وصلِّ الصلاة الإبراهيمية : «اللَّهُمَ صلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ

(١) أخرجهُ : أَحْمَدُ (١٣٦/٥) ، وابن أَبِي شِيْبَةَ (٢٥٣/٢) ، (٣٢٥/٦) ، والطَّبَرَانِيُّ (٣٥/٤) ، وهو حديث حسن .

(٢) أخرجهُ : التَّرمِذِيُّ (٢٤٥٧) وقال : حَسْنٌ صَحِيحٌ ، وَالحاكم (٤٢١/٢) ، وقال الألبانيُّ : حسن .

وعلی آل محمدٍ كما صلیت علی إبراهیم وعلی آل إبراهیم إنك حمید مجید . اللَّهُم بارکْ علی محمدٍ وعلی آل محمدٍ كما بارکَت علی إبراهیم وعلی آل إبراهیم إنك حمید مجید» . وسبحان الله العظیم ! ما ارتفعت الشمس بعد صلاة الفجر إلى الضحى إلا وعادت إليه سيارته .. وهذا ليس كلاماً صوفياً ، ولكنه يقین في الحديث .. الصوفيُّ صاحبُ بدعة يؤلِّفُ لك حکایة ، أما أنا فأكلمك في السنة .. هذا كلام النبي ﷺ .. صلٌّ عليه يكفِك الله ما أھمك .. أيُّ شيءٍ تحملُ همَّه فأكثُر من الصلاة على النبي ﷺ يُفرج ويُقضَ وَيُحلُّ .

ثانِيًا : قراءة المعزتين :

قال رسول الله ﷺ : من قرأ «قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق حين يصبح وحين يمسى كفاه الله كلَّ ما أھمَّه»^(١) .. ولكن الشرط - يا شباب - : اليقين والاحتساب ، وهو أنْ أقرأها وأنوي بقراءتها أن يكفيَنِي الله همومي .. أقرؤها وأنا أعلم يقيناً بأنَّ الله قادرٌ أن يكفيَنِي همومي ، وأنَّ النبي ﷺ صدَّق .. اقرأها باليقين والاحتساب يكفِك الله ما أھمَّك .

ثالثًا : تركُ : حسيَ الله :

قال رسول الله ﷺ : «من قال حين يصبح وحين يمسى حسيَ الله

(١) أخرجه : أبو داود (٥٠٨٢) ، ك : الأدب ، ب : ما يقول إذا أصبح ، والترمذئي (٣٥٧٥) ، ك : الدعوات وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الألباني رحمه الله تعالى - : حسن .

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَبْعَ مَرَاتٍ ؛ كَفَاهُ اللَّهُ كُلَّا مَا أَهْمَمَهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ^(١) .

أَثْنَاءَ قَوْلِكَ : حَسْبِيَ اللَّهُ ؛ تَدْبِرْ مَعْنَاها .. حَسْبِيَ اللَّهُ .. كَفِيلِي .. لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ .. تَخْيِيلُ الْقَبْرِ حَتَّى يَكْفِيَكَ هَمُّ الْقَبْرِ ، وَالصَّرَاطَ حَتَّى يَكْفِيَكَ هَمُّ الصَّرَاطِ ، وَتَطَايِيرُ الصَّحْفِ حَتَّى يَكْفِيَكَ تَطَايِيرُ الصَّحْفِ ، وَالْمِيزَانَ حَتَّى يَكْفِيَكَ هَمُّ الْمِيزَانِ ، وَالْعَرْضَ عَلَى اللَّهِ حَتَّى يَكْفِيَكَ هَمُّ الْعَرْضِ عَلَيْهِ .. .

رَابِعًا : نِكْرُ دُعَاءِ الرَّسُّوْلِ :

قال رسول الله ﷺ : «من قال : اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمْتِكَ ، ناصِيَتِي بِيْدِكَ ، ماضٍ فِي حُكْمِكَ ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَّتَ بِهِ نَفْسَكَ ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ ، أَوْ عَلَمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عَنْدَكَ ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي ، وَشَفَاءَ صَدْرِي ، وَجَلَاءَ هَمِّي وَغَمِّي ؛ إِلَّا أَبْدَلَهُ اللَّهُ مَكَانَ الْهَمِ فَرْجًا». قالوا : يا رسول الله : أَنْتَ عَلَمْهَا ؟ ، قال : «يَنْبَغِي لِكُلِّ مَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»^(٢) . إِذَا فَلِيزْمُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ حَفْظُ هَذَا الْحَدِيثِ .

(١) أَخْرَجَهُ : أَبُو دَاوُد (٥٠٨١) ، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الضَّعِيفَةِ» (٥٢٨٦) : مُنْكَرٌ ، وَإِسْنَادُ الْمَوْقُوفِ رَجَالَهُ ثَقَاتٌ .

(٢) أَخْرَجَهُ : أَحْمَد (٣٩١/١) ، ٣٧١٢ (٤٣١٨) ، وَالْحَاكُمُ (٥٠٩/١) ، وَقَالَ أَحْمَدُ شَاكِرُ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

خامساً : الاستغفار :

قال رسول الله ﷺ : «من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحسب»^(١).

سادساً : جعل الهموم همّا راصداً :

قال رسول الله ﷺ : «من جعل الهموم همّا واحداً هم الآخرة كفاه الله ما أهمه، ومن تشعبت به الهموم لم يبال الله به في أي أودية الدنيا هلك»^(٢).

إذا فَهْمُكْ لِيلَ نهارَ هُوْ : يا تُرَى هل الله راض عنِي أَمْ لَا؟.. هل لو مِثْ الآن سأدخلُ الجنة أَمَ النَّار؟.. يا تُرَى سأقُعُ على الصراط أَم سأمُرُ بِسَلَام؟.. يا تُرَى الميزانُ أَيُّ كَفَتِيهِ سَتَخْفُ؟.. عند تطايرِ الصحفِ سَأَخْذُ بِاليمينِ أَم بالشَّمَال؟.. هذا هَمْكَ الرَّئِيسُ والأَسَاسُ: الآخرة.. أما همومُ الدنيا فكثيرةٌ وهِينَةٌ على اللهِ، ومن تشعبت به عاشَ شَقِيًّا وماتَ شَقِيًّا.

سابعاً : الدعاء :

الدُّعَاءُ سَلاْحُكَ، فادْعُ اللَّهَ أَنْ يجْمَعَ عَلَيْكَ شَمَلَكَ وَيَكْفِيَكَ مَا أَهَمَكَ، اضْرِعْ إِلَيْهِ وَقُلْ : اللَّهُمَّ فَرِّغْ قَلْبِي لَكَ حَتَّى لَا يَحُولَ بَيْنِي

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ، وَقَالَ أَحْمَدُ شَاكِرَ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى - : إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

(٢) أَخْرَجَهُ : ابْنُ ماجِهِ، وَقَالَ عَنْهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى - : حَسْنُ «صَحِيحُ الْجَامِعِ» (٦٠٦٥).

وبينك شيء .. اللَّهُمَّ اجعل همومي همًا واحدًا هو لك ، واجعل أشغالي شُغلاً واحدًا هو بك ، واجعل أفكاري فكرةً واحدةً هي فيك .. ارحمني يا ربِّي وجَمْعُ شَتَّاتِ قلبي .. اكفني ما أهْمَنِي وغمَنِي .. قل : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ .. ادعُ اللَّهَ وَهُوَ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قرِيبٌ يستجيب دعاء المهموم المضطرب^(١) .

وهكذا يا أخي في الله يا طالب الوصول يكون الهم .. فظہر قلبك من هموم الدنيا .. وكن صادقاً ، ولا تمكر بالله حتى لا يمكر بك فتكون من الهالكين الخاسرين .. اجعل همك الذي تعيش له وتعيش به : هو الدار الآخرة .. رضا الله وفقط .. فلا تمكر وإلا فلن تصل إلى الله على الإطلاق .

* * *

(١) ننصح هنا بقراءة الباب السادس «الدعاء» من كتاب «فَقَرُوا إِلَى اللَّهِ» ذلكم الكتاب المبارك الذي كتب اللَّهُ لِهِ القَبُولَ فِي الْأَرْضِ ، لشيخنا الكرييم أبي ذر القلمونى - أثابه اللَّهُ .

الأصل التاسع عشر

اجن العسل ولا تكسر الخلية

لكل باب مفتاح؛ فاجن العسل ولا تكسر الخلية.

بعض الناس إذا أراد أن يحصل على عسل من خلية النحل يدب برجله فيها فيدغدغها .. مهلاً مهلاً فلها مفتاح .. إذا كنت لا تعرف فأنت بمن يعرف حتى تأكل عسلاً .. وتترك الخلية تخرج العسل مرة ثانية .. لا تكسر الخلية.

أيها الإخوة ، إن بعضنا حينما يسير في الطريق إلى الله ويريد أن يعني شيئاً من الخير؛ تراه يهجم عليه بدونوعي ولا امتلاك مفاتيح .. مفاتيح الوصول .. سيسكب عسلاً ولكن لآخر مرة .. فافهم ولا تهجم .. وادع الله أن يرزقك الفهم في دينك .. اللهم فهمنا ما تحبه وترضاه لنفعه ، اللهم بلغنا رضاك يا رب .

وقد ذكر ابن القيم في كتابه القسم «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» - اللهم بلغنا بلاد الأفراح يا رب - ذكر مجموعة مفاتيح ؛ فقال - **رحمه الله تعالى** - :

«وقد جعل الله - سبحانه - لكل مطلوب مفتاحاً يُفتح به ؛ فجعل مفتاح الصلاة الطهور .. كما قال : مفتاح الصلاة الطهارة .. ومفتاح

الحج الإحرام .. ومفتاح البر الصدق .. ومفتاح الجنة التوحيد .. ومفتاح العلم حسن السؤال وحسن الإصغاء .. ومفتاح النصر والظفر الصبر .. ومفتاح المزيد الشكر .. ومفتاح الولاية المحبة والذكر .. ومفتاح الفلاح التقوى .. ومفتاح التوفيق الرغبة والرهبة .. ومفتاح الإجابة الدعاء .. ومفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا .. ومفتاح الإيمان التفكير فيما دعا الله عباده إلى التفكير فيه .. ومفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته له .. والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك .. ومفتاح حياة القلب تدبر القرآن والتضرع بالأسحار وترك الذنوب .. ومفتاح حصول الرحمة الإحسان في عبادة الخالق والسعى في نفع عبيده .. ومفتاح الرزق السعي مع الاستغفار والتقوى .. ومفتاح العز طاعة الله ورسوله .. ومفتاح الاستعداد لآخرة قصر الأمل .. ومفتاح كل خير الرغبة في الله والدار الآخرة .. ومفتاح كل شر حب الدنيا وطول الأمل»^(١).

قال ابن القيم: «مفتاح الصلاة الطهور» .. فلكي تصلي كما ينبغي توضأ كما ينبغي .. يقول العلماء: وإذا أخطأ الإمام ولبس عليه في الصلاة؛ فإن هذا دليل على أن من خلفه لم يحسن الوضوء.

فانظر كيف تؤثر طاعة أو معصية المأمور على الإمام .. وإذا كان تأثيره يصل إلى الإمام بما بالك على صلاته هو .. إذا حينما تقول لي: أنا أشروع بذهني في الصلاة؛ أقول لك توضأ وضوءاً بحق .. نريد ونحن

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤٨).

نَتَوْضَأُ أَنْ نُحِسَّ بِمَعْنَى كُلِّ حَرْكَةٍ .. فَإِذَا غَسَلَتْ يَدِيكَ فَانظُرْ لِلْمَيَاهِ وَاسْتَشُعِرْ نَزْوَلَ الذُّنُوبِ مَعْهَا .. اسْتَشُعِرْ تِسْاقِطَ الذُّنُوبِ الَّتِي جَتَّهَا يَدَاكَ .

قال رسول الله ﷺ : «فَإِذَا غَسَلَ الْعَبْدُ يَدِيهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ، فَإِذَا تَمْضِمْضَ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَهَا لِسَانُهُ حَتَّى تَخْرُجَ الْخَطَايَا مِنْ بَيْنِ أَسْنَانِهِ»^(١) .

تَخَيَّلْ وَأَنْتَ تَغْسِلُ وَجْهَكَ .. تَخْيلُ الْخَطَايَا وَهِيَ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِ أَشْفَارِ عَيْنِكَ .. عَيْنِكَ هَذِهِ الَّتِي كَمْ جَنَّتْ .. فَتَوْضَأُ بِحَقٍّ؛ فَالْوُضُوءُ مِفْتَاحُ الصَّلَاةِ .. «وَمِفتَاحُ الْحَجَّ الْإِحْرَامُ»؛ فَإِذَا أَحْرَمْتَ كَمَا يَنْبَغِي؛ اسْتَمْتَعْتَ بِالْحَجَّ؛ فَحَجَجْتَ بِحَقٍّ .. الْمَفَاتِيحُ كَثِيرَةٌ ..

فَأَمْسِكِ الْمَفَاتِيحَ يُفْتَحُ لَكَ الْبَابُ ، أَمَا إِذَا تَرَكْتَ الْمَفَاتِيحَ وَكَسَرْتَ الْبَابَ .. فَسَتَدْخُلُ؛ وَلَكِنْ سَتَفْقَدُ الْعَسْلَ بَاقِيْ عُمُرِكَ .

وللشّرّ مفاتيح :

فِيمَفْتَاحُ الزِّنَا النَّظَرُ . وَمِفْتَاحُ النَّارِ الإِعْرَاضُ عَنِ اللَّهِ . وَمِفْتَاحُ النِّفَاقِ الْكَذِبُ . وَمِفْتَاحُ الرِّيَاءِ الْجَدْلُ . وَمِفْتَاحُ كُلِّ إِثْمِ الْخَمْرِ . وَمِفْتَاحُ الْعِشْقِ الْاِخْتِلاَطُ .. هَذِهِ مَفَاتِيحُ الشَّرِّ فَاعْرُفْهَا جَيْدًا .

قال ابن القيم : «كَمَا جَعَلَ - سَبَحَانَهُ الشُّرُكُ وَالْكَبْرُ وَالْإِعْرَاضُ عِمَّا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَالْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِهِ وَالْقِيَامُ بِحَقِّهِ مِفْتَاحًا لِلنَّارِ ، وَكَمَا جَعَلَ الْخَمْرُ مِفْتَاحَ كُلِّ إِثْمٍ .. وَجَعَلَ الْغُنْيَ مِفْتَاحَ الزِّنَا .. وَجَعَلَ إِطْلَاقَ النَّظَرِ فِي الصُّورِ

(١) أَخْرَجَهُ : مُسْلِمٌ (٢٤٤) .

مفتاح الطلب والعشق . . وجعل الكسل والراحة مفتاح الخيبة والحرمان . .
وجعل الماصي مفتاح الكفر . . وجعل الكذب مفتاح النفاق . . وجعل الشح
والحرص مفتاح البخل وقطيعة الرحمة وأخذ المال من غير حله . . وجعل
الإعراض عمما جاء به الرسول مفتاح كل بذلة وضلاله^(١) .

فلذلك - أيها الإخوة - ايتوا البيوت من أبوابها . . فإذا أتيت الباب
فاملك المفتاح تدخل وتأصل .

أيها الإخوة ، إننا بحاجة إلى أن نملك المفاتيح التي تفتح بها أبواب
الخير إلى الله . .

قال ابن القيم : « وهذا باب عظيم من أنسع أبواب العلم ، وهو معرفة
مفاتيح الخير والشر ، لا يوفق لمعرفته ومرعااته إلا من عظم حظه
وتوفيقه ؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - جعل لكل خير وشر مفتاحاً وباباً
يدخل منه إليه »^(١) .

ثُمَّ يُعَقِّبُ - رحمة الله - في نهاية كلامه عن المفاتيح قائلاً :

« وهذه الأمور لا يصدق بها إلا كل من له بصيرة صحيحة وعقل يعرف
به ما في نفسه وما في الوجود من الخير والشر ؛ فينبغي للعبد أن يعتني كل
الاعتناء بمعرفة المفاتيح وما جعلت المفاتيح له ، والله من وراء توفيقه
وعده له الملك ولهم الحمد ولهم النعمة والفضل لا يسئل عما يفعل وهم
يُسئلون »^(١) .

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (٤٩) .

أخي في الله ، هذا أصل إياك أن تنساه .. لكل خير باب ، ولكل باب مفتاح .. فإن أتيت الباب فقد أهلت للخير فاستعد .. وكما يقول أهل الأمثال : «إنما يسقط التفاح لمن يبحث عنه تحت الشجرة» .. فهل الذي يبحث عن التفاح تحت عمود الكهرباء سينزل عليه تفاح؟! .. لا يمكن .. وإنما ينزل التفاح للذي يبحث عنه في مكانه المناسب ، فلذلك لكل خير باب إذا أتيته فقد أهلت للخير ، ولم يبق لك إلا أن تفتح الباب .

وإذا كان فتح الباب بالمفتاح ، فالمفتاح لابد أن يكون له أسنان ، قال رسول الله ﷺ : «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»^(١) .. فكل مفتاح له أسنان ، وأسنان لا إله إلا الله شرائع الإسلام وسنن المصطفى ﷺ .. إذا فلا تقل : ربنا عفور رحيم ، وتترك العمل ، لأنك بذلك تكسر الخلية .. فأين مفاتيحك وأين أسنانها؟!!

قال وهب بن منبه حين قيل له : أليس قد قال رسول الله ﷺ : «مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟» ، قال : «بلى ، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان ، ففتح لك ، وإلا لم يفتح لك»^(٢) .

فلذلك فإن «لا إله إلا الله» لها «أسنان» .. شروط .. حقيقها ليُفتح لك باب الجنة .. فللجنّة باب ، وللباب مفتاح ، وللمفتاح أسنان ، وكذلك كل أنواع الخير لها أبواب .

(١) أخرجه : أحمد (٢٤٢/٥) ، والبزار (٩/١) «كشف الأستار» رقم (٢) ، وإسناده ضعيف .

(٢) أخرجه : البخاري عن وهب بن منبه معلقاً في كتاب الجنائز ، ب : في الجنائز ، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله ١٠٩/٣ فتح) .

والقضية الخطيرة أن بعضنا يأتي بباب الخير ثم يرجع .. اللهم ثبّتنا على الإيمان يا رب .. كثير من الناس أكرمه الله وتاب عليه بعد أن كان يعمل في الذنوب والمعاصي ، ثم عاد وآخر المعصية وترك الطاعة وابتعد عن طريق الله - اللهم ثب علينا توبه ترضيك ، اللهم إنا نسألك توبة من عندك تصلح بها قلوبنا ، وتهدي بها أفئدتنا ، وتنور بها بصائرنا .

أحبتي في الله ، تجد بعض الشباب الذين عرفوا طريق الخير قد وصل إلى الباب فدخل المسجد وحضر الدروس وسمع الشرائط ، فوقف بهذا على الباب ؛ وفجأة تجده قد أعطى الباب ظهره ! .. قال الملك : ﴿وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْرِي اللَّهُ السَّكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

وسبب هذا الرجوع - إخواته - إننا في زمان التزيين .. فتنة التزيين .. نعم : التزيين فتنة خطيرة جداً في هذه الأيام .. إننا في زمان يزيّن فيه الباطل ، ويُجمّل ، ويُظْهِر في صورة الحق فتنبه النّفوس فتفتن .

ومن أخطر أسباب التزيين^(١) : الهوى - اللهم إنا نعود بك من الهوى - ، وأخطر ما في الهوى أن سلطانه قويٌ ، ومكرهٗ حفيٌ .. الهوى هو المزاج .. مراجوك الشخصي .. كم من أناسٍ من حولنا تابوا - يا رب ثبّتنا على التوبة يا رب - ؛ فبدأ الواحد منهم يصلّي وانتهٗ عن المشي مع البنات ، وألغى اسطوانات «المزيكا والديسكو» .. لكن في داخله هوٰ .. في نفسه هوٰ : أنه لا يزال يود أن يعصي لิستمتع بالمعصية .

إذاقرأ في الجرائد فوجد الشيخ الفلاني يسأل عن الأغاني فيقول :

(١) لنا خطبة في شريط بعنوان «فتنة التزيين» استمع إليها تُفَدِّ بإذن الله .

«الأغاني كالشعر حَسَنُهُ حَسَنٌ وَقَبِيْحُهُ قَبِيْحٌ»؛ فمَاذا تتوقع منه؟! .. لا شكّ أنه سيفتن بفتوى مُضللة مُلبيسة. وليس قول هذا الشيخ: «أنا أسمع الغناء» بحجّة لنفسه أو لغيره.

الشاهد: أن الشّباب حينما يقرأ هذه الفتّاوی البلاوی؛ يقول: إذا فهـي حلالٌ، ويبدأ في تشغيلها لغلبة الـهـوى، ولا حول ولا قـوـة إلا بالله.

والله - يا إخوة - إن أحد إخوانكم كان معـي في المسـجد وفي الدـرس ، بل وكان يـحضرـ معـي في السيـارة .. فـتن - اللـهم رـدـهـ إـلـيـنـاـ رـدـاـ جـميـلاـ .. قال ليـ: سـمعـتـ قـليـلاـ منـ «ـالـغـنـاءـ» وـبـعـدـهاـ غـرـقـتـ فـيـ بـحـرـ الشـهـوـاتـ .. تـاهـ .. ضـلـ .. لأنـ المـنـزـلـقـ خـطـرـ .. سـلـطـانـ الـهـوىـ قـويـ .. وـتـيـارـهـ جـارـفـ .. وأـمـواـجـهـ تـرمـيـ بعيدـاـ عنـ الشـاطـئـ فـيـ دـاخـلـ الـبـحـرـ .

نعم: سـلـطـانـ الـهـوىـ عـلـىـ الـقـلـبـ وـالـعـقـلـ قـويـ وـخـفـيـ . تـجـدـ صـاحـبـ الـهـوىـ يـقـولـ: سـأـمـعـتـ نـفـسـيـ بـعـضـ الشـيـءـ وـبـعـضـ الـوقـتـ - يـقـصـدـ بـالـمـعـصـيـةـ! - ، ثـمـ إـنـيـ أـعـوـدـ إـلـيـ اللـهـ ، إـذـاـ فـلنـ أـتـضـرـ كـثـيرـاـ .. أـقـولـ لـكـ: أـنـتـ لـاـ تـضـمـنـ ، فـقـدـ يـسـخـطـ اللـهـ عـلـيـكـ وـقـتـ مـعـصـيـتـكـ - هـذـهـ التـيـ تـسـتـصـغـرـهـاـ - فـتـنـحـرـفـ وـتـنـجـرـفـ لـتـعـيـشـ فـيـ الطـيـنـ .

الـلـهـمـ ثـبـتـنـاـ عـلـىـ الإـيمـانـ يـاـ ربـ .. اللـهـمـ إـنـاـ نـسـأـلـكـ الـثـبـاتـ عـلـىـ الـحـقـ ، وـالـعـزـيمـةـ عـلـىـ الرـسـدـ ، وـالـغـنـيـمةـ مـنـ كـلـ بـرـ ، وـالـسـلـامـةـ مـنـ كـلـ إـثـمـ .. اللـهـمـ اـصـرـفـ عـنـاـ مـكـرـ الـهـوىـ وـالـنـفـسـ وـالـشـيـطـانـ .

والشاهد: أن بعض الناسـ بلـ الـكـثـيرـ يـأـتـونـ الـبـابـ - وهذا فـضـلـ اللـهـ عـلـيـهـمـ -؛ وـلـكـنـهـمـ لـاـ يـرـيدـونـ وـلـوـجـهـ .. لـاـ يـرـيدـونـ أـنـ يـدـخـلـوـاـ فـيـ

الطاعة ، ويستمرون فيها ويشتتوا عليها . . لا يريدون ذلك ؛ لأن قلوبهم قد أشربت الهوى . . فَرَاهُمْ يَرْجُونَ خَيْرَ ظُهُورِهِمْ . . لأنهم لم يمتلكوا من البداية مفاتيح الخير؛ بل حرصوا على مفاتيح الشر كالهوى الذي هو مفتاح كلّ مصيبة . . فتجده قد أتى الباب ، وها هو الباب سيفتح ؛ فإذا به - فجأةً - قد ولّى وترك الباب!! ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فيما من تأتون الأبواب وليس معكم مفاتيحها . . يا من لم تعرفوا مفاتيحها فلم تستطعوا أن تصنعوا شيئاً ، دعوني أعطيكم مجموعه مفاتيح اجعلوها معكم واحتفظوا بها . . وإياكم أن تستعملوا هذه المفاتيح في باب أحدٍ غير الله .

هل لديك استعداد الآن لتأخذ هذه المفاتيح؟ . . وفيما ستأخذها؟ . .
خذها في قلبك . . أريدك أن تعلق هذه المفاتيح في قلبك وتربطها به - اللهم افتح قلوبنا يا رب - ؛ لأن هذه المفاتيح إذا دخلت على قلبك بالحق؛ سيفتح ، ويفتح بها أيضاً قلوباً أخرى مغلقة .

المفاتيح :

أوَّلاً : مفتاح الإجابة الدعاء :

قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : «أَنَا لَا أَحْمَلُ هَمَّ الإِجَابَةِ؛ وَإِنَّمَا أَحْمَلُ هَمَّ الدُّعَاءِ؛ فَإِنِّي إِذَا أَلْهَمْتُ الدُّعَاءَ إِنَّ الإِجَابَةَ مَعَهُ» .

إخوتي الشباب ، وأنت ساجد في الصلاة ماذا طلبت من الله؟ ، وأيُّ الدعاء حضر في قلبك؟ - اللهم ارزقنا حضور القلب يا رب .. هل

طلبت من ربك الفِرْدُوسَ الْأَعْلَى مِنَ الْجَنَّةِ؟ ، هل طلبت منه أن يرزقك قيام الليل؟ ، والخشوع في الصلاة؟ ، هل طلبت منه أن يرزقك الحلم؟ .. طلبت منه التوبة؟ ، طلبت منه الإنابة؟ ، طلبت منه النجاة من الفتنة؟ ، وأن يصرف عنك الأذى؟ .. ماذا سأله؟ !!

للأسف الشديد ، إن أكثرنا يدعوه وهو في عقله . قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِلُ الدُّعَاءَ مِنْ قَلْبٍ عَافَلٍ لَاهٍ»^(١) .. فلذلك إذا أردت شيئاً أو حزبك أمر فالدعاء مفتاحك ، فادع ليفتح لك .. إذا فالإجابة باب ، ومفتاحها الدعاء ، والدعاء باب ومفتاحه حضور القلب ، وأسنان المفتاح الإخلاص .

وإذا لم يفتح الباب فلا تنصرف ولكن ظلّ واقفاً وحاول الفتح .. حرّك المفتاح .. حرّك قلبك بالإخلاص .. لا تتعجل ولا تيأس فبسنة واحدة للمفتاح يمكن الفتح ، ولكن المهم أن تديم الإخلاص فلا تتتعجل؛ قال رسول الله ﷺ : «يَسْتَجِابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ»؛ يقول : دعوت فلم أر يستجيب لي^(٢) .

ثانياً : مفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا :

اللَّهُمَّ إِنَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا .. الدُّنْيَا فِتْنَةٌ .. وَفِتْنَةُ الدُّنْيَا

(١) أخرجه : الحاكم في «المستدرك» (٦٧٠ / ١)، والترمذى (٣٤٧٩)، كـ : الدعوات، بـ : ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ ، وحسنه الألبانى - رحمه الله تعالى - في «صحيح سنن الترمذى» .

(٢) متفق عليه : البخارى (٦٣٤٠)، ومسلم (٢٧٣٥) .

مُصيَّبَةٌ .. وَإِنَّ الْخَطَرَ الأَكْبَرَ فِي الدُّنْيَا تَزَيَّنُهَا .. تَزَيَّنُ الدُّنْيَا؛ قَالَ الْمَلِكُ -
جَلَ جَلَالَهُ - : «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الْشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَرِّيَّاتِ وَالْمَقْنَطِيرَاتِ
الْمُقْنَطَرَةِ مِنَ الْدَّهَبِ وَالْفَضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَمِ وَالْحَرْثَ ذَلِكَ
مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَعَابِ» [آل عمران: ١٤] .. ﴿وَرُخْرُفًا
وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٥].

«دنيا».. ماذا تعني هذه الكلمة؟.. تعني : سيارة أغلى وأفضل ، وأحسن ، وشقة فارهة وملابس ونساء.. ثم ماذا بعد؟!.. دخول جهنم .. هذه هي الحقيقة .

فِيَا مِنْ لَا تَرْكُبُ إِلَّا سِيَارَةً جَدِيدَةً لَتَلْفِتَ نَظَرَ الْبَنَاتِ، فَتَتَنَاهُ الدِّينِيَا
وَتَرِيدُ أَنْ تَفْتَنَ الْآخَرِينَ؟!.. هَذِهِ فَتْنَةٌ عَلَى فَتْنَةٍ، وَمَصْبِيَّهُ عَلَى مَصْبِيَّهِ،
أَنْ نُفَقَّنَ فَنْفَتِنَ الْآخَرِينَ.. فَتَذَكَّرُ أَخْرَتَكَ، تَذَكَّرُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْوَقْوفِ
وَالْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ.. يَوْمُ يُجَاءُ بِجَهَنَّمَ ﴿يَوْمَئِذٍ يَنَذَّكَرُ الْأَيْنَسُنُ وَأَنَّ لَهُ
الْذِكْرَ﴾ [الْفَجْر: ٢٣].. تَذَكَّرُ يَوْمَ تَقُولُ: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِيَكَانِ ﴿فِيَوْمَئِذٍ لَا
يَعْدُبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ ٢٥ وَلَا يُؤْتَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الْفَجْر: ٢٤-٢٦].

ولكي يكون لديك رغبة في الآخرة؛ ازهد في حطام الدنيا الزائل ..
الدنيا زائلة فألقها وراء ظهرك، بل ضعها تحت قدميك .. ونظرة واحدة
إلى مالك تهونها عليك؛ فتأمل حالي يوم وضعلك في التراب، يوم أن
تركت الأهل والأحباب، يوم أن تخلع أحسن الثياب، وترتدي ثياب
الموتى .. وتذكري فقط القبور، فأهواها كافية لجعلك قبل على الآخرة؛
فترزهد في الدنيا.

أصول الوصول إلى الله تعالى

إنَّ الْمَيِّتَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ كَلَمَهُ الْقَبْرِ . . وَهَذَا هُوَ أَوَّلُ هُولٍ «تَكْلِيمُ الْقَبْرِ» . . تُكَلِّمُهُ جُدْرَانُ الْقَبْرِ فَتَقُولُ لَهُ - أَيُّ الْمُؤْمِنِ - : أَمَا إِنْكَ كُنْتَ أَفْضَلَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِيِّ ، أَمَا إِذْ بَلِيتُكَ الْيَوْمَ وَصَرَّتِ إِلَيَّ فِي بَطْنِي فَسَرَّئِي صَنَاعِيِّ بِكِ . . ثُمَّ يَضْمِمُهُ الْقَبْرُ ضَمَّةً الْأَمْ حَنُونٍ لَوْلِدِهَا الْغَائِبِ - اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْهُمْ يَا رَبِّ - ، مُثْلِمًا تَكُونُ رَاجِعًا مِنْ سَفَرٍ فَتَضْمِمُكَ أُمُّكَ إِلَى حُضْنِنَا . . أَخْدَتَكَ بِشَدَّةٍ وَضَمَّتَكَ بِقَوَّةٍ ؛ لَكَنَّهَا ضَمَّةٌ جَمِيلَةٌ . . ضَمَّةٌ مُّرِيَّةٌ . . إِنَّهَا أُمُّكَ الْأَرْضِ . . إِنَّهَا أُمُّكَ وَأَبُوكَ . . أَصْلُكَ وَفَصْلُكَ . .

أَمَا الْآخَرَ - يَا رَبِّ اسْتَرْنَا يَا رَبِّ ، اللَّهُمَّ ارْزَقْنَا حَسْنَ الْخَاتِمَةِ ، اللَّهُمَّ لَا تَتَوَفَّنَا إِلَّا وَأَنْتَ راضٌ عَنَّا - فَيُكَلِّمُهُ الْقَبْرُ فَيَقُولُ لَهُ : أَمَا إِنْكَ كُنْتَ أَعْضَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِيِّ . . فَتَدَبَّرْ - أُخْرَى - حَالَ هَذِينَ الرَّجُلَيْنِ . . فَكَرْ فِي الْيَوْمِ الَّذِي يَضَعُونَكَ فِيهِ فِي الْقَبْرِ وَيَقْفَلُونَ عَلَيْكَ .

كُنْتَ حَاضِرًا دَفَنَ أَحَدَ الْإِخْرَوَةِ - اللَّهُمَّ ارْحَمْ وَارْحِمْ مَوْتَى الْمُسْلِمِينَ يَا رَبِّ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ كُلَّ مَيِّتٍ مُسْلِمٍ يَا حَيُّ يَا قَيْوَمَ - وَنَحْنُ نَرِيُ الرَّجُلَ الَّذِي دَفَنَهُ وَهُوَ يَضْعُ تُرَابًا وَطَوْبًا وَطِينًا وَجَبَسًا!! .. وَيُؤَكِّدُ الْقَفلَ عَلَيْهِ!! .. سَبَحَنَ اللَّهَ هَلْ سَيَجْرِي وَيَتَرُكُ الْقَبْرَ؟! .. اتَرَكَهُ يَا أَخِي لَقَدْ أَوْجَعَتْ قَلْبِي . . سَيَفْعَلُونَ بِكَ مُثَلَّ هَذَا فِي يَوْمِ الْأَيَامِ .

الْكُلُّ سَيَتُرُكَ . . لَنْ تَنْفَعَكَ زَوْجُكَ وَلَا حَبِيبُكَ وَرُوحُ قَلْبِكَ ، «حَيَاتُكَ» الَّتِي ضَيَّعَتْ عُمْرَكَ مِنْ أَجْلِهَا وَعَصَيَتْ رَبَّكَ لِتُرَضِّيَهَا لَنْ تَسْأَلَ عَنْكَ . . وَهُمْ يُغْلِقُونَ عَلَيْكَ الْقَبْرَ لَنْ تَجِدَ أَحَدًا يَجْلِسُ مَعَكَ وَلَا أَحَدًا يُمسِكُ بِكَ . . أُمُّكَ ، أَبُوكَ ، إِخْوَانُكَ ، أَصْدِقَاؤُكَ ، أَحْبَابُكَ ، أَمْوَالُكَ . .

كُلُّهُمْ سَيُسْلِمُونَكَ ثُمَّ يَذْهَبُونَ لِلرَّاحَةِ . . سَيَسْلُدُونَ عَلَيْكَ وَيُحَكِّمُونَ الْعَلْقَةَ
وَيَتَرَكُونَكَ لِتَظْلَلَ وَحْدَكَ؟ ؟ فَتَوَهَّمْ نَفْسَكَ ، وَتَخْيَلَ حَالَكَ .

ظُلْمَةُ . . وَحْشَةُ . . خَوْفُ . . رُعبُ . . عُرْيَانُ . . وَتُفَاجَأُ بِأَنَّ أَحَدًا
يَقُولُ لَكَ : أَمَا إِنَّكَ كُنْتَ أَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي . . مَنْ أَنْتَ؟ . .
مَاذَا جَرِي؟!! . . تَجِدُ جَدْرَانَ الْقَبْرِ تَكَلُّمُكَ!! ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ تَأْتِيكَ
الْمَلَائِكَةُ لِتَسْأَلَكَ : مَنْ رَبُّكَ وَمَا دِينُكَ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ ، وَبَعْدَ انْصَرَافِهِمْ تُفَاجَأُ
بِرَجُلٍ أَسْوَدِ الْوَجْهِ ، أَسْوَدِ الثُّوبِ ، مُنْتَنِ الْرِّيحِ ، فَتَقُولُ لَهُ : مَنْ أَنْتَ؟! ،
فَوِجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي لَا يَجِيءُ بِالْخَيْرِ ، يَقُولُ لَكَ : أَلَا تَعْرِفُنِي ، أَنَا
حَبِيبُكَ . . عَمَلُكَ . .

آهٌ . . آهٌ . . آهٌ . . وَاللَّهِ يَكَادُ الْقَلْبُ يَقْفَ نَبْضُهُ حِينَماً أَتَخْيَلُ هَذَا
الْمَوْقِفَ . . وَالْعَجْبُ - إِخْوَتَاهُ - أَنَّا نَسْمَعُ بِهَذَا الْكَلَامِ وَنَقْرَأُهُ وَنَسْتَوْعِبُهُ
وَنَفَهْمُهُ وَنُعْجَبُ بِهِ ، ثُمَّ نَعْمَلُ أَعْمَالًا سَتَدْخُلُ عَلَيْنَا سَوْدَاءَ : تَزَنِي . .
تَكْدِبُ . . تَنَامُ عَنْ صَلَاةِ . . تَعْتَابُ . . تَثْمُ . . تَؤْذِي . . تَعْمَلُ أَعْمَالًا
سَيِّئَةً . . سَتَدْخُلُ عَلَيْكَ وَأَنْتَ فِي قَبْرِكَ وَحْدَكَ . .

فِي أَهْوَالِ الْقَبْرِ وَظُلْمَتِهِ تَنْظَرُ وَتَسْأَلُ : مَنْ أَنْتَ؟ ، يَقُولُ لَكَ : أَنَا
عَمَلُكَ الْأَسْوَدِ . . أَنَا مَعَاصِيكَ ، أَلَا تَعْرِفُنِي؟! ، أَنَا حَبِيبُكَ الَّذِي عَشَّتُ
مَعَكَ طَوْلَ عُمْرِكَ . . أَنَا عَمَلُكَ السَّيِّئَةِ .

لَكَنَّ الْمَصِيرَةَ الْكَبِيرَى أَنَّهُ سَيَظْلُلُ مَعَكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! ، فَلَوْ كَانَ مَعَكَ
وَقْتًا مَحْدُودًا لِهَانَ الْأَمْرُ شَيْئًا . . لَكَنَّ لَا . . لَيْسَ غَيْرُهُ مَعَكَ إِلَى يَوْمِ

القيامة؛ لذلك فإنّ مفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا ، فالذى تحب أن يكونَ معك في قبرِك من هذه الدنيا فاعمله^(١) .

أقول لكم شيئاً جميلاً : الذي يريد أن يكون قبره «مُكَيْفًا» ، «يُكِيْف» لنا هذا المسجد .. الذي يريد لمبة نور في قبره يتصدق على الفقراء بلمية كهرباء .. الذي يريد أن يأكل ويشرب في قبره يطعم اليوم خمسين مسكيناً .. شغل جوارحك في طاعة الله .. المصنع الذي وحبه الله لك ، شغله في إنتاج الحسنات ، ولا تُشغِل نفسك بجَمْع الدنيا .. فالدنيا لن تنفعك ، ولن ينفعك ما فيها إلا العمل الصالح؛ فازهداها ترحب في الآخرة .

أخي في الله ، والله الذي لا إله غيره ولا رب سواه ، لن تستقيم لك رغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا .. اللهم إنا نعوذ بك من الدنيا .

أبو طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان له بستانٌ من نخيل وأعناب ، لم تعرف المدينة بستانًا أعظم منه شجرًا ، ولا أطيب ثمراً ، ولا أعزب ماء .. وفيما كان أبو طلحة يصلي تحت أفيائه النَّظيلية ؛ أثار انتباهه طائرٌ غَرْد أحضره اللَّون أحمر المِنقار ، مُخَضَبُ الرِّجلين .. وقد جعل يتواشُّ على أفناد الأشجارِ ظرِبًا مُغَرِّدًا مُترافقًا .. فأعجبه منظره ، وسبَح بفكِّه معه .. ثم ما ليث أن رجع إلى نفسه ؟ فإذا هو لا يذكر كم صلى ؟ : ركتعين ؟ ثلاثة ؟ .. لا يدرى .. فما أن فرغ من صلاتِه ، حتى غدا على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وشكَا له نفسه التي صرفها البستان وشجره الوارف ، وطيره الغرد

(١) لمزيد من الكلام عن القبر وأهواله راجع كتابنا «القبر رؤية من الداخل» ، واستمع كذلك لشريط «أهوال القبر الستة» ، و«القبر يتكلّم» لنا أيضًا ؛ تقدُّم بإذن الله .

عن الصلاة . . ثم قال له : اشهد يا رسول الله : أني جعلت هذا البستان صدقة لله - تعالى . . فضله حيث يحب الله ورسوله ^(١) .

يُذكِّرك أبو طلحة في تصرُفه هذا بالنبي سليمان عليه السلام ، الذي راح يعقر خيله بسيفه في سوقها وأعناقها ، لما شغله تقدُّها عن صلاته وتسابيقه ؛ قال - تعالى - : ﴿وَهَبْنَا لِدَاؤِدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّلُ بِنِي إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الْصَّدِيفَتِ الْمُحَيَّادِ﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحَبَّتْ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ^(٢) رُؤُوهَا عَلَى فَطَّافَقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣-٣٠] .

وهكذا تأمل - أخي في الله - أبو طلحة وكيف أنه رَقِيعه لما وجد الحديقة وطيورها «الدنيا» قد شغلته وألهته عن الله؛ سارع بتركها والزهد فيها . . نعم : فمفتاح الرغبة في الآخرة الزهد في الدنيا . . فالله لا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا . . اللهم واجعل الآخرة هي دارنا وهممنا ، واجعل منانا رضاك عنا . . اللهم ولا تحرمنا لذة النظر إلى وجهك الكريم . . آمين .

ثالثاً : مفتاح الإيمان التفكُّر في آلاء الله وخلوقاته :

التفكير في النعم هو مفتاح الإيمان؛ قال الله : ﴿فَادْكُرُوا أَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]. قلت لأخ بكلية الهندسة : أعطاك الله عقلاً . . هذا العقل نعمة أم لا؟ .. نجحت في الثانوية العامة بمجموع ٩٨% ودخلت كلية الهندسة بحبك لها ، واجتهدت فتفوقت وعُيِّنت

(١) متفق عليه : البخاري (٥٦١١) ، ومسلم (٩٩٨) .

مُعيّداً ، ثم حصلت على الماجستير والدكتوراه .. كل هذا بهذه الدّماغِ التي وهبها الله لك .

أعطاك نعمة العقلية المتفكرة هذه .. فهل استعملتها في الوصول إليه سبحانه؟! .. استعملتها في الدنيا كثيراً؛ ولكن نراك لا تُشغلُها مطلقاً مع الله!! .. لماذا عطّلتها في التجارة مع الله؟! .. يا بني ، إن سِكَّةَ الله تحتاج إلى هندسة .. تحتاج إلى عقل .. فشغل عقلك في التفكير في النّعم والتأمل في المخلوقات؛ لتزدادَ عظمة الله في قلبك .

تعلمون - إخوتي في الله - أن أنواع التوحيد ثلاثة :

توحيد الربوبية . توحيد الألوهية . توحيد الأسماء والصفات .

أما توحيد الربوبية : فهو توحيد الله بأفعال الله؛ فالله هو الذي يُنزلُ المطر ، ويحيي ويميت ، يُعطي ويمنع ، يُضر ويُنفع ، يُعز ويُذل .. لم يعارض فيه أحدٌ من الخلق ، فلم يقل أحدٌ: إنه هو الذي خلق السماء والأرض ، والمشركون كانوا يُقرون بذلك .. ولم ينكِّرْ إلا الملاحدة والشيوعيون في زماننا ، الذين انتكست فطرتهم فلم يُعملوا عقولهم .

ودائماً أقول جملة : «إنَّ عينَ أصغرِ نَمَلةٍ تَفَقَّأَ عينَ أَكْبَرِ مُلْحِدٍ» .

نقول له : خذ النملة وسل نفسك : من الذي وضع عينها هنا وجعلها ترى؟! .. تَفَكَّرْ في خلقها حتى لا تقول : خلقت صدفة .

أما توحيد الألوهية : فهو توحيد الله بأفعال العباد ، يعني ألا نسجد إلا لله ، ولا ندعُ إلا الله ، ولا نُنذِّر إلا لله ، ولا نخاف إلا من الله .. صرفُ جميع أنواع العبادة لله .

وَأَمَّا النَّوْعُ الثَّالِثُ فَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصَّفَاتِ : وهو أنْ نُثِبَتْ لِلَّهِ ما أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ ، وَمَا أَثْبَتَهُ لِهِ رَسُولُهُ ﷺ .

فالربوبية - كما قلتُ - لم يخالفُ فيها أحدٌ؛ ولذلك تجدُ كثيراً من الإخوة لا يهتمُ ولا يعبأ بتوحيدِ الربوبية .. يقولُ : ليس هناك مشكلةً، أهمُ شيءٍ توحيدُ الألوهيةَ، نعم : هذا صحيحٌ، ولكنَّ الربوبيةَ هي المدخلُ وهي الموقِدُ للألوهيةَ، فكلَّما ازدادَ القلبُ تاماً وتفكرَ في نعمِ اللَّهِ ، في النفس والكون ؛ ازدادَ شكرًا وعبادةً للَّهِ^(١) .

ولذا أَسْأَلُ : متى كانت آخر مرة نظرت فيها إلى السماء؟! .. أقول - وللأسف الشديد - : لقد أصبحنا في زمان يُحِولُّ أهله الطاعاتِ إلى معااصِ .. فأصبح لا ينظرُ إلى السماءِ إلا «الحبسية» ، فيقولون : «أنا بِتُّ أَعْدُ النَّجُومَ» .. ويظلون ينظرون إلى القمر .. معااصِ .. فَأينَ المتأمِّلونَ المتذمِّرون بحقٍّ ، أينَ أصحابُ العقولِ الْلَّبِيَّةِ المتفكِّرَةَ؟!!

إخواته ، البحرُ من آياتِ اللَّهِ ، فهل تَأْمَلُتُمُوهُ؟! .. إنَّ ولَدًا على البحرِ ذاقَ المياه فوجدها مالحة جدًا ، فسألَ أمَّهُ : من الذي وضع ملحًا في البحر؟! .. فجلستُ أفكُرُ : من الذي وضع ملحًا في البحر؟! .. ﴿هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مَلْحٌ أَجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣] .. أجاجٌ : ملح .. من الذي فعل هذا؟ .. سبحانَهُ هو الملكُ .. انظر إلى نهرِ النيل وذُقْ ماءَه ، سبحانَ اللَّهِ .. الفرقُ شاسع .. ماء وماء لكنَّ الطبيعةَ مختلفَةً!!

(١) ننصح هنا بقراءة الفصل الطويل والجميل الذي كتبه ابن القيم رحمه الله عن التأمل في النفس والكون من كتابه القيم «مفتاح دار السعادة» ، وكذلك كتاب «التفكير» من «إحياء علوم الدين» لأبي حامد الغزالى رحمه الله .

من اليوم ينظر إلى البحر؟! .. لا أحد.. سوى أصحاب مصائف السوء .. ينظرون نظر عصيان وخيانة .. حولوا الطاعات إلى معاصر .. لا يقف على النيل اليوم أحد يسبح الله .. الكل يعصي أمام نعمة تُبهر العقول وترقق القلوب .. ولا يعني هذا أن نقف معهم؛ بل ينبغي أن نبحث عن أماكن أخرى خالية من المعااصي تتأمل فيها نعم الله ..

اخْرُجْ إِلَى حَدِيقَةِ أَوْ إِلَى الْغَيْطَانِ الْوَاسِعَةِ وَتَأْمَلْ أَنْوَاعَ الزَّهْوَرِ وَالزَّرْوَعِ، وَسَبِّحْ اللَّهَ .. أَمْسِكْ بِزَهْرَةِ وَتَأْمَلْهَا .. تَأْمَلْ أَنْوَاعَ الطَّيْورِ .. تَأْمَلْ أَلْوَانَ الزَّرْوَعِ وَاحْتِلَافَهَا فِي الْأَحْجَامِ وَالْأَلْوَانِ وَالثَّمَارِ، فَهَذَا مُرْ عَلْقَمْ بِجَوَارِ آخَرِ حُلْوِ لَذِيدٍ، وَهَذَا أَخْضَرُ بِجَوَارِ آخَرِ أَحْمَرٍ .. سَبْحَانَ اللَّهِ .. مَعَ أَنَّ الْكُلَّ يُرَاوِي مِنْ مَاءٍ وَاحِدٍ وَفِي أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، إِنَّهَا يَدُ اللَّهِ الَّتِي تَضْبِطُ وَتُسَيِّرُ وَتُقَدِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِقَدْرِهِ .. فَسَبْحَانَهُ سَبْحَانَهُ .. سَبْحَانَهُ مِنْ إِلَيْهِ عَظِيمٌ .. سَبْحَانَهُ مِنْ خَالِقٍ جَمِيلٍ ..

وَاللَّهُ - يَا شَبَابَ - لَقَدْ كُنْتُ فِي سَفَرٍ قَطَعْتُ فِيهِ أَرْبَعَمِئْةٍ وَخَمْسِينَ كِيلُو مِتَّراً لِمَ يَكُفَّ لِسَانِي عَنِ التَّسْبِيحِ؛ مَا أَرَى مِنْ بَدِيعِ خَلْقِ اللَّهِ .. عَظِيمُ خَلْقِ اللَّهِ .. جَمِيلُ خَلْقِ اللَّهِ .. جَمَالٌ مِنْ جَمَالٍ! سَبْحَانَ اللَّهِ ..

لَذَا أَرِيدُكَ أَنْ تَنْظَرَ وَتَتَأْمَلَ .. فَاصْعُدْ إِلَى سَطْحِ مَنْزِلَكُمُ الْلَّيْلَةَ وَاسْتَلِقْ عَلَى ظَهِيرَكَ، وَلَا تَنْظَرْ يَمْنَةً أَوْ يَسْرَةً .. انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ فَقَطْ .. انْظُرْ إِلَى النَّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ وَأَجْزَاءِ الْكَوْنِ .. يَزِيدُ هَذَا فِي قَلْبِكَ عَظَمَةَ اللَّهِ .. فَتُحِسِّنُ بِأَنْوَارِ عَظِيمَةٍ تَمَلَّأُ قَلْبَكَ .. أَرِيدُكَ أَنْ تَذَهَّبَ إِلَى مَكَانٍ فِيهِ جَبَالٌ وَتَنْظَرَ لِلْجَبَالِ، انْظُرْ يَمِينَهَا وَشِمَالَهَا وَفَوْقَهَا وَتَحْتَهَا ..

جِرْبْ وَقْلُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! .. جِرْبْ ، وَلَا تَعْصِمِ اللَّهَ بَنْعَمِ اللَّهِ .. فَلَا تَذَهَّبْ إِلَى الْبَحْرِ فِي الصِّيفِ ، بَلْ اذَهَبْ فِي الشَّتَاءِ حِيثُ لَا أَحَدْ .. اذَهَبْ لِعَمَلِ عُمْرَةِ ، وَهَذِهِ دُعْوَةُ إِلَى مَصِيفِ جَدِيدٍ فِي مَكَّةَ الْمَكْرُمَةِ - اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ، وَتَابِعْ لَنَا بَيْنَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ ، اللَّهُمَّ لَا تَحْرَمْنَا مِنَ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ .

يَذَهَبُ الْعَصَأُ إِلَى الشَّوَاطِئِ فِي الصِّيفِ ، فَإِذَهَبْ أَنْتَ إِلَى الْكَعْبَةِ ، اذَهَبْ إِلَى الْمَدِينَةِ .. اجْلِسْ أَمَامَ الْكَعْبَةِ وَتَأْمَلِ الْجَلَالَ وَالْبَهَاءِ .. تَأْمَلِ وَأَنْتَ مَسَافِرٌ بِالْطَّائِرَةِ أَوْ الْبَارِخَةِ أَوْ بِالْحَافَلَةِ بَرًّا .. تَأْمَلِ خَلْقَ اللَّهِ ، اسْتَمْتَعْ بِالْبَحْرِ وَأَنْتَ مَسَافِرٌ ، اسْتَمْتَعْ بِبَلَادِ اللَّهِ وَبِسَاتِينِهَا الْجَمِيلَةِ .. تَأْمَلِ لِتَزْدَادَ عَظَمَةُ اللَّهِ فِي قَلْبِكِ ، لِتَذُوقَ حَلاوةَ الإِيمَانِ ، وَلِذَّةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَ الإِيمَانِ .

رابعاً : مِفْتَاحُ الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ إِسْلَامُ الْقَلْبِ لِلَّهِ :

نَرِيدُ أَنْ نَدْخُلَ عَلَى اللَّهِ .. فَمَنْ مِنْكُمْ يَرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ؟ .. لَا زِلْنَا وَاقِفِينَ مِنْذِ زَمِنِ نَنْتَرِجُ .. وَدَائِمًا أَقُولُ : أَنَا دَلَالُ عَلَى بَضَاعَةِ اللَّهِ ، وَلَكِنَّ الزَّبَانَ مِنْ نَوْعِيَّةِ أَهْلِ عَصْرِنَا يَتَفَرَّجُونَ وَلَا يَشْتَرُونَ .. فَمَنْ يَشْتَري الْجَنَّةَ؟ .. مَنْ مِنْكُمْ - يَا شَبَابُ - يَرِيدُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى رَبِّهِ .

قال - تعالى - حَاكِيًا عَنِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ، أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ [البقرة: ١٣١] .. أَسْلِمْ؛ أَسْلَمْتُ .. هَذِهِ هِيَ الْقَضِيَّةِ .. قَالَ - تعالى - : ﴿وَإِذْ أُبَتَّلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتِ فَاتَّمَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤] .. هَذِهِ هِيَ قَضِيَّةُ الدُّخُولِ عَلَى اللَّهِ .. أَنْكَ تَسْمَعُ لِلْأَمْرِ فَتَقُولُ : أَسْلَمْتُ .. وَتَسْمَعُ لِلنَّهِيِّ فَتَقُولُ : أَسْلَمْتُ .. تُنْفَذُ الْمَطْلُوبَ .. أَسْلَمْتُ .. تَمَامٌ

أصول الوصول إلى الله تعالى

الاستسلام . . أن تكون مع الله بادئ الرأي؛ قال الملك : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ إِمَّا تُؤْمِنُوا لَا نُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجـرات: ١].

أحد الناس كان مستجاب الدعوة ، وكان عليه دين فقال له ابنه : هلا دعوت الله أن يقضي دينك ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم اغفر لي وتب علىي ، فقال له ابنه : يا أبـتـ ، ادع الله بقضاء الدين ؟ فقال : «يا بنـيـ إذا غفر ذنبي قضـىـ دينـيـ». اللـهمـ اغـفـرـ ذـنـوبـنـاـ ، وـاقـضـ دـيـونـنـاـ . هذه هي القضية : تعلـقـ القـلـبـ بـالـلـهـ . . ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ . . فأـسـلـمـواـ - إـخـوـتـاهـ - فـمـفـتـاحـ الدـخـولـ عـلـىـ اللـهـ إـسـلـامـ القـلـبـ لـلـهـ .

كثير من الشباب الذين يرجعون عن كلامـهمـ فيـتـركـونـ طـرـيقـ الـوصـولـ إلى الله ، إنـماـ رـجـعواـ وـتـرـكـواـ الـطـرـيقـ ؛ لأنـ قـلـوبـهـمـ لمـ تـسـلـمـ بـعـدـ . . قـلـبـهـ لاـ يـزالـ مشـغـولاـ بـالـبـنـاتـ . . بـالـدـنـيـاـ . . بـالـهـمـومـ . . بـالـمـالـ . . بـالـزـوـاجـ . . بـالـلـلـعـبـ . . بـالـفـسـحـ . . بـالـتـنـزـهـ . . بـالـلـبـسـ . . لـكـنـ إـذـ أـسـلـمـ القـلـبـ لـلـهـ ؛ أـصـبـحـ أـحـبـ شـيـءـ إـلـيـهـ طـاعـةـ اللهـ .

إنـ الشـابـ إـذـ التـزـمـ وـكـانـ لاـ يـزالـ فـيـ قـلـبـهـ هـوـيـ - نـعـوذـ بـالـلـهـ تـعـالـىـ مـنـ الـهـوـيـ - فـلـابـدـ أـنـ يـقـعـ فـيـ الـمـعـاصـيـ مـرـأـةـ أـخـرىـ .

قيل لـابـنـ الجـوزـيـ : ماـ بـالـنـاـ إـذـ مـلـأـنـاـ الـكـذـبـ لـاـ يـبـرـدـ ، وـإـذـ أـنـقـصـنـاـ يـبـرـدـ ، قالـ : لـتـعـلـمـواـ أـنـ الـهـوـيـ لـاـ يـدـخـلـ إـلـاـ عـلـىـ نـاقـصـ» . . فلاـ تـكـنـ نـاقـصـاـ ، كـنـ مـمـتـلـعـ القـلـبـ بـالـإـيمـانـ حـتـىـ لـاـ يـدـخـلـ عـلـىـ عـلـيـكـ الـهـوـيـ ، زـدـ فـيـ إـيمـانـكـ لـيـسـلـمـ قـلـبـكـ لـلـهـ . . فـمـفـتـاحـ الدـخـولـ عـلـىـ اللـهـ إـسـلـامـ القـلـبـ لـلـهـ وـسـلـامـتـهـ لـهـ . . اللـهمـ اـرـزـقـنـاـ قـلـوـبـاـ سـلـيـمةـ يـاـ رـبـ .

كثيرٌ منا قلبه مفتتٌ .. مقطوعٌ .. مكسّرٌ .. فمع البناء والشّقة والسيارة واللبس والمظاهر .. مع «تسريحته» والكلية والأصحاب والجيران .. دنيا .. بعضنا قلبه مشتتٌ بين الشُّغل والشركة والديون والأموال والرصيد وتأمين المستقبل .. و .. و .. قال رسول الله ﷺ : «من كانت الدنيا همّه فرق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له»^(١) .

نعم - إخواته - سلامه القلب لله .. وأنا لا أقول لك : لا تلبس حسناً .. لا .. بل البس وتعطر واركب سيارة واثنتين وثلاثة .. ليست هذه القضية .. القضية أن يكون قلبك مشغولاً بالله لا بالسيارات .. تزوج واحدةً ومتّي وثلاث ورباع؛ لكن لا يكن قلبك مشغولاً بالنساء .. احصل على شهاداتٍ وماجستير ودكتوراه؛ لكن لا يكن قلبك مشغولاً بالمناصب .. اجعل قلبك مشغولاً بالله .. اللهم لا تشغeln إلا بك .

انظر ماذا يقول ربك .. آية تُشَيِّبُ النواصي !! .. ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأْنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ مَا يَأْتِينَا عَنِقُولَوْنَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨-٧] .. تدبّر هذه الآية وأعد قراءتها مراتٍ لتعرف حقيقة ما أنت فيه .. فإياك أن ترضى بالدنيا ، وتركن إليها ، وتغفل عن الله .

كثيرٌ من الناس اليوم يقول : الحمد لله ، ماذا ينقصني؟! ، أنا لا أريد

(١) أخرجه : الترمذى (٢٤٦٥) ، وصححه الألبانى - رحمه الله تعالى - في «الصحيحه» برقم (٩٤٩ ، ٩٥٠) .

من الله شيئاً .. يا مسكين ، أنت محتاج إلى الله في كل شيء . فما أنت فيه دنيا ، فافهم ؛ ولذلك لا يرى بها إلا الأدنى منها ، أما الموحد فلا يرضيه إلا رؤية وجه الله - تعالى - في الجنة .. اللهم اجعلنا من الموحدين ، اللهم متّعنا بالنظر إلى وجهك الكريم ، اللهم لا تحرمنا من النظر إلى وجهك الكريم .. آمين .

نعم - أيها الإخوة - مفتاح الدخول على الله إسلام القلب وسلامته لله ، والإخلاص له في الحب والبغض والفعل والترك - اللهم ارزقنا الإخلاص في القول والعمل .. هذا مفتاح كبير جداً .. الإخلاص لله في الحب والبغض .. فأنت تحب الأخ الفلاني .. لماذا تحبه؟ .. هذه هي القضية . فأحبب لله واقرئ لله ، فبتتحقق هاتين الكلمتين يكون قلبك قد أسلم لله وسلم لله .

إذاً ، فإن إسلام القلب لله وسلامته له من الغير يكون بالإخلاص له - سبحانه - في الحب والكره .. فعندما أكره أكره لله وعندما أحث أحث لله ، وكذلك الفعل والترك ، فحينما أفعل أفعل لله ، وحينما أترك أترك لله .. هذا هو مفتاح الدخول على الله ؛ فاجن العسل ولا تكسر الخلية .

خامساً : مفتاح حياة القلوب ثلاثة :

أولاً : ترك الذنوب . **وثانياً** : التدبر للقرآن . **وثالثها** : التضرع بالأسحار .

أولاً - ترك الذنوب :

يقول ابن القيم في «الفوائد» تحت عنوان «ترك الذنوب أولاً» :

«العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا ؛ فإنهم لا يقدرون على تركها ؛

ولكن يأمرهم بترك الذنب مع إقامتهم على دنياهم ، فترك الدنيا فضيلة ، وترك الذنب فريضة ، فكيف يُؤمِّر بالفضيلة من لم يُقم الفريضة ! ، فإن صعب عليهم ترك الذنب فاجتهد أن تُحبَّ الله إليهم بذكر آلاته وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله ؛ فإن القلوب مفطورة على محبته ، فإذا تعلقت بحبه هان عليها ترك الذنب والإصرار عليها والاستقلال منها ، وقد قال يحيى بن معاذ : طلب العاقل للدنيا خير من ترك الجاهل لها»^(١) .

إن الذنب تختنق القلوب .. المعاصي تقتل القلوب .. الذنب تُميِّث القلوب .. قال ابن القيم عن نتائج المعصية :

«قلة التوفيق ، وفساد الرأي ، وخفاء الحق ، وفساد القلب ، وخمول الذكر ، وإضاعة الوقت ، ونفرة الخلق ، والوحشة بين العبد وبين ربه ، ومنع إجابة الدعاء ، وقسوة القلب ، ومحق البركة في الرزق والعمر ، وحرمان العلم ، ولباس الذل ، وإهانة العدو ، وضيق الصدر ، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيئون الوقت ، وطول الهم والغم ، وضئلاً المعيشة ، وكسب البال .. تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء والإحراق عن النار ، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة»^(٢) .

إن الشَّاب الذي فتن - اللَّهم رُدْه إلى الالتزام رَدًا قرِيبًا ، اللَّهم ثبِّت قلوبنا على الإيمان - قال : سأستمع إلى بعض الأغاني ثم أدخل على «الإنترنت» ،

(١) الفوائد (١٧٥) .

(٢) الفوائد (٣٧) .

ثم أستمعُ شريطاً للشيخ فلانِ حبيبي .. وسأحضرُ للشيخ فلانِ الدرسَ القادم .. وهو ذاهبٌ للشيخ قابته بنتٌ فضلٌ يتكلمُ معها حتى وصلت الحالُ إلى حدٍ الزنا على الهواء .. ففتن - اللهم نجّنا من الفتنة ما ظهرَ منها وما بَطَنَ .. فتن لذنبه الأول .. فبدني لم يتركه قتل قلبه .. وضيّع نفسه .

يقول ابن القيم رحمه الله: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب
والبعد عن الله» .

ويوضّح - رحمة الله - الطريق إلى صفاء القلب فيقول : «من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهواته ، القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها ، القلوب آنية الله في أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها ، شغلوا قلوبهم بالدنيا ، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وأياته المشهودة ، ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وأطراف الفوائد ، إذا غذى القلب بالذكر وسقى بالتفكير ونقى من الدغّل؛ رأى العجائب وألهم الحكمة ، ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها؛ بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحياوا قلوبهم بقتل الهوى ، وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى؛ فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه»^(١) .

نعم - إخواته - : ترك الذنوب حياة القلوب .. اترك الذنب ؟ فالذنب يقتل القلب .. يقتل .. أقول لأحدهم : لماذا لا تقوم بالليل؟ ، يقول : أنام مقتولاً لا أستطيع حراكاً ، قلت له : من الذنوب .

(١) الفوائد (١٠٥) .

قيل لأحد السلف : كيف أستعين على قيام الليل؟ ؟ قال : « لا تعصيه بالنهار يُقْمِك بالليل » .. إذا رأيت قيام الليل ثقيلاً عليك؛ فاعلم أنك محروم مُكَبَّل .. كَبَّلتَك خطاياك .. مُكَتَّف .. قَيَدْتَك ذنوبك ، فاتركها وتب منها ليحيا قلبك .

ثانياً - التَّدْبِيرُ لِلْقُرْآنِ :

يا أخي في الله يا طالب كلية الهندسة ، ويا حبيبي في الله يا طالب كلية الطب ، ويا أخي في الله يا طالب كلية التجارة .. يا من تحمل أصعب المسائل ، عقلُك الجميل هذا ماذا فهمت به من القرآن؟!

أَحَدُ الْإِخْوَةِ قَالَ لِي : قرأت في الجريدة لكاتب يقول : إن الله أمر الرجال بإذناء الثياب مثل النساء ، فقال - تعالى - : ﴿يُدِينُكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَنِيْهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] !! .. قلت : أعقل هذا؟!! .. نون النسوة يا أخي! .. أين العقل؟!! .. ألا يوجد فهم؟! .. حتى عقولهم لا يعلمونها!! ولذا ، أريدك أن تفهم وتتدبر القرآن؛ ﴿كَتَبْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكُمْ مُّبَرَّكُ لَيَدَبَّرُوا أَيْنَتِهِ﴾ [ص: ٢٩] .. تدبر .. تدبر القرآن . لقد قام رسول الله ﷺ بآية يردها : ﴿إِنْ تَعْذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] .

وَقَامَ تَمِيمُ الدَّارِيَ لِيَلَهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ : ﴿أَمْ حَسِبَ الْأَذِينَ أَجْرَحُوهُ الْسَّيِّئَاتِ أَنْ بَعَلَهُمْ كَالَّذِينَ إِمَانُوا وَعَمِلُوا أَصْلَاحَتِ سَوَاءَ مَحِيَّهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١] .

وقام سعيد بن جُبِير ليلةً يرددُ هذه الآية : ﴿وَمَنْزُوا إِلَيْهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩]. أي تميّزوا وانفردوا عن المؤمنين .

ومحمدُ بنُ المُنْكَدِر يسأله أبو حازم عن البكاء طيلة ليله ، فيقول : آية من كتاب الله أبكتنِي ؟ ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا كَمْ يَكُونُوا يَحْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] .

وقال بعضهم : إنني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا أفهمها ، ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثوابا .

ويقول أبو سليمان الداراني : إنني لأن Luo الآية فأقيم فيها أربع ليالٍ أو خمس ليالٍ ، ولو لا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها . قال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] .

يقول ابن القيم - رحمه الله تعالى - في «الفوائد» تحت عنوان

«قاعدة جليلة : شروط الانتفاع بالقرآن» :

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به - سبحانه - منه إليه ؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال - تعالى - : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] .

وذلك أن تمام التأثير لمَّا كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ ، ومحل قابل ، وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه ؛ تضمنت الآية ذلك كلَّه بأوْجَزِ لفظِ وأبَيْنِه وأدَلَّه على المراد . فقوله : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا﴾

إشارةً إلى ما تقدم أول السورة من ها هنا . وهذا هو المؤثر ، قوله : ﴿لَمَّا كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المَحَلُ القابلُ ، والمرادُ به القلبُ الحَيُّ الذي يعقلُ عن اللهِ ، كما قال - تعالى - : ﴿إِنَّهُ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ﴾ ﴿لِئِنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيَا﴾ [يس: ٦٩-٧٠] ؛ أي : حَيُّ القلبِ . قوله : ﴿أَوْ أَلَّتِ الْسَّمْعُ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ف: ٣٧] أي : وجَهَ سمعَهُ ، وأصغى حاسةَ سمعِهِ إلى ما يُقال له ، وهذا شرطُ التأثير بالكلام .

وقوله : ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ ؛ أي شاهدُ القلبِ حاضرٌ غيرُ غائبٍ .

قال ابن قتيبة : «استمعَ كتابَ اللهِ وهو شاهدُ القلبِ والفهمِ ، ليس بغافلٍ ولا ساهٍ . وهو إشارةٌ إلى المانع من حصولِ التأثيرِ ، وهو سهوُ القلبِ وغيبته عن تعلُّقِ ما يقال له والنظرِ فيه وتأملِه . فإذا حصلَ المؤثرُ وهو القرآنُ ، والمَحَلُ القابلُ وهو القلبُ الحَيُّ ، ووُجدَ الشرطُ وهو الإصغاءُ ، وانتفى المانعُ وهو اشتغالُ القلبِ وذهولُه عن معنى الخطابِ وانصرافُه عنه إلى شيءٍ آخرٍ ؛ حَصَلَ الأثرُ وهو الانتفاعُ والتذكرُ» .

ويواصل ابن القيم حديثه الممتع فيقول : «صاحبُ القلبِ يجمعُ بين قلبه وبين معاني القرآنِ ، فيجدها كأنها قد كُتبتُ فيها ، فهو يقرؤُها عن ظهرِ قلبِ . ومن الناسِ من لا يكونَ تاماً الاستعدادِ ، واعيَ القلبِ ، كاملَ الحياةِ ، فيحتاجُ إلى شاهدٍ يُميّزُ له بين الحقِّ والباطلِ ، ولم تبلغْ حياةُ قلبه ونورُه وزكاءُ فِطْرَتِه مَبلغَ صاحبِ القلبِ الحَيِّ الوعيِ؛ فطريقُ حصولِ هدایته أن يُفرغَ سمعَه للكلامِ ، وقلبه لتأملِه والتفكيرِ فيه ، وتعلُّقِ معانيه؛ فيعلمَ حينئذٍ أنه الحقُّ»^(١) .

(١) الفوائد (٥ - ٦) .

إخواته ، افهموا القرآن وتدبروه .. افتحوا قلوبكم وأسماعكم وأبصاركم له .. لقد كان المدرس يقول لنا : إذا ذاكرت الموضوع من الكتاب فأغلقه ثم اكتب في ورقة خارجية ما فهمته .. فهل سألت نفسك مرةً بعد أن فرغت من التلاوة : ماذا فهمت؟ ، ما الذي انغرس في قلبي من معاني القرآن؟ ، بماذا خرجت اليوم من القرآن؟

إن أكثرنا اليوم - أيها الإخوة - يأتي إلى القرآن وهو مُعلق القلب تماماً .. لا يريد أن يفتح قلبه ؛ فلا ينتفع بالقرآن ؛ لأنَّه لا يريد أن يُتعب نفسه في التدبر ، ومن كانت حاله هكذا فإنه يأتي القرآن فلا يخرج منه بشيء ؛ بل وربما خرج من جلسته وقد أصابه الملل من القرآن ؛ لأنَّه يأتيه في أوقاتٍ لا يكون قلبه فيها متاهيًّا ، وفي ظروفٍ لا تكون نفسه فيها هادئةً .

إخواته ، إن أردتم الحياة لقلوبكم ؛ فلا بدَّ أن تفهموا مُجمل القرآن وموضع القرآن ، ومُراد القرآن^(١) .. لا بدَّ أن تتأملوا كلام الله وما يحويه ؛ لتخرجوا منه بمعرفة الله وحبِّ الله ، وتقوى قلوبكم في السير إلى الله .

يقول ابن القيم تحت عنوان «فائدة : محتوى خطاب القرآن» :

«تأمل خطاب القرآن تجد ملِكًا له الملُك كُلُّه ، وله الحمد كُلُّه ، أَزْمَة الأمور كُلُّها بيده ومصدرُها منه ومردُها إليه ، مستويًا على سرير مُلِكِه ،

(١) ننصح هنا بقراءة كتاب «تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن» ، للعلامة السعدي - رحمه الله تعالى .

لا تخفي عليه خافية في أقطار مملكته ، عالما بما في نفوس عبيده ، مطلعا على أسرارهم وعلانيتهم ، منفردا بتدبير المملكة ، يسمع ويرى ، ويعطي ويمنع ويشبّه ويعاقب . ويكرم ويهدى ، ويخلق ويرزق ويميت ، ويقدر ويقضي ويدبر . الأمور نازلة من عنده ، دقيقها وجليلها ، وصاعدة إليه لا تحرّك في الكون ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه .

فتأمل كيف تجده يُشَنِّي على نفسه ويمجد نفسه ، ويحمد نفسه ، وينصح عباده ، ويذلّهم على ما فيه سعادتهم وفلاحهم ويرغبهم فيه ، ويحدّرهم مما فيه هلاكهم ، ويعرف إليهم بأسمائه وصفاته ، ويتحبّب إليهم بنعمه وألائه . فيذكرهم بنعمه عليهم ويأمرهم بما يستوجبون به تمامها ، ويحدّرهم من نعمه ويدركهم بما أعد لهم من الكرامة إن أطاعوه ، وما أعد لهم من العقوبة إن عصوه . ويخبرهم بصنعه في أوليائه وأعدائه وكيف كان عاقبة هؤلاء وهؤلاء .

ويُشَنِّي على أوليائه بصالح أعمالهم وأحسن أوصافهم ، ويذمّ أعداءه بسيئ أعمالهم وقيح صفاتهم . ويضرب الأمثال وينوّع الأدلة والبراهين . ويُجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدق الصادق ويُكذب الكاذب ، ويقول الحق ويهدى السبيل .

ويدعو إلى دار السلام ، ويدرك أوصافها وحسّها ونعمتها ، ويحدّر من دار البوار ويدرك عذابها وقبحها وألامها ، ويدرك عباده فقرهم إليه وشدة حاجتهم إليه من كل وجه ، وأنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين ، ويدرك غناه عنهم وعن جميع الموجودات ، وأنه الغني بنفسه عن كل ما سواه ، وكل

ما سواه فقيرٌ إليه بنفسه ، وأنه لا ينال أحدٌ ذرَّةً من الخيرِ فما فوقها إلا بفضله ورحمته ، ولا ذرَّةً من الشرِّ فما فوقها إلا بعدله وحكمته .

ويشهدُ من خطابه عتابه لأحبابِه ألطافَ عِتابٍ ، وأنه مع ذلك مُقْتَلٌ عشراتِهم ، وغافرٌ لزلاطِهم ، ومُقيمٌ لعذارِهم ، ومُصلحٌ لفسادِهم ، والداعِعُ عنهم ، والمُحامي عنهم ، والناصرُ لهم ، والكافيلُ بمصالحِهم ، والمُنجي لهم من كلِّ كُربٍ ، والمُوفي لهم بوعده ، وأنه ولِيُّهم الذي لا ولِيَّ لهم سواه ، فهو مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ونَصِيرُهُمُ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، فَنَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ .

فإذا شهدتُ القلوبُ من القرآنِ ملِكًا عظيمًا رحيمًا جَوَادًا جميلاً هذا شأنه؛ فكيف لا تحبه وتنافسُ في القربِ منه ، وتنفقُ أنفاسَها في التودُّد إليه ، ويكونُ أحبُّ إليها من كلِّ ما سواه ، ورضاه آثرُ عندها من رضا كلِّ ما سواه؟! ، وكيف لا تلهجُ بذكرِه ويصيرُ حبهُ والسوقُ إليه والأنسُ به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيثُ إنْ فُقدَ ذلك فسدُتْ وهلكتْ ولم تنتفعْ بحياتها؟! «^(١)».

ثالثاً - التَّضَرُّعُ بِالْأَسْحَارِ :

أريدُكَ أَنْ تَقُومَ سَحْرًا ، وَتَتَوَضَّأَ وَالْدُّنْيَا سُكُونٌ وَالْكُلُّ نَائِمٌ .. سبحانَ اللَّهَ ! ، كم منكم من يَوْدُ أن يقابلَ الشَّيخَ فلانًا ويجلسَ معه ويكلِّمه ويملأ عينيه منه .. ألا تَوَدُّ أَنْ تقابلَ ربَّكَ ، وتجلسَ معه وحدَكَ قَبْلَ الفجرِ؟! ؟
لتقولَ له : اللَّهُمَّ بَا عِدْ بِي وَبَيْنَ خَطَايَايِي كَمَا باعْدَتْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .. بَعْدَ أَنْ تَمْلأَ قَلْبَكَ بِ«اللَّهُ أَكْبَرٌ» .

(١) الفوائد (٣١ - ٣٢) .

والله - يا إخوته - إن للمناجاة في جوف الليل لذة لا تضاهيها لذات الدنيا بأسراها . . أن تنادي ربك - سبحانه وتعالى - حينما تقف بين يديه في ذل وخشوع وانكسار وهيبة لتقول دعاء الاستفتاح : « وجَهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ .. ۝ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَسُكُونِي وَحَمَائِي وَمَمَاقِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمَيْنَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِدَلِكَ أُمِرْتُ وَكَانَ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣] .

صل وأسمع نفسك التلاوة . . في غرفتك . . في الشرفة . . فوق السطوح . . أو في المسجد تحت البيت عندكم . . ستحس أنك تكلم الله . . تناديه . . تناجيه . . تشعر بأن هناك سرًا بينك وبينه . . ستحس بوجود علاقة . . علاقة ود وحب وقرب . . ما أجمله من لقاء . . ما أعظمه من وقوف . . وأبهاه من حديث . . إنه لقاء مع الملك . . الرحمن . . حين تستشعر ذلك الموقف وأنك مع الله . . سيفيض عليك ساعتها بالرحمات . .

فترضَّ بالأسحار ؛ فهذا الوقت غالٍ لا تعوضه أموال الدنيا . . تضرع لتحمي قلبك . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « من قام بعشرين آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بستين آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقطنين » ^(١) . . والمقطنون : هم من كتب لهم قنطرة من الأجر ، والقطنطر - كما جاء في حديث فضالة بن عبيد وتميم الداري عند الطبراني - : « خير من الدنيا وما فيها » .

(١) أخرجه : أبو داود (١٣٩٨) ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في « صحيح الجامع » برقم (٦٣١٥) ، وانظر « الصحيححة » أيضًا (٦٤٢) .

عبد العزيز بن سلمان ، كانت رابعة - رحمها الله - تُسمّيه : «سيد العابدين» .. كان كَلِيلُهُ يقول : ما للعبادين وللنوم!! ، لا نوم والله في دار الدنيا إلا نوم غالب .. ويقول عنه ابنه محمد : كان أبي إذا قام من الليل ليتهجد؛ سمعت في الدار جلبة شديدة، واستيقاء للماء الكثير . قال : فترى أن الجن كانوا يستيقظون للتتهجد فيصلون معه .

وهذه عَجْرَدَةُ الْعَمِيَّةِ - رحمها الله .. قال عنها رجاء بن مسلم العبدى : كنا نكون عند عجردة العميمى في الدار ، فكانت تُحيى الليل صلاةً ، وربما قال : تقوم من أول الليل إلى السحر ، فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالي ، بتكبير الذلج إلى ظلم الأسحار ، يستبقون إلى رحمتك وفضل مغرتتك ، فبك إلهي لا بغيرك أسألك أن تجعلني في أول زمرة السابقين إليك ، وأن ترفعني إليك في درجة المقربين ، وأن تلحقني بعبادك الصالحين ، فأنت أكرم الكرماء ، وأرحم الرحماء ، وأعظم العظماء . ثم تخر ساجدة ، فلا تزال تبكي وتدعوا في سجودها ، حتى يطلع الفجر ، فكان ذلك دأبها ثلاثين سنة .

وقيل لعفيرة العابدة : إنك لا تنامين الليل ، فبكـتـ وقالـتـ : ربما اشتـهـيـتـ أنـ أـنـامـ فلاـ أـقـدـرـ عـلـيـهـ ، وكـيفـ يـنـاـمـ أوـ يـقـدـرـ عـلـىـ النـوـمـ منـ لاـ يـنـاـمـ عنهـ حـافـظـاهـ ليـلاـ ولاـ نـهـارـاـ؟ـ !ـ

هؤلاء نساء!! ، فأين أنتم يا رجال!! .. يا حسرة على الرجال!!

وَخَلَاصَةُ مَا سَبَقَ : اتَرْكُ ذَنْبَكَ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَلَوةً
وَفَهْمًا وَتَدَبْرًا .. فَأَتْلَهُ بِخَشْوَعٍ وَتَحْزُنٍ لِتَضَاهَرَ قَلْبَكَ فَيُنَفَّي خَبْثُهُ ، ثُمَّ تَصْرَعُ
إِلَى رَبِّكَ بِالْأَسْحَارِ لِتَعِيشَ النَّعِيمَ وَتَذُوقَ لَذَّةَ الْمُنَاجَاهَ .. يَحْيَا بِذَلِكَ
قَلْبُكَ ، فَيَصْمُدُ فِي السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ .. فَامْلُكْ هَذَا الْمِفْتَاحَ وَلَا تُنْرِطْ فِيهِ؛
حَتَّى لا تُكْسِرِ الْخَلَيَةَ فَيَضْيَعَ مِنْكَ الْعَسْلُ .

وَهَكُذا .. أَخِي السَّائِرُ عَلَى طَرِيقِ الْوَصْوَلِ إِلَى اللَّهِ .. يَنْبَغِي عَلَيْكَ
أَنْ تَعْتَنِي كُلَّ الْاعْتَنَاءِ بِمَعْرِفَةِ «عِلْمِ الْمَفَاتِيحِ»؛ لِتَجْنِيَ الْعَسْلَ فَلَا تُكْسِرُ
الْخَلَيَةَ .

* * *

الأصل العشرون

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ»

قال - تعالى - : ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٤٩-٥٠]. قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - : أي : جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض وليل ونهار وشمس وقمر وبَرْ وَبَحْرٌ وضياء وظلام وإيمان وكفر وموت وشقاء وسعادة وجنة ونار حتى الحيوانات والنباتات؛ ولهذا قال - تعالى - : ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي : لتعلموا أنَّ الخالق واحد لا شريك له ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ﴾ أي : الجاؤوا إليه واعتمدوا في أموركم عليه ﴿إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ اهـ.

وقال صاحب الظلال - رحمه الله تعالى - : «وفي ظل هذه اللمسات القصيرة العبارة ، الهائلة المدئ : في أجواز السماء ، وفي آماد الأرض ، وفي أعماق الخلائق . يهتف بالبشر ليفرُّوا إلى خالق السماء والأرض والخلائق ، متجردين من كل ما يُثقلُ أرواحهم ويقيدها؛ موحدين الله الذي خلق هذا الكون وحده بلا شريك .

﴿فَفِرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِنَّهَا أَخْرَى إِنَّ لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥١-٥٠] . . . والتعبير بلفظ الفرار عجيب حقا . وهو يوحى بالأنقال والقيود والأغلال والأوهاق ، التي تشد النفس البشرية إلى هذه الأرض ، وتثقلها عن الانطلاق ، وتحاصرها وتأسرها وتدعها في

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٣٩

عقلٍ . وبخاصة أوهاق الرزق والحرص والانشغال بالأسباب الظاهرة للنصيب الموعود . ومن ثمّ يجيء الهاتف قوياً للانطلاق والتسلّص والفرار إلى الله من هذه الأثقال والقيود! ، الفرار إلى الله وحده مُنزهاً عن كل شريك . وتذكير الناس بانقطاع الحجّة وسقوط العذر : «إِنَّ لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» . . وتكرار هذا التنبية في آيتين متجاورتين ، زيادة في التنبية والتحذير! »^(١) .

إخواته ، ففرُوا إلى الله .. اقتربوا من طريق الله .. تعالوا خطوة واحدة إلى الله .. ضعوا أرجلَكم على أول الطريق .. أعينوا على أنفسِكم بالوقوف على رأسِ الطريق والله يأخذ بأيديكم .

أرُوا الله مِنْ أنفسِكم خيراً ، فلقد كتب الله - جَلَّ جَلالُه - سُنَّةً من سنته في خلقه : أَنَّ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ تَقَرَّبَ - سبحانه - إليه ، ومنْ ابتعد عنه ابتعد - سبحانه - عنه .. «سُوَا اللَّهُ فَسِيرُوهُمْ» [التوبه: ٦٧] .. «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» [الصف: ٥] .. فمن تابَ تابَ الله عليه وأحبه ، ومن بَذَلَ جُهْدَه واستفرغَ وُسْعَه في طاعةِ الله ؛ أعاذه الله وسَدَّده .. هذه قاعدة .. سُنَّة مُسْلِمة .. فلا تَنْمِ عن الطاعاتِ ثم تقول : لو كان الله يُحبني لهداي .. لا .. بل تَعَالَ وهو يَهْدِيك .

وقد سُمِّي ابنُ القيم - رحمه الله - هذا الأصل لِقاحًا .. مثل حُبوبِ اللِّقاح .. فقال - عليه رحمة الله - في «الفوائد»^(٢) :

(١) في ظلال القرآن (٣٣٨٦/٦).

(٢) الفوائد (٣٤٦ - ٣٤٧).

* «الطلب لقاح الإيمان ، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمرا العمل الصالح .

* وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء .

* والخشية لقاح المحبة ، فإذا اجتمعا أثمرا امثال الأوامر واجتناب المنافي .

* والصبر لقاح اليقين ، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين ؛ قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدِونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَرُّفُوا وَكَانُوا بِإِيمَنِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

* وصحة الاقتداء بالرسول لقاح الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمرا قبول العمل والاعتزاد به .

* والعمل لقاح العلم ، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة ، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يُفْدِ شيئاً .

* والحلم لقاح العلم ، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة ، وحصل الانتفاع بعلم العالم ، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع .

* والعزم لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همته من العلياء كل مكان . فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة ، وإما من عدم العزيمة .

- * وحسنُ القصد لقاحٌ لصحةِ الذهن ، فإذا فقداً فقدَ الخيرُ كُلهُ ، وإذا اجتمعوا أثروا أنواعَ الخيرات .
- * وصحةُ الرأي لقاحٌ الشجاعة ، فإذا اجتمعوا كان النصرُ والظفر ، وإن فقداً فالخذلان والخيبة ، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبنُ والعجز ، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهورُ والعطَب .
- * والصبرُ لقاحُ البصيرة ، فإذا اجتمعوا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إذا شئتَ أن ترى بصيراً لا صبراً له رأيته ، وإذا شئتَ أن ترى صابراً لا بصيرةً له رأيته ، فإذا رأيتَ صابراً بصيراً فذاك .
- * والنصيحةُ لقاحُ العقل ، فكلما قويت النصيحة قويَ العقلُ واستثار .
- * والتذكرةُ والتفكيرُ كُلُّ منهما لقاحُ الآخر ، إذا اجتمعوا أنتجا الزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرة .
- * والتقوى لقاحُ التوكل ، فإذا اجتمعوا استقامَ القلب .
- * ولقاحُ أخذِ أهبةِ الاستعدادِ للقاءِ قصرِ الأمل ، فإذا اجتمعوا فالخيرُ كُلهُ في اجتماعهما والشرُ في فرقتهما .
- * ولقاحُ الهمةِ العاليةِ النيةِ الصحيحة ، فإذا اجتمعوا بلغَ العبدُ غايةَ المراد » اهـ .

فالقضيةُ إذا تَحْتَاجَ إلى تلقيح .. أقصدُ قضيةَ السَّيِّرِ إلى اللهِ والوصولِ إليه .. نعم : الوصولُ يَحْتَاجُ إلى لقاحات .. وتعالوا الآن - إخوتي في الله - لشَرَعَ في شرحِ أهمِّ هذه اللقاحات :

الأول : لِقَاحُ الْاسْتِعْدَادِ لِلقاءِ اللَّهِ قِصْرُ الْأَمْلِ :

قال ابن القيم : «ولِقَاحُ أَخْذِ الْأَهْبَةِ الْاسْتِعْدَادِ لِلقاءِ قِصْرُ الْأَمْلِ ، فإذا اجتمعوا فالخيرُ كُلُّهُ في اجتماعهما والشرُّ في فرقتهما» .

وأسألك : لو خيرت ، متى تُحبُّ أن تموت؟ .. سؤال ينبغي أن يفرض نفسه عليك .. متى تحبُّ أن تموت؟ .. قال أحدهم : الآن ، فقلت له : أمتاذهب؟! .. أخاف عليك؛ لأن الله يقول : ﴿وَبَدَا لَهُم مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] .. وقال آخر : أخافُ أن أفالله فأجاد أموراً لم أكن أتوقعها .. أشياء لم أضعها في حسابي .. لم أكن أنتظِرُها .. هناك قضايا ومشاكلٌ تنتظرني سِيِّحَا سِبَبَنِي اللهُ عليها لا أعرفُها .. ولذلك فأنا خائفٌ .

معاذ بن جبل لما جاءه الموت قال : «مزحباً بالموت مرحباً ، زائرٌ مغبٌ وحبيبٌ جاء على فاقه ، لا أفلح من ندم» .. فمعاذ إذا متأهباً ومستعداً .

حذيفة بن اليمان لما جاءه الموت قال : «يا موتُ عُطَّ عَطَّك ، يا موتُ شُدَّ شُدَّك ، أَبَي قلبي إِلا حُبَّك» .. يُحبُّ الموت لأنَّه مُتجهزٌ ومستعدٌ ، فهل أنت متجهز؟!! .. هل أنت مستعدٌ لمقابلة الله الآن؟! .. ﴿وَبَدَا لَهُم مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] .. ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ [الزمر: ٤٨] .. وجدوا المَكْسَبَ سَيِّئَاتٍ !

فللقاءِ أَخْذِ الْأَهْبَةِ أن تكون سائراً في الطريق إلى الله بحدٍ وتنقُّل ؛ فتخشى أن يأتيك الموت بغتة .. فعشْ يومك الذي أنت فيه معتقداً

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٤٣

وَجَازَمًا أَنَّهُ آخِرُ يَوْمٍ لَكَ عَلَى الدُّنْيَا .. عِشْ الدُّنْيَا كَمَا عَاشَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .. عِشْ كَمَا عَاشَ وَمُتْ كَمَا مَاتَ .. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «مَالِي وَلِلْدُنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٌ اسْتَظَلْ بِظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١)؛ وَلَذِلِكَ «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنْكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرٌ سَبِيلٌ» .. هَذَا شِعَارُهُ ﷺ .

وَاعْلَمُ أَنَّ الْأَمَانِيَّ بِحُرُّ الْمَفَالِيسِ .. نَعَمْ : إِنَّ الَّذِي يَبِيتُ ظَانًا أَنَّهُ سَيَقُومُ غَدًا .. طَوِيلُ الْأَمْلِ وَغَيْرُ مُسْتَعِدٌ لِلقاءِ اللَّهِ .. وَلَذِلِكَ إِذَا قَصَرَ أَمْلُكَ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ لَقَحْتَ اسْتَعْدَادَكَ لِلْمَوْتِ .. فَيَحْصُلُ الصَّدْقُ وَتَسِيرُ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ .. بِهَذَا تَكُونُ مُسْتَعِدًا .

الثاني : لِقَاءُ الْهِمَّةِ الْعَالِيَّةِ النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ :

اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا عُلُوًّا الْهِمَّةَ .. أَحَدُ إِخْرَانَا كَانَ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ ، ثُمَّ بَدَا فِي الصِّيفِ فِي دُورَةِ عِلْمِيَّةٍ فَالْتَّزَمَ فِيهَا ، وَفِجَاهَةً تَرَكَ الدُّورَةَ .. قَالَ : لَقَدْ وَجَدْتُ أَنَّ الْإِهْتِمَامَ بِالدُّورَةِ قَدْ شَغَلَنِي عَنِ الْقُرْآنِ .. وَلِمَاذَا يَا بُنْيَّ لَا يَكُونُ الْإِثْنَانِ مَعًا؟! .. أَيْنَ الْهِمَّةُ الْعَالِيَّةُ؟! .. أَنْتَ فِي الْكَلِيلَةِ تَدْرِسُ سَتِّ مَوَادٍ أَوْ ثَمَانِيَّةٍ فِي الْفَصْلِ الْوَاحِدِ ، وَتَذَكِّرُهَا جَمِيعًا؟ بَلْ وَتَحْصُلُ عَلَى امْتِيَازٍ .. لَمَاذَا لَا تَكُونُ هِمَّتُنَا عَالِيَّةً أَيْضًا فِي طَلَبِ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ ، وَفِي الْعِبَادَةِ وَالدُّعَوَةِ إِلَى اللَّهِ؟!؟!

ثُمَّ إِنَّ الْهِمَّةَ الْعَالِيَّةَ وَحْدَهَا لَا تَكْفِي؛ بَلْ كَثِيرًا مَا تَجْنِي عَلَى أَصْحَابِهَا فَتَجْرِئُهُمْ إِلَى الْوَرَاءِ .. فَالَّذِي لَدِيهِ هِمَّةٌ عَالِيَّةٌ بِدُونِ نِيَّةٍ صَالِحةٍ تَجْدِهُ مُبْتَلِي

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدُ ، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «الصَّحِيحَةِ» بِرُقْمِ (٤٣٨) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

بالعجب والغرور والرضا عن النفس ، والكبر والازدراء للآخرين واحتقارهم .. إذا فقاخ الهمة وزوجها : النية الصالحة .. اللهم ارزقنا حُسْنَ النِّيَّةِ .

والهمة نعمة ، واستقلالك لنعم الله عليك يُسْقِطُكَ من عين الله .. لذلك إذا رزقك الله همة عالية فلتحتها بنية صالحة ، لحفظ النعمة وستقيم على الطريق .

يقول ابن القيم : «ولقاح الهمة العالية النية الصالحة ، فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد» .. أحسِنْ نيتَكَ في همتِكَ تكن الهمة صالحة ؛ فتصل إلى الجنة العالية .

الثالث : التقوى لقاح التوكل :

قال ابن القيم : «والتفوى لقاح التوكل ، فإذا اجتمعا استقام القلب» .

التفوى : ترك ما تهوى لما تخشى .. فالذى يمشي في الشارع فلا ينظر يمنةً أو يسراً ، بل آخر حدود عينه خطوة أو خطوتان .. هذه تقوى؛ لأنَّه سلك طريقاً كلُّها أشواك ، فإذا نظر في أي اتجاه وجد بلوى ومصيبة ، ولذلك فهو دائمًا يمشي على الشوك بالتفوى .. فإذا وجد اثنين يتكلمان فلا يحاول أن يعرفَ فيما يتتكلمان .. فهذه تقوى .

قيل لأحدهم : هل سلكت طريقةً ذا شوك؟ ، قال : نعم ، قيل : ماذا صنعت؟ ، قال : شمرت واجتهدت ، قيل له : فتلك التقوى : التشمير والاجتهاد .. أن تعيش هذه الحياة ماشيا على الشوك ، فتكون شديد الحذر . ولقاح هذه التقوى وزوجها التوكل .. أن تتوكَّل على الله وأنْتَ تسير

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

على الشوك ، قال الله : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق : ٣].

ويتحدث ابن القيم عن حقيقة التوكل في إحدى درجاته العالية فيقول :

«اعتماد القلب على الله ، واستناده إليه ، وسكنونه إليه .

بحيث لا يبقى فيه اضطرابٌ من تشويشِ الأسباب ، ولا سكونٌ إليها ، بل يخلع السكون إليها من قلبه ، ويُلبيه السكون إلى مسببها . **وعلامه هذا :** أنه لا يبالي بِإقبالها وإدبارها ، ولا يضطرب قلبه ولا يُحقق عند إدبار ما يُحب منها وإنقاب ما يُكره؛ لأن اعتماده على الله ، وسكنونه إليه ، واستناده إليه ، قد حصنه من خوفها ورجائها ، فحاله حال من خرج عليه عدوٌ عظيم لا طاقة له به ، فرأى حصنًا مفتوحًا ، فأدخله ربُّه إليه ، وأغلق عليه باب الحصن ، فهو يُشاهِدُ عدوه خارج الحصن؛ فاضطراب قلبه وخوفه من عدوه في هذه الحال لا معنى له .

وقد مُثُل ذلك بحال الطفل الرضيع في اعتماده ، وسكنونه ، وطمأنيته بشدي أمه لا يعرف غيره ، وليس في قلبه التفاتٌ إلى غيره ، كما قال بعض العارفين : المتوكِّل كالطفل ، لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكِّل لا يأوي إلا إلى ربه سبحانه»^(١) .

إِذَا فِلَقَ الْتَّقْوَى التَّوْكِلُ ؛ فَلَا بُدَّ لِلْمُتَقِيِّ مِنْ صَدَقِ التَّوْكِلِ عَلَى اللَّهِ وَإِلَّا فَهِيَ حَذْرٌ مَجْرَد دون نيةٍ صالحة ، فيقع في المحدود وهو أتقى ما يكون ، فتجد هذا المغبون الذي فقد التوكل مع التقوى رغم تحريمه

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢/٥٤٠).

وشدة اتقائه يقع في كبار يعافُها الفساق .. ألم تر إلى مصل قوام صوام يأكل أموال الناس بالباطل !! .. وأمثال ذلك كثير لاعتماده على التقوى وعدم توكله على الله ؛ فلابد منهما معاً . فبهما معاً يكفيك الله ما أهمك من عقبات الطريق ، فيوصلك ويلغُك إليه .

الرابع : التذكرة والتفكير كلّ منهما لقاح الآخر :

قال ابن القيم : «والذكرة والتفكير كلّ منهما لقاح الآخر ، إذا اجتمعا أنتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة» .

فالتفكير في مخلوقات الله مع الذكر زوجان لا يفترقان .. تأمل وقل : سبحان الله! .. فإذا ذكرت الله تفكّرت ، وإذا تفكّرت ذكرت .. نعم : الذكر يصفي القلب ، فيجعله لا يمر على شيء إلا تعقله وتتأمل فيه .. وكذلك التفكير يقوّي القلب فيجعله هائماً دوماً بذكر الله .. فاحرص - أخي - على هذين اللقاحين في طريق السير إلى الله يزهداك في الدنيا ويرغبك في الآخرة ويساعداك كثيراً في الوصول إلى الله - تعالى .

الخامس : الصبر لقاح بصيرة :

قال ابن القيم : «الصبر لقاح بصيرة ، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما . قال الحسن : إن شئت أن ترى بصيراً لا صبر له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً لا بصيرة له رأيته ، وإذا شئت أن ترى صابراً بصيراً فذاك» .. فذاك الرجل .. اللهم اجعلنا من رجالك .

صبر مع بصيرة .. أن ترى الحق فتعرفه ، وترى الباطل فتعرفه .. أن تعرف الحق من الباطل وتصبر عليهما حتى تصل إلى الله - عز وجل .

السادس : العزيمة لقاح البصيرة :

يقول ابن القيم : «والعزيمة لقاح البصيرة ، فإذا اجتمعا نال صاحبها خير الدنيا والآخرة ، وبلغت به همتها العالية كل مكان . فتخلف الكمالات إما من عدم البصيرة وإما من عدم العزيمة» .

ال بصيرة : أن يرى قلبك الحق فيعرفه ، فإذا رأى الحق عزم عليه فعاش عليه ، ثم تحدث لك عزيمة ثانية على ترك الباطل فتبعد عنه .

السابع : حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ لِقَاحُ الافتقارِ والاضطرارِ إِلَيْهِ :

يقول ابن القيم : «وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه ، فإذا اجتمعا أثمرا إجابة الدعاء» .

حسن الظن .. وتأمل هذا الحديث : «إِنْ رَجُلًا بَعِثْ فَحُوسِبْ فَتَقْلُثْ موازِينْ سَيَّئَاتِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ : خَذُوهُ إِلَى النَّارِ ، فَصَارَ يَلْتَفِتُ ، فَقَالَ اللَّهُ : رُدْوَهُ ، فَقَالَ اللَّهُ : عَبْدِي ، هَلْ وَجَدْتِ سَيِّئَةً فِي صَحِيفَتِكَ لَمْ تَعْمَلْهَا ، قَالَ : لَا يَا رَبِّ ، قَالَ : فَمَا بِالْكَ تَلْتَفَتْ ، قَالَ : مَا هَذَا ظَنِي فِيكَ يَا رَبِّ ، فَقَالَ اللَّهُ : خَذُوهُ إِلَى الْجَنَّةِ» .. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْجَنَّةَ .. لَمْ يَكُنْ ظَنِي بِكَ يَا رَبِّ أَنْكَ سَتَدْخِلْنِي النَّارَ ، بَلْ كَانَ ظَنِي أَنْكَ سَتَرْحَمْنِي وَتُدْخِلْنِي الْجَنَّةَ .. كَانَ هَذَا ظَنِي فِيكَ يَا رَبِّ .

قال الله - عز وجل - في الحديث القديسي : «أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي ما شاء»^(١) .. فما ظنك بالله ، العذاب أم الجنة؟ .. اللهم

(١) أخرجه : أحمد (٣/٤٩١) ، والطبراني (٢٢/٨٧) ، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في « صحيح الجامع الصغير » برقم (٤١٩٢) .

استرنا يا رب .. وإذا كنت تظن به خيراً فهل عملت خيراً؟! .. وهل تصلح وهل تستحق لأن يدخلك الجنة؟! .. اصدق مع الله يرحمك وينجيك .

حاول أن تكون مستحيقاً لأن يحبك الله ، فاضبط نفسك على طاعته .. فحسن الظن مع سوء العمل لا ينفع صاحبه ، فضلاً عن أنه سوء أدب مع الله ، قال الحسن : «إن قوماً غرّتهم الأمانى قالوا : نحن نحسّن الظن بالله وكذبوا ، لو أحسّنوا الظن لأحسّنوا العمل» .

فكيف تحسّن ظنك بالله وأنت تحرّبه ، وتعاديه بالمعاصي؟! .. كيف وأنت مولاه ظهرك؟! .. كيف وأنت لا تذكره؟! .. كيف وأنت لا تقرأ كلامه ولا تندّ أوصاره وأحكامه؟! .. كيف وأنت لا تطيعه؟! .. كيف تحسّن الظن بالله وأنت تفعل كل ما نهاك عنه؟! .. إن الأمر - إخواته - ليس لعباً ؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَا هُوَ بِالْمُهَزِّ﴾ [الطارق: ١٤] .

فأحسّن الظن بحق ؛ فاعمل .. أحسّن الظن ؛ فحسن الظن لقاح الافتقار والاضطرار . قال الله : ﴿أَمَّنْ يُحِبِّ الْمُضْطَرَ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] .

يا رب ، ليس لي إلا أنت .. افتقار واضطرار .. يا رب ، لو وكلتني إلى نفسي فسأضل ، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً ولا أقل من ذلك .. خذ بيدي يا رب .. لا سلط على أعداءك فأنا ضعيف .. لا تسلّمني للعصاة والمذنبين فأنا مفتون وضعيف .. **يا رب !**

سيدنا يوسف افتقر إلى ربه فقال : ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبَحْ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] .. فقل : يا رب .. قل : ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠] .. افتقر إلى الله في كل شيء .. يا رب ؛ لا أعرف أصلي فعلماني ..

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٤٩

يا رب ، القرآن ثقيلٌ علىٰ فسهّله لي .. يا رب ، لا أقوم الليل ولا أصلِي الفجر فبأي وجهٍ أقابلُك ، فخذْ بيدي .. يا رب ، المعاشي تملأ الأرض ، وكلما مسحتُ وقعتُ ، فخذْ بيدي .. يا رب .. يا رب .. هذا هو حال المؤمن ، كمثلِ رجلٍ في البحر علىٰ خشبةٍ يقول : يا رب .. يا رب ؟ فاللَّهم سَلَّمْنَا وارضَ عَنَا .. اضطرارٌ وافتقار مع حسن ظنٍ أنه لن يُخيب رجاءك فيه ؛ فیأخذ بذلك يدك ويبلغك المطلوب .

الثامن : الخشية لقاح المحنة :

قال ابن القيم : «والخشية لقاح المحنة ، فإذا اجتمعا أثمرا امثالاً الأوامر واجتناب المناهي ». .

قال سهل : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كلٍّ خطرةٍ وعند كل حركةٍ ، وهم الذين وصفهم الله - تعالى - ؛ إذ قال : ﴿وَقُلُّوْهُمْ وَجْلَهُ﴾ [المؤمنون : ٦٠] .

لما احضر سفيان الثوري جعل يبكي ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، عليك بالرجاء ؛ فإنْ عفو الله أعظم من ذنبك ، فقال : أو على ذنبي أبكي ؟ ! ، لو علمت أنني أموت على التوحيد لم أبال بأأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وقال ثابت البوني : ما شرب داود عليه السلام شراباً بعد المغفرة إلا ونصفه ممزوج بدموع عينيه .

وهذا الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : «لأنَّ دموع دموعة من خشية الله أحب إلىٰ من أنْ أتصدق بألف دينار». .

وقالت ابنة الريبع بن خثيم : «كنت أقول لأبي : يا أباها ، ألا تنام ؟ !
فيقول : يا بنتي ، كيف ينام من يخافُ البَيَاتِ ؟ !

وقال الحسن - رحمه الله - : يحقّ لمن يعلم أن الموت مورده ، وأن
الساعة موعده ، وأن القيام بين يدي الله - تعالى - مشهده أن يطول
حزنه .

«قال يوسف بن أسباط : كان سفيان الثوري إذا أخذ في ذكر الآخرة
يبول الدم»^(١) .

وعن زيد بن أبي الزرقاء قال : حمل ماء سفيان إلى طبيب في علته ،
فلما نظر قال : هذا ماء رجل قد أحرق الخوف جوفه^(٢) .
إخوته ، طوبى لقلوب ملائتها محبة الله فخافتة .

حكيم بن حزام سيد شعارة الحب .. كان تضليله يطفو بالبيت
ويقول : لا إله إلا الله ، نعم رب ونعم الإله ، أحبه وأخشاه^(٣) .

وقال هرم بن حيان : المؤمن إذا عرف ربّه - عزّ وجلّ - أحبّه ، وإذا
أحبّه أقبل إليه ، وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدنيا بعين
الشهوة ، ولم ينظر إلى الآخرة بعين الفترة ، وهي تحسّره في الدنيا
وتروّحه في الآخرة .

(١) سير أعلام النبلاء ، للذهبي (٢٤٢) .

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/٢٧٠) .

(٣) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس ، لابن رجب الحنبلي (١٢٩) .

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٥١

قال خليل العصري : يا إخوتاه : هل منكم من أحد لا يحب أن يلقى حبيبه؟! ، ألا فاحببوا ربكم - عز وجل - وسيراوا إليه سيرا جميلا ، لا مصعدا ولا مميلا^(١).

ولله در القائل :

فاستجمعتْ مُذْرَأَكَ الْقَلْبُ أَهْوَائِي	كانتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءً مَفَرَّقَةً
وَصِرْتُ مَوْلَى الْوَرَى مُذْصِرَتَ مَوْلَائِي	فَصَارَ يَحْسُدُنِي مَنْ كُنْتُ أَحْسُدُهُ
شُغْلًا بِحُبِّكَ يَا دِينِي وَدُنْيَائِي	تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَلَهُوَهُمْ

وقال الشاعر :

بِحُبِّكَ أَنْ يَحِلَّ بِهِ سُواكَا	أَرْوُحُ وَقْدَ خَتَمَتْ عَلَى فَوَادِي
فَلْمَ أَنْظَرَ بِهِ حَتَّى أَرَاكَا	فَلَوْ أَنِّي اسْتَطَعْتُ غَضَضُ طَرْفِي
وَإِنْ لَمْ يُبْقِ حُبُّكَ لِي حِرَاكَا	أُحِبُّكَ لَا بِعِصْبِيْ بل بِكُلِّي
وَآخِرَ يَدَعِي مَعْهُ اشْتِرَاكَا	وَفِي الْأَحْبَابِ مُخْتَصٌ بِوْجَدِ
وَرَبِّي لَا يُقْرِرُ لَهُمْ بِذَاكَا	وَكُلُّ يَدَعِي حُبًا لِرَبِّي
تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مَمَنْ تَبَاكِي	إِذَا اشْتَبَكْتُ دُمُوعًا فِي حُدُودِ
وَيَنْطَقُ بِالْهُوَى مَنْ قَدْ تَبَاكِي	فَأَمَّا مَنْ بَكَى فِي ذُوبَ وَجْدًا

وقال مسمع بن عاصم : سمعت عابدا من أهل البحرين يقول في جوف الليل : قرآن عيني وسرور قلبي !! ، ما الذي أسلقطني من عينيك يا مانع العِصم .. ثم صرخ وبكى ، ثم نادى : طوبى لقلوب ملأتها خشيتك ،

(١) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس (١٢٧).

واستولت عليها محبتك ، فمحبتك مانعة لها من كُل لذة غير مناجاتك والاجتهاد في خدمتك ، وخشيتك قاطعة لها عن سبيل كُل معصية خوفاً لحلول سخطك . ثم بكى وقال : يا إخواته ، ابكوا على فوت خير الآخرة ؛ حيث لا رجعة ولا حيلة .

وعتبة الغلام القائل : تراك مولاي تعذب محبيك وأنت الحي الكريم :

«قال عنه سليم النحيف : رممت عتبة ذات ليلة ، فما زاد ليته تلك على هذه الكلمات : إن تعذبني فإني لك محب ، وإن ترحمني فإني لك محب . فلم يزل يرددتها وي بكى حتى طلع الفجر .

وقال عتبة الخواص : بات عندي عتبة الغلام ذات ليلة ، فبكى من السحر بكاء شديداً ، فلما أصبح قلت له : قد فرّعت قلبي الليلة بيكانك ، ففيم ذاك يا أخي ؟ قال : يا عتبة ، إني والله ذكرت يوم العرض على الله . ثم مال ليسقط فاحتضنته . . . فناديته : عتبة عتبة ، فأجابني بصوت خفي : قطع ذكر يوم العرض على الله أوصال المحبين . قال : ويردده ، ثم جعل يحسرج البكاء ويردده حشرجة الموت ويقول : تراك مولاي تعذب محبيك وأنت الحي الكريم ؟ ! قال : فلم يزل يرددتها حتى والله أبكاني .

وقال عتبة - رحمه الله - : من سكن حبه قلبه لم يوجد حررا ولا بردأ . قال عبد الرحيم بن يحيى الدبيلي : يعني من سكن حب الله قلبه ، شغله حتى لا يعرف الحر من البرد ، ولا الحلو من الحامض ، ولا الحار من البارد .

وقال عتبة - رحمه الله - : من عرف الله أحبه ، ومن أحب الله

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٥٣

أطاعه ، ومن أطاع الله أكرمه ، ومن أكرمه أسكنه في جواره ، ومن أسكنه في جواره فطوباه وطوباه ، وطوباه وطوباه . فلم يزل يقول : وطوباه حتى خر ساقطاً مغشياً عليه^(١) .

والخلاصة : لِقُحْ الْحُبَّ بِالخُشْيَةِ . . تَقُوَّ عَلَى طَرِيقِ السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ .

الحادي عشر : الصبر لقاح اليقين :

أنا على يقين بأن الله سينصر أمة محمد ﷺ ، فهل أنت على يقين؟ .. يأتي اليقين بالصبر ، قال - تعالى - : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا إِعْلَيْنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] .. بالصبر واليقين تبلغ الإمامة في الدين .

الصبر على البلاء .. والصبر عن المعصية .. والصبر على الطاعة ..
الصبر مع الله وبالله .. الصبر لقاح اليقين .. فاصبروا - إخواته -
صبراً جميلاً .

علامات اليقين :

قال الفيروزآبادي : ثلاثة من علامات اليقين :

- ١ - قلة مخالطة الناس في العشرة .
- ٢ - ترك المدح لهم في العطية .
- ٣ - التزره عن ذمهم عند الممنع .

(١) حلية الأولياء ، للأصبhani (٦/٢٣٤ - ٢٣٦) .

وَمِنْ عَلَامَاتِهِ أَيْضًا :

النَّظَرُ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَالرُّجُوعُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ ، وَالاسْتِعَانَةُ بِهِ فِي كُلِّ حَالٍ^(١).

العاشر : صحة الاقتداء بالرسول ﷺ لقاح الإخلاص :

صحة الاقتداء بالرسول ﷺ تورث الإخلاص ، فإذا اجتمعا أثمراً قبول العمل وجود أثره .

شروط قبول العمل شرطان : الإخلاص والمتابعة .. فإذا لم تكن مُخلِّصاً فأكثُر من أعمالِ السُّنَّة يأتِكَ الإخلاص . وإذا كنتَ لا تعمل .. إذا كنتَ بطيناً وضعيفاً وخاماً ؛ فأكثُر من الإخلاص يضعكَ اللَّهُ في الخدمة فتكون من خدامِه .. إذا فلابدَ من وجود أحد الشرطين لديك ليتوفر الآخر .. وآهِ ممن فقد الشرطين !! .. كيف يكون حاله؟! .. وماذا يصنع؟! .. ليس له إلا أن يقول : يا رب .

كنتُ أقول لأولادِي الصغار مرأة : لو أخلصَ الواحدُ مِنَّا أثمرَ ذلك متابعةَ النبي ﷺ ، أمَّا لو تابَعَ النبيَّ ﷺ أثمرَ الإخلاص؟ .. هذه هي قضية «البيضة أم الفرخة؟» .. الاثنان معاً .. يجلب أحدهما الآخر .. هذا هو اللقاح .. فلو كنتَ مخلصاً فلابدَ أن تكونَ حالكَ متابعةَ النبيِّ ﷺ ، ولو كنتَ مُتَّبعاً فلابدَ أن تكونَ حالكَ الإخلاص .

(١) بصائر ذوي التمييز في تفسير الكتاب العزيز (٣٩٧/٥) عن «موسوعة نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ» (٣٧١٩/٨) .

وثمرة الإخلاص والمتابعة قبُول العمل وجود ثمرة العمل .. أن تجد نتيجة العمل .. فلو كنت مخلصاً مُتَّبعاً وخرجت إلى الشارع لا تنظر إلى البناء مطلقاً .. هذه نتيجة وثمرة العمل الصالح .. أنك لا تعصي .. لو كنت مخلصاً ومُتَّبعاً لوجدت أنك تستيقظ قبل الفجر تنتظر الصلاة فتجلس حاضر القلب .. ثمرة ونتيجة .. فتجد من نفسك إحباتاً وخشيته في قلبك .

قال العلماء : «بين العمل وبين القلب مسافة ، وبين القلب وبين الله مسافة ، وبين تلك المسافات قطاع طرق .. فترى الرجل كثير الصلاة ، كثير الصيام ، كثير ذكر الله وقراءة القرآن ولم يصل إلى قلبه من ذلك شيء .. نعم : قطاع طرق قطعوا الطريق عليه .. لكن لو عمل بإخلاص ومتابعة فلابد أن يصل إلى القلب أثر العمل .

الحادي عشر : العمل لقاح العلم :

العلم والعمل وجهان لعملة واحدة ، وزوجان لا ينفصلان في الأصل ؛ ولذلك إذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة .. فإذا تعلمت ولم تعمل كنت مُناافقاً ، وإذا عملت بدون علم كنت مُبتدعاً .. والذى يعلم ولا يعمل فيه شبهة من المغضوب عليهم اليهود ، والذى يعمل بدون علم فيه شبهة من الضاللين النصارى .. إذا فلابد أن يقترب العلم بالعمل .. قال الإمام علي رضي الله عنه : «العلم يهتف بالعمل؛ فإن أجا به وإن ارتحل» .. فاعمل بما علمت تزداد علماً وتنهى وخشيته .. لقح العلم بالعمل .

قال الإمام الشاطبي - رحمه الله تعالى - في «المواقفات»^(١) : «كل مسألة لا يتبني عليها عمل فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي، وأعني بالعمل عمل القلب وعمل الجوارح من حيث هو مطلوب شرعاً . . ويبيّن رحمه الله أن الدليل على ذلك استقراء الشريعة، فيذكر جملة من الآيات والأحاديث الدالة على أن الشارع يعرض عما لا يفيد عملاً مكلفاً به .

ومن هذه الأدلة باختصار : قوله - تعالى - : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ، فوقع الجواب بما يتعلق به العمل؛ إعراضًا عما قصده من السؤال عن الهلال : لم يbedo في أول الشهر دقيقاً كالخطيط ، ثم يمتليء ، ثم يصير بدرًا ثم يعود إلى حاليه الأولى .

وقال - تعالى - بعد سؤالهم عن الساعة : ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَهَا﴾ [الازعات: ٤٣] ؛ أي : إن هذا سؤال عما لا يعني؛ إذ يكفي من علمها أنه لابد منها؛ ولذلك لما سُئل رحمه الله عن الساعة قال للسائل : «ما أعددت لها»؛ إعراضًا عن صريح سؤاله ، إلى ما يتعلق به مما فيه فائدة ، ولم يجُبه عما سأله .

وقد كان مالك بن أنس يكره الكلام فيما ليس تحته عمل ، ويحكي كراهيته عمن تقدم .

ويؤكد الإمام الشاطبي رحمه الله على أن كل علم طلب الشارع له؛ إنما

(١) المواقفات (٤٦/١ - ٩٣ ، ٣٢١ ، ٣١٩/٣) باختصار شديد .

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٥٧

يكون حيث هو وسيلة إلى التعبد به إلى الله .. قال - تعالى - : ﴿وَإِنَّمَا
لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلِمَنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨] ، قال قتادة : يعني لذو عمل بما علمناه .
وروي عن أبي جعفر محمد بن علي في قول الله - تعالى - : ﴿فَكُبَرُ كُبُرُوا
فِيهَا هُمْ وَالْغَافُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤] ؛ قال : قوم وصفوا الحق والعدل بالستهم
وخالفوه إلى غيره .

وعن أبي الدرداء : إنما أخاف أن يقال يوم القيمة : أعلمت أم
جهلت؟ ، فأقول : علمت؛ فلا تبقى آية من كتاب الله آمرة أو زاجرة إلا
جاءتني تسألني فريضتها؛ فتسألني الآمرة : هل ائتمرت؟ ، والزاجرة : هل
ازدجرت؟ ، فأعوذ بالله من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشى ، ومن
نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع .

وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد قال : أدركت الناس
وما يعجبهم القول؛ إنما يعجبهم العمل .

ويواصل الشاطبي حديثه قائلاً :

والأدلة على هذا المعنى أكثر من أن تُحصى . وكل ذلك يتحقق أن
العلم وسيلة من الوسائل ، ليس مقصوداً لذاته من حيث النظر الشرعي؛
 وإنما هو وسيلة إلى العمل . وكل ما ورد في فضل العلم فإنما هو ثابت
للعلم من جهة ما يتوسل به إليه ، وهو العمل .

وإنما يكون العلم باعثاً على العمل إذا صار للنفس وصفاً وخلقاً ..

وهذا ينصح الشاطبي رحمه الله المشتغلين بالعلم ، والذين لم يصلوا بعد إلى

مرتبة الذين صار العلم لنفسهم وصفاً وخلقاً ، بعدم ترك العلم لعدم عملهم به بدايةً أو لسوء نيتهم فيه ؛ عليهم بمواصلة الطلب ؛ فإنه سيلجئُهم حتماً إلى العمل .

يقول رَحْمَةُ اللَّهِ : « على أن المثابرة على طلب العلم والتفقة فيه ، وعدم الاجتزاء باليسير منه ؛ يُجرِي إلى العمل به ، ويُلْجِئُ إليه ، وهو معنى قول الحسن : كُنَا نَطْلُبُ الْعِلْمَ لِلْدُنْيَا فَجَرَنَا إِلَى الْآخِرَةِ . وعن حبيب بن أبي ثابت : طلبنا هذا الأمر وليس لنا فيه نية ، ثم جاءت النية بعد . وعن أبي الوليد الطيالسي قال : سمعت ابن عيينة منذ أكثر من ستين سنة يقول : طلبنا هذا الحديث لغير الله فأعقبنا الله ما ترون » .

وإذا كان لِقَاحُ الْعِلْمِ الْعَمَلُ بِهِ ، وَأَنَّ زَكَاتَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ .. هذا في حق كل الناس ، فهم مكفرون بالعمل .. إذا كان ذلك فالعمل في حق من هم مظنة الاقتداء بهم أخرى وأولى .

وفي نهاية هذا البحث الماتع يقول الشاطبي - رحمه الله - : « فالحاصل

أنَّ الأفعال أقوى في التأسي والبيان إذا جامعت الأقوال ، من انفراد الأقوال ، فاعتبارها في نفسها لمن قام في مقام الاقتداء أكيد لازم ؛ بل يقال : إذا اعتبر هذا المعنى في كل من هو مظنة الاقتداء ومنزلة التبيين ؛ ففرض عليه تقدُّم جميع أقواله وأعماله . ولا فرق في هذا بين ما هو واجب وما هو مندوب أو مباح أو مكروه أو ممنوع . وهذا البيان الشافي المخرج عن الأطراف والانحرافات هو الراد إلى الصراط المستقيم » اه .

الثاني عشر : الحِلْمُ لِقَاحُ الْعَمَلِ : الحِلْمُ أَنْ تَكُونَ حَلِيمًا فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ ، وَحَلِيمًا مَعَ خَلْقِ اللَّهِ .

الحِلْمُ فِي شَرِيعَةِ اللَّهِ : أَنْ تُشْفِقَ عَلَى الْعُصَمَةِ وَالْمَذَنِبِينَ وَتَنْتَظِرَ إِلَيْهِمْ بَعْيَنِ الرَّحْمَةِ وَالْعَطْفِ . . تَتَحَمَّلُهُمْ وَتَحَاوِلُ أَنْ تَأْخُذَ بِأَيْدِيهِمْ لِتَنْقَذَهُمْ مِنَ الغُرْقِ ، لِتَدْفَعَهُمْ إِلَى طَرِيقِ اللَّهِ . . تَبْدُلُ نَفْسَكَ لِتَتَشَبَّهُمْ مِنْ نِيرَانِ الْمَعَاصِي الْمُحْرِقَةِ . . وَيُساعِدُكَ تَذَكُّرُ حَالِكَ قَبْلُ ، وَأَنَّ اللَّهَ مَنْ عَلَيْكَ وَنَجَّاكَ . . وَقَدِيمًا قَالُوا : لَا يَضْحَكُ فِي وَجْهِ الْمَعَاصِي إِلَّا عَالَمُ . . نَعَمْ : كَلَمَا ازْدَادَ الْإِنْسَانُ عِلْمًا ازْدَادَ حِلْمًا .

قال منصور بن محمد الكريري :

سَأَلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَذْنِبٍ
وَإِنْ كَثُرْتُ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةِ
شَرِيفٍ وَمُشْرِفٍ وَمِثْلُ مُقاوِمٍ
وَالْحِلْمُ يُبَدِّلُ الْعَدَاوَةَ مَحَبَّةً ؛ قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : «أَدْفَعْ بِإِلَيْتِي هَيَّ
أَحَسَّنُ فَإِذَا أُلْذِي بَيْنَكَ وَبَيْنِهِ عَدَاوَةً كَانَهُ وَلِيُّ حَمِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا أَلْذِنَ
صَبَرُوا وَمَا يُلْقَنَهَا إِلَّا ذُرْ حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٣٤-٣٥﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥] . . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ
مَعِينُ بْنُ أَوْسٍ الْمُرَنِي ^(١) :

بِحِلْمِي كَمَا يُسْفَنَى بِأَدْوِيَةِ كَلْمٍ
فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمٌ
فَأَبْرَأَتُ غِلَّ الصَّدَرِ مِنْهُ تَوَسِّعًا
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنُهُ

(١) الْحِلْمُ لَابْنِ أَبِي الدَّنِيَا (٤٣) .

إخواته ، الحلم طريق العمل .. فإذا كنت لا تعمل فكن حليماً يأتوك العمل .. كن حليماً يُحبك الله ؛ قال رسول الله ﷺ : لأشجع عبد القيس : «إِنَّ فِيكَ حَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحَلْمُ وَالآنَةُ»^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(٢) .

وقال رسول الله ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفِيقَ، وَيَعْطِي عَلَى الرَّفِيقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سَوَاهُ»^(٣) .

وقال رسول الله ﷺ : «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ - أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارِ؟ - تَحْرُمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنِ لَيْنِ سَهْلٍ»^(٤) .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، كن حليماً مع خلق الله ، واقتدي بنبيك ﷺ وصحابته الأكرمين وسلفك الصالحين .

عن أنسٍ رضي الله عنه قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَّجْرَانِي غليظُ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجذبه برداهه جذبة شديدة ، فنظرتُ إلى صفحاتِ عنقِ رسول الله ﷺ وقد أثَرَ بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مُرْ لي ، فالتفت إليه فَسَحَّكَ ، ثم أَمَرَ له بِعَطَاءٍ^(٥) .

(١) أخرجه : مسلم (١٧) .

(٢) أخرجه : البخاري (٦٩٢٧) .

(٣) أخرجه : مسلم (٢٥٩٣) .

(٤) أخرجه : الترمذى (٢٤٨٨) وقال : حديث حسن غريب ، وقال الألبانى : صحيح .

(٥) متفق عليه : البخاري (٥٨٠٩) ، ومسلم (١٠٥٧) .

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعَلَكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٦١

وَشَتَّمْ رَجُلٌ أَبَا ذِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا هَذَا لَا تَسْتَغْرِقْ فِي شَتِّيْنَا ، وَدُعْ لِلصَّلَحِ مَوْضِيْعًا . . فَإِنَّا لَا نَكَافِيْ مَنْ عَصَيَ اللَّهَ فِينَا بِأَكْبَرِ مِنْ أَنْ نُطِيعَ اللَّهَ فِيهِ .

وَكَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - صَائِمَةً فَأَمْرَثَ جَارِيَتَهَا بَرِيرَةً أَنْ تَصْنَعَ لَهَا طَعَامًا ، لِتُقْطِرَ بِهِ ، فَتَشَاغَلَتْ عَنِ ذَلِكَ حَتَّى مَضَى النَّهَارُ ، وَجَاءَ الْمَغْرِبُ ، فَلَمْ تَجِدْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ طَعَامًا ، فَالْتَّفَتَ إِلَيْهَا وَقَالَتْ وَهِيَ تَكْتُمُ غَيْظَهَا : «لِلَّهِ دَرُّ التَّقْوَى لَمْ تَدْعُ لِذِي غَيْظٍ شِفَاءً» .

«وَقَيْلَ لِلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ : مَنْ أَيْنَ تَعْلَمَ الْحَلْمَ؟» ، فَقَالَ : مَنْ قَيْسٍ ابْنُ عَاصِمٍ . قَيْلَ : وَمَا بَلَغَ حَلْمُهُ؟ ، قَالَ : بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي دَارِهِ ، إِذْ أَتَتْهُ جَارِيَةٌ لَهُ بِسَقْفُودٍ عَلَيْهِ شِوَاءً ، فَسَقَطَ مِنْ يَدِهَا ، فَوَقَعَ عَلَى ابْنِ لَهٖ صَغِيرٍ فَمَاتَ ، فَدُهِشَتِ الْجَارِيَةُ ، فَقَالَ لَهَا : لَا رَوْعَ عَلَيْكِ ؛ أَنْتِ حَرَّةٌ لِوَجْهِ اللَّهِ - تَعَالَى»^(١) .

«وَقَيْلَ : إِنَّ أَوَيْسَا الْقَرَنِيَّ كَانَ إِذَا رَأَاهُ الصَّبِيَانُ يَرْمُونُهُ بِالْحَجَرَةِ ، فَكَانَ يَقُولُ لَهُمْ : يَا إِخْوَتَاهُ ، إِنْ كَانَ وَلَابُدَّ فَارْمُونِي بِالصُّعَارِ ؛ حَتَّى لَا تُدْمُوا سَاقِيَ ، فَتَمْنَعُونِي عَنِ الصَّلَاةِ»^(١) .

«وَكَانَ لَيْحَيَى بْنِ زِيَادَ الْحَارَثِيَّ غُلَامٌ سُوءٌ ، فَقَيْلَ لَهُ : لِمَ تُمْسِكُهُ؟! ؟» ، فَقَالَ : لَا تَعْلَمُ الْحَلْمَ عَلَيْهِ»^(١) .

وَكَانَ لَمَعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قِطْعَةُ أَرْضٍ وَبِجُوارِهَا أُخْرَى لَعْبَدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ كَانَ يَجْلِسُ فِيهَا هُوَ وَأَهْلُهُ . . فَكَانَ عُمَالُ مَعَاوِيَةَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ . .

(١) إِحْيَاء عِلْمِ الدِّين (٣/٧٧).

أصول الوصول إلى الله تعالى

فكتب إلى معاوية يقول : يا ابن آكلة الأكباد ، امنع عمالك عنِي ؛ وإلا كان لي ولَكَ شأن .. والسلام .

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه لولده يزيد وقال له : ما ترى ؟ ، قال : أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عندَه وأخره عندك يأتونك برأسِيه . فقال له معاوية : غير هذا خير . ثم قلبَ الكتاب وكتب على ظهرِه : أما بعد : فقد وقفت على كتابِك يا ابن حواري رسول الله ﷺ ، ويَا ابن ذات النطاقين ، وسأعني ما ساءك .. ووالله لو كانت الدنيا بأسرها بيُني وبينك لأتيتك بها .. وقد نزلت عن أرضي لك ، فأضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال .. والسلام .

فلما قرأها ابن الزبير رضي الله عنه بكي .. وكتب إليه : قد وقفت على كتابِ أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه ، ولا أعدمُ الرأي الذي أحلَّه من قريشِ هذا المَحَل .. والسلام .

فلما وقف معاوية عليه تهلل وجهُه وأسفَرَ ، وقال لابنه : يا بُنَيَّ ، من عفا ساد ، ومن حلمَ عظُم ، ومن تجاوزَ استعمالِه القلوب .. فإذا ابتليت بشيءٍ من هذه الأمور فدَاؤه يمثلُ هذا الدَّواء .

نعم - إخواته - : وصلَ هؤلاء إلى الله - تعالى - بترويضِ أنفسِهم على طاعته ولزومِ أوامره واجتنابِ نواهيه .. وهذا أيضًا من الحِلْم في شرع الله .. قال - جلَّ جلاله - : ﴿فَاصْفَحْ الصَّفَحَ الْجَيْلَ﴾ [الحجر: ٨٥] ، وقال - جلَّ جلاله - : ﴿وَلَيَعْفُوا وَلَيَصْفُحُوا أَلَا تَحْبُّونَ أَن يغْفِرَ اللهُ لَكُم﴾ [النور: ٢٢] ، والعفوُ : تركُ المؤاخذة على الذنب ، والصفحُ : تركُ التأنيبِ

«وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ»

٢٦٣

عنه . وقال - جَلَّ جَلَالُه - : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤] ، وقال - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ عَزَّمَ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣] .

والخلاصة : لَقْحُ الْعَمَلِ بِالْحَلْمِ .

وبعد - إخواته - : بهذه لِقاءاتٍ على الطريق .. لِقاءاتٍ على طريق السير والوصول إلى الله ، تُقوِّيك وتتهيئ لك أسباب الوصول .. فاللزم كل زوج من هذه اللقاءات تَجْنِ ثِمارَ خَيْرٍ كُلٌّ منها ؛ لقطع الطريق بقوّة وسرعة وسُهولة .. وتذكّر دائمًا قول الله - تعالى - : ﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لَعْلَكُمْ تَذَكَّرُونَ فَفَرُوا إِلَى اللَّهِ ﴾ .. فَرُوا إِلَى الله .. الجاء إلى الله ، واعتمد عليه ، واستعن به .. وانطلق .

* * *

الأصل الحادي والعشرون

مَنْ صَفَّيْ صُفِّيَ لَهُ، وَمَنْ كَدَرَ كُدُّرَ عَلَيْهِ

اللَّهُمَّ إِنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تُصْفِيَ لَنَا أَعْمَالَنَا مِنَ الْكَدَرِ، وَقُلُوبَنَا مِنَ الرِّيَاءِ،
وَأَعْيُنَنَا مِنَ الْخِيَانَةِ، وَأَسْتَنَنَا مِنَ الْكَذِبِ .. اللَّهُمَّ إِنَا نَسْأَلُكَ أَنْ تُصْفِيَ لَنَا
حَيَاةَنَا لِتَكُونَ خَالِصَةً لَكَ .. مَنْ صَفَّيْ صُفِّيَ لَهُ، وَمَنْ كَدَرَ كُدُّرَ عَلَيْهِ.

أَيُّهَا الْأَخُوْدُ الْكَرِيمُ، اسْمَحْ لِي أَنْ أَقُولَ لَكَ : إِنَّ الْعَلَاقَةَ مَعَ اللَّهِ عَلَاقَةٌ
ذَاتُ حَسَاسِيَّةٍ بَالْغَةٍ .. وَبَعْضُ الشَّبَابِ لَا يَلْتَفِتُ لِتَلِكَ الْعَلَاقَةِ، فَتَرَاهُ يَلْتَزِمُ
- اللَّهُمَّ ارْزُقْ شَبَابَنَا الْإِلْتَزَامَ، اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُمْ عَلَى الإِيمَانِ، اللَّهُمَّ نَجْهَمْ مِنَ
الْفَتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ - وَيَبْدُوا الطَّرِيقَ؛ وَمَعَ ذَلِكَ لَا يَزَالُ يَتَلَوَّنُ،
لَا يَزَالُ تَافِهًا وَفَارِغاً، لَا يَزَالُ مَاءُ قَلْبِهِ مُعَكَّرًا .. تَرَاهُ يَمْكُرُ بِاللَّهِ .. يَحَاوِلُ
أَنْ يَخْدُعَ اللَّهَ .. وَإِنَّمَا أُتَيَ هَذَا الْمُسْكِنُ مِنْ جَهَلِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ اللَّهَ.

لَقَدْ كُنْتُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَأَخْرَجْتُ جُنْيَهَا وَقُلْتَ : هَلْ رَأَيْتُمْ هَذَا
الْجُنْيَهُ؟! .. إِنَّ الَّذِي أَعْطَانِي هَذَا الْجُنْيَهَ رَجُلٌ «بَقَالٌ» .. وَالْجُنْيَهُ مَكْتُوبٌ
عَلَيْهِ بِخَطٍّ وَاضْعَفَ : «حَبِيبِي الْغَالِيَهُ، كُلُّ عَامٍ وَأَنْتَ بِخَيْرٍ، أَحُبُّ أَنْ أَعْبُرَ
لَكَ عَمَّا فِي دَاخْلِي .. وَاللَّهِ يَا حَبِيبِي لَوْلَا خَوْفِي مِنَ اللَّهِ، وَأَتَيْتُ أَعْبُدُهُ،
لَعَبَدْتُكَ أَنْتَ يَا حَبِيبِي .. حَبِيبُكَ فَلَانٌ» .. الْبَعْضُ يَضْحَكُ مِنْ هَذَا،
وَوَاللَّهِ إِنَّهُ لَأَمْرٌ يُوجِعُ الْقَلْبَ .

إِنَّ هَذَا الْوَلَدَ مِنَ الْمُمْكِنَ مَا يَكُونُ مُؤْمِنًا، بَدْلِيلٍ أَنَّ أَوَّلَ كَلْمَهٍ قَالَهَا :

لولا خوفي من الله .. هذا الكلام قد يقوله البعض ؛ ولكن الحقيقة أن هذا الولد لو كان خائفاً من الله ما قال هذا الكلام بدايةً .. نعم : هو جاهلٌ غير خائف ، أخرج ما بداخله وأظهره . وما أكثر منْ بداخلهم مثلُ هذا الشاب وأكثر ، ولكنهم لا يقولون بأسنتهم ؛ لأنهم كاذبون ، يخادعون الله .

قال البقال كلمة جميلة جداً : «انظر! .. الولد يقول لها : أعبدك ، وهي باعْتَه وصرفتْ الجنيه!!» .. باعْتَه وتركْتَه رغم أنه يعبدها!!

الجهلُ يا شبابُ يفعلُ أكثرَ مِنْ هذا .. فهؤلاء الشبابُ المساكينُ في جهلٍ مُطْبِقٍ بالعقائدِ .. بالدينِ .. بالفقهِ .. وهذا الولدُ جاهمٌ وذنبُ أبيه وأمهُ مثلُ ذنبه تماماً؛ لأنهما لم يعرفاه بالدين ، ولو كان يعرف الله لما قال هذا الكلام . فلا تمكر بالله ، ولا تبع الله مثل هذا الشاب ، وتب إلى الله واصدُفه ..

ولذلك عندما أقول لك : تُبْ ، فتقول : تُبْ من كل شيء ؟؛ فأنت إذا كذاب .. حدد من أي شيء تُبْت .. تُبْت من ماذا ؟ ، فذنوْبك كثيرة؟! .. ينبغي أن تسمّي الأشياء بسمّياتها لتكون واضحةً .. تعامل مع الله بصراحة وإياك أن تُخادِعَ أو تمكر .

أخي في الله ، إذا التزمت فَصَفَ .. صَفَ .. لابد أن نصفَي أعمالنا مع الشيطان .. نصفَي حساباتنا مع النفس والهوى .. لابد أن نبدأ في تصفيَة أحوالنا مع الشهواتِ ، ليتقى حياثنا صافيةً تماماً لله وحده .

بعضُ الشباب ينظرُ إلى النساءِ المتبرجاتِ ، فهل هذا يُصفِّي أم يكدر؟ .. يقول : أشعر بقسوة في قلبي لا أعرف لماذا؟! .. عجيب أمرُك ! أَتَمُكِّر؟! .. أنت تعرفُ ما سببُ هذه القسوة .. فحينما تكدر يُكدرُ عليك .

أصول الوصول إلى الله تعالى

والعلماء يستدلون على هذا الأصل : «من صَفَى صُفِيًّا له ، ومن كَدَرْ كُدْرَ عليه» بقول الله - تعالى - : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عَبَادُ اللَّهِ﴾ [الإنسان: ٥-٦] .. عيناً يشرب بها من؟ «عبد الله» .. فهم أبرار ، عبد لله أولاً؛ ولذلك استحقوا النعيم والتكريم .

قال العلماء : الناسُ ثلَاثُ درجات : الدرجة الأولى : أصحاب الشمال - نعوذ بالله منهم - وهؤلاء هم أهل النار ، وإن كانوا في النهاية سيدخلون الجنة . والدرجة الثانية : الأبرار ، وهم من أهل الجنة ، والثالثة : المقربون وهم أفضل وأعلى من الأبرار .

إذا فأهل الجنة درجتان : أبرار ومقربون؛ ولذلك يقول عزوجل : ﴿وَلِمَنْ حَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، وفي قوله : ﴿وَمَنْ دُونِهِمَا جَنَّانٍ﴾ [الرحمن: ٦٢] ؛ جنستان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق (فضة) لأصحاب اليمين . وفي هؤلاء جميعاً يقول الله عزوجل : ﴿فَاصْحَبُ الْمَيْمَنَةَ مَا أَصْحَبُ الْمَسْكَنَةَ﴾ ﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾ ﴿أُولَئِكَ الْمَقْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٨-١١] .

أصحاب اليمين والسابقون أو الأبرار والمقربون .. درجتان : ممتازة وعادية .. فأيُّ الدرجتين تفضل؟!؛ ولذلك فإنَّ الناسَ الأبرار يقول الله فيهم : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأسٍ كَانَ مِزاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] .. مزاجها أي ممزوجة .. أي إنهم سيشربون ماءً كافوراً .. «مزاجها كافوراً»؛ أي : رائحتها كافور .. أما عبد الله المقربون فسيشربون كافوراً خالصاً، كافوراً صافياً .. لأنهم صَفَوا .. ومن صَفَى صُفِيًّا له ، ومن كَدَرْ كُدْرَ عليه .

لقد كنت أقول لأولادي - اللَّهُمَّ أصلحْ أُولَادِيَ وَأُولَادَ الْمُسْلِمِينَ ، اللَّهُمَّ
رَبِّ لَنَا أُولَادَنَا ، اللَّهُمَّ احْفَظْ أُولَادَنَا وَنَجِّهُمْ مِنَ الْفَتْنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ -
كنت أقول لهم عندما وجدتُ فيهم بعضَ الفتورِ وعدمِ الصفاءِ : أَنْتُمْ لِسْتُمْ
جُهَّالًا .. تَعْرَفُونَ فَضْلَ قِيَامِ اللَّيلِ ، وَتَعْرَفُونَ فَضْلَ صَلَاتِ النَّوافِلِ ، وَفَضْلَ
الذِّكْرِ ، وَفَضْلَ الصَّدَقَةِ .. وَتَعْرَفُونَ وَتَعْرَفُونَ .. فَلِمَاذَا إِذَا لَا تَعْمَلُونَ؟! ..
لِمَاذَا أَنْتُمْ كُسَالَى؟! .. قلت لهم وأقول لكم أيضًا لأنكم أيضًا أولادي :
تَعْرَفُونَ مَا السَّبَبُ؟! .. السَّبَبُ أَنْتُمْ لَمْ تَتَصَوَّرُوا الْجَنَّةَ كَمَا يَنْبَغِي .

وَقَلْتُ لِبَنَاتِي : أَنْتِ لَوْ مِتْ الْآنَ هَلْ سَتَكُونِينَ مَعَ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ أَوْ
عَائِشَةَ حَبِيبَةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ؟! .. إِذَا مَا فَائِدَةُ الْجَنَّةِ إِذَا لَمْ تَكُونِي مَعَ
هُؤُلَاءِ؟!!

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ فِي الْجَنَّةِ - اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْجَنَّةَ يَا رَبَّ - يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِ
رَبِّهِ بُكْرَةً وَعَشَيَّةً ، وَبَعْضُ النَّاسِ لَا يَرَى اللَّهَ إِلَّا كُلَّ جُمُوعَةٍ .. كُلَّ أَسْبُوعٍ
مَرَّةً .. فَمَاذَا تَنْوِي أَنْتِ؟ .. هَلْ تُحِبُّ أَنْ تَرَى اللَّهَ مَرْتَيْنِ فِي الْأَسْبُوعِ أَمْ
مَرَّةً كُلَّ يَوْمٍ؟ .. إِذَا كُنَا فِي الدُّنْيَا نَتَمَنِّي أَنْ نَأْتِيَ إِلَى دُرْسِ الْعِلْمِ كُلَّ يَوْمٍ ،
فَمَا بَالُنَا فِي الْجَنَّةِ بِرَوْيَةِ الْمَلَكِ !!

إِخْوَتَاهُ ، لَوْ أَنْتُمْ كَتَمْ فِي الْجَنَّةِ ، وَحُرِّمْتُ أَنْتَ مِنَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ
الْكَرِيمِ كُلَّ يَوْمٍ ، وَلَمْ تَتَمَتَّعْ بِرَوْيَتِهِ كَمَا يَتَمَتَّعُ أَهْلُ الْفَرْدَوْسِ ، فَكَيْفَ تَتَصَوَّرُ
حَالَكَ؟! .. نَعَمْ : سَتَكُونُ سَعِيدًا فِي الْجَنَّةِ وَلَكِنْ لَيْسَ كَسْعَادَةِ أَهْلِ
الْفَرْدَوْسِ .. هَذِهِ الْقَضِيَّةِ .. أَنْ تَفْكِرَ فِي حَالِكَ ، وَهَلْ أَنْتَ صَافِ
مَعَ اللَّهِ أَمْ لَا؟ .. هَلْ لَوْ مِتْ الْيَوْمِ سَتَكُونُ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ ﷺ؟ ..

أجب !! .. إذا فاعمل للفردوس الأعلى .. ابدأ وصف ولا تلتفت ، فإن الذي يضع الفردوس في ذهنه يظل يعمل لها طوال عمره لينالها .

نعم : لن تستطيع السير في الطريق إلى الفردوس إلا إذا صفيت ، فصف ليصفي الله لك قلبك ، ويصفي لك عبادتك .. صف ليصفي لك حياتك .. صف ليصفي لك طريقك إليه .. خل عنك مشاكلك ومشاغلك ولا تفك إلا في الله .. عِش لله خالصا صافيا .. لا تشغلي إلا بالله وحده .. وكلما صفيت لله صفي لك ..

ومن كدر كدر عليه .. فإذا وجدت في حياتك كدرًا ؛ كأن تجد والدك يضايقك حين التزمنت ، أو زوجتك أو زملاءك في العمل ؛ فاعلم يقيناً أن هذا الكدر منك أنت ، فلو كنت صافيا لله لأراح قلبك .. نعم : السبب : أنك لست بخالص .. كدرت فكدر الله عليك حياتك .. فصف يصف لك .

إذا وجدت أنك تقف في الصلاة فبشرُّ ذهنك ، وتقرأ القرآن فلا ترکز ولا تتدبر ، وتذکر الله وفكِّر شاردا .. فاعلم أنك كدرت العبادة .. لم تصُفْ بعد لله .. فالكدر آتٍ منك أنت .

ولذلك يقول العلماء : «من رأس العين يأتي الكدر» .. فالكدر خارج من داخلك أنت ، من أعماق قلبك ؛ فصف قلبك لله .. فرغ قلبك لله وحده ؛ ليصفي لك حياتك ؛ فتصيل إليه بأمان واطمئنان .

* * *

الأصل الثاني والعشرون

لا تتجاهل جانباً واحداً من جوانب الدين

الدين .. ما هو الدين؟!

بعض الناس يرى أن الدين هو الدعوة ، وكل همه الدعوة إلى الله ..
يجمع الناس ويدخلهم المساجد ويجلسون يكلّمهم ويهديهم ويدعوهم ،
ونسي كل شيء في الدين إلا هذه .. وبعض الناس يرى أن الدين مجرد
عبادة : صيام وقيام وذكر وصلاة .. ففرغ نفسه للعبادة تماماً وترك كل
الدين .. وبعض آخر يرى أن الدين هو العلم ؛ فتراه جالساً للعلم ليلاً
نهار .. علم .. علم .. ونسي بقية جوانب الدين .. وبعض آخر يظن أن
الدين إقامة الدولة ؛ فتراه يدأب ويحارب لينفي دولة الإسلام ، ونسي بقية
الدين وفرط فيه من أجل هذه الجزئية .

ليس هذا هو الدين .. الدين كل لا يتجزأ .. فكل هذا هو الدين ..
الدين هو العلم والعمل والعبادة والدعوة والجهاد للتمكين .. الدين
كُل .. وكثيراً ما أقول هذه الجملة : الدين لا يؤخذ بالقطاعي ، ولا يؤخذ
بالتقسيط .. لا يؤخذ بالقطعة .. الدين كُل؛ ولذلك يقول ربي - وأحق
القول قول ربي - : ﴿أَدْخُلُوا فِي الْسَّلَامِ كَافَةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] ؛ أي خذوا
الإسلام بكلياته ، واعملوا بكل ما فيه من بُر .

ولذلك حينما أخاطب منْ ترتدِي بنطَالاً بـأَن تلتزم؛ يقولون: أَحْمَدُ اللَّهُ، فـهـذـه أـفـضـل مـن غـيرـهـا.. خـطـوـة خـطـوـة.. فالـليـوم بـنـطـال وـغـدـاً تـلـبس الإـيـشـارـب.. وـهـكـذـا.. تـدـرـج؛ أـقـول: لـا.. لـيـس هـكـذـا الدـيـن.. الدـيـن لـيـس لـعـبـة.. الدـيـن لـيـس تـهـريـجـا؛ قـال اللـهـ - تـعـالـى - : ﴿وَذِرِ الَّذِينَ أَنْخَذُوا دِينَهُمْ لَعَبًا وَلَهُوَا﴾ [الأعـام: ٧٠].

وتتأمل معـي هـذـا الحـدـيـث العـظـيم الـذـي يـنـبـغـي أـلـا يـقـرـأهـ أـحـدـ قـطـ إـلا وـيـرـتـجـفـ قـلـبـهـ وـيـشـيـبـ شـعـرـهـ، حـدـيـثـ الـثـلـاثـة الـذـي رـوـاهـ أـبـو هـرـيـرـةـ رـضـيـعـيهـ قـالـ: سـمـعـتـ النـبـيـ ﷺ يـقـولـ: «إـنـ أـوـلـ النـاسـ يـقـضـيـ يومـ الـقـيـامـةـ عـلـيـهـ رـجـلـ اـسـتـشـهـدـ، فـأـتـيـ بـهـ، فـعـرـفـهـ نـعـمـهـ، فـعـرـفـهـاـ، قـالـ: فـمـا عـمـلـتـ فـيـهاـ؟ قـالـ: قـاتـلـتـ فـيـكـ حتـىـ اـسـتـشـهـدـتـ، قـالـ: كـذـبـتـ، وـلـكـنـكـ قـاتـلـتـ، لـأـنـ يـقـالـ: جـرـيـءـ، فـقـدـ قـيـلـ، ثـمـ أـمـرـ بـهـ، فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ، حتـىـ أـلـقـيـ فـيـ النـارـ، وـرـجـلـ تـعـلـمـ الـعـلـمـ وـعـلـمـهـ، وـقـرـأـ الـقـرـآنـ، فـأـتـيـ بـهـ، فـعـرـفـهـ نـعـمـهـ فـعـرـفـهـ، قـالـ: فـمـا عـمـلـتـ فـيـهاـ؟ قـالـ: تـعـلـمـتـ الـعـلـمـ وـعـلـمـتـهـ، وـقـرـأـتـ فـيـكـ الـقـرـآنـ. قـالـ: كـذـبـتـ، وـلـكـنـكـ تـعـلـمـتـ الـعـلـمـ، ليـقـالـ: عـالـمـ، وـقـرـأـتـ الـقـرـآنـ ليـقـالـ: قـارـئـ، فـقـدـ قـيـلـ، ثـمـ أـمـرـ بـهـ، فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ حتـىـ أـلـقـيـ فـيـ النـارـ، وـرـجـلـ وـسـعـ اللـهـ عـلـيـهـ، وـأـعـطـاهـ مـنـ أـصـنـافـ الـمـالـ كـلـهـ، فـأـتـيـ بـهـ، فـعـرـفـهـ نـعـمـهـ، فـعـرـفـهـاـ، قـالـ: فـمـا عـمـلـتـ فـيـهاـ؟، قـالـ: مـا تـرـكـتـ مـنـ سـبـيلـ تـحـبـ أـنـ يـنـفـقـ فـيـهاـ إـلـاـ أـنـفـقـتـ فـيـهاـ لـكـ. قـالـ: كـذـبـتـ، وـلـكـنـكـ فـعـلـتـ، ليـقـالـ: هـوـ جـوـادـ، فـقـدـ قـيـلـ، ثـمـ أـمـرـ بـهـ، فـسـحـبـ عـلـىـ وـجـهـهـ، حتـىـ أـلـقـيـ فـيـ النـارـ»^(١).

(١) أـخـرـجـهـ: مـسـلـمـ (١٩٠٥).

انظر كيف سررت جهنم بهؤلاء الثلاثة بعدما سحبوا على وجوههم إليها ، إنه - والله - شيءٌ مُخيفٌ .. شيءٌ رهيب .. عالم شهد الله له أنه علم فقال : علمت ليقال ، ثم يكون أول من يسحب على وجهه إلى جهنم .. عالم معلم .. شيخ داعية .. مشهور مؤثر .. له أتباع .. ومع ذلك يدخل جهنم ؛ لأنه فقد الإخلاص لله - سبحانه وتعالى .

وأظن أن ذلك أيضاً نتيجة أحاديث النزرة ؛ فلعله كان إذا دعى إلى جهاد أو صدقة أو قيام ليل أو مجلس ذكر أو إعانة فغير محتاج ؛ فإنه كان يقول : إنني عالم .. فهدم كل جوانب الدين ظناً أنه يكفيه هذا الجانب الذي هو فيه .. احتل به هذا الجانب أيضاً ، فهو في هوة سحقيقة من جهنم .

ومثله المتصدق : كان يعمل الليل النهار ليحوز المال الذي يتصدق به .. وقصر في كل جوانب الدين ، وإذا ذكرته ؛ يقول : أنا أفتح بيوتاً وأعمل فقراء وأقيمت جوعى ، إنما أعمل ليقوم بي ناس كثير .. فلما سقط هذا الجانب أيضاً ولم يكن له غيره هوى في بئر جهنم .

فإياك - أخي - أن تغتر بجانب تقوم به ؛ وإنما كن للدين كله - عافانا الله وإياك من اتباع الهوى .

الدين حين يأتي بالأمر ؛ فلا بد أن تلتزم به كله في الحال ، قال رسول الله ﷺ : «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فانتهوا»^(١) .

(١) متفق عليه : البخاري (٧٢٨٨) ، ومسلم (١٣٣٧) .

**يقولُ الشِّيخُ ابْنُ عُثَمِينَ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي مَنْظُومَتِهِ فِي أَصْوَلِ
الْفَقَهِ وَقَوَاعِدِهِ :**

وَالْأَمْرُ لِلْفَوْرِ فَبَادِرِ الزَّمْنَ إِلَّا إِذَا دَلَّ دَلِيلٌ فَاسْمَعْنَ

«وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا أَمْرَأَ بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ لِلْفَوْرِ؛
يُعْنِي يَجْبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعُلَهُ فُورًا مِنْ حِينِ أَنْ يُوجَدُ سَبَبُ الْوُجُودِ
وَيَكُونُ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ . «فَبَادِرُ الزَّمْنَ» يُعْنِي أَنَّ الزَّمْنَ يَمْضِي وَيَمْشِي؛
فَبَادِرُ قَبْلَ أَنْ يَفْوَتَ . وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَمْرَ أَصْحَابِهِ عَامَ
الْحُدَيْبِيَّةِ أَنْ يَحْلِقُوا وَيُحْلِقُوا، وَلَكِنَّهُمْ تَأْخَرُوا رَجاءً أَنْ يَحْدُثَ لَهُمْ نَسْخٌ ،
فَغَضِبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِذَلِكَ . فَكَانَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ الْمُطْلَقَ يَكُونُ
لِلْفَوْرِ ، وَلَوْ أَنَا قَلَنَا : يَجُوزُ التَّأْخِيرُ لِتَراكمِ الْمَأْمُورَاتِ وَكَثُرَتْ وَعَجَزَ
الْإِنْسَانُ عَنْهَا»^(١) .

فَإِذَا التَّرَمَتِ الْيَوْمُ عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَنْتَهِيَ عَنِ التَّدْخِينِ فِي
نَفْسِ الْلَّحْظَةِ الَّتِي التَّرَمَتِ فِيهَا . . لَيْسَ بِالتَّدْرِيْجِ . . فَلَا تَقُلْ : الْيَوْمَ أَدْخَنْ
عَشْرَ سَجَاجِيرَ وَغَدَّا خَمْسَا وَهَكَذَا حَتَّى أَقْلَعْ . . لَا . . وَلَا تَقُولِي - أَيْتَهَا
الْأَخْتَ الْمُتَبَرِّجَةَ - : الْيَوْمَ سَأَتْرُكَ «الْتَّزِينَ» وَبَعْدَ ذَلِكَ أَلْبُسُ مَلَابِسَ
طَوِيلَةَ ، ثُمَّ أَغْطِي شَعْرِي وَأَرْبِطُ رَقْبِي ثُمَّ أَرْتِدِي بَعْدَ ذَلِكَ الْحِجَابَ . .
لَا . . فَالْأَمْرُ دِينٌ . . الْيَوْمَ التَّرَمَتِ وَتُبَتِّ إِلَى اللَّهِ فَالْبَسِيِّ حِجَابِكَ
الشَّرِعيِّ ، وَسِيرِي عَلَى طَرِيقِ اللَّهِ ، وَانتَهَتِ الْقَضِيَّةُ .

(١) القواعد الفقهية (٤٥ - ٤٦) .

أحد الإخوة أراد أن يلعب تنّسًا ، فذهب إلى المدرب وقال له : ما المطلوب في لعب التنّس ، فقال له المدرب : مضرب تنّس ، و «كاب» أبيض ، وفانلة بيضاء ، و «شورت» أبيض ، وجورب أبيض ، و «بوت» أبيض .. فقال له الأخ : لا يصح التنّس إلا بهذا اللبس؟ ، قال له : نعم ، لا يكون التنّس إلا بهذا الشكل .. فذهب الأخ وأحضر اللبس ؛ فأتي و هو يحمل المضرب ، فقابلته أحد من يعرفه فقال له : أتلعب تنّسًا؟!! .. لماذا تلعب؟!! .. فانظر إلى تعجب الناس منه .. لأنهم يظنون في الأصل أنه رجل دين لا يلعب ولا يلهو!!

الشاهد من هذا الموقف : أنَّ مَنْ يُرِيدُ الدِّينَ فَلَا بُدَّ أَنْ يلبِسَ «دِينَ» ..

قال المدرب : لا يصح التنّس إلا بهذا الشكل ، وأقول لك : لا يصح الدين إلا إذا التزم به كُلّياً . فإذا أردت السير في طريق الله فلا بد أن يكون شكلُك بالدين ، وحياتك بالدين؛ لتكون من أهل الدين الفائزين بالوصول إلى الله .

إذا دخل أحد بيتك يعلم من أول وهلة ومن أول نظرة : أنك رجل دين ، فعيش بالدين وللدين وعلى الدين .. إنَّ النَّاسَ الْيَوْمَ - إخواته - لا يلعبون التنّس ؛ بل يلعبون بالدين ، فامسِك على الدين ولا تلعب به ، فالدين ليس تهريجًا . إنه حقٌّ جَدُّ حقٍّ ، وما هو بالهزل .

إذا أردت أن تغيّي فلا تُغَيِّن باسم الدين .. إذا أردت أن تلعب فاللعب بعيدًا عن الدين ، ولا تُلبِس على النَّاسِ دينَهُمْ بهواك ، فتأخذُ من الدين ما يُعْجِبُك وتترك ما يخالفُ هواك .. إذا أردت أن تدخل في الدين وإذا

أردت أن تكون من أهله؛ فالشرط أن تتمسك بالكلّ .. فلا تتجاهل جانباً واحداً من جوانب الدين .

الرَّسُولُ ﷺ لما رجع من الطائف وجلس بمكة بدأ يعرض نفسه؛ أي يعرض الدين على القبائل ، فيقول لهم : «قولوا : لا إله إلا الله تُفْلِحُوا»^(١) ، كما كان يعرضه عليهم قبل الطائف ، ولكن العرض بعد الطائف كان عرضاً للحماية فكان ﷺ يقول : «هل من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني (أي يحميني) كي أبلغ رسالة ربِّي ؟ فإنْ قريشاً قد منعني أن أبلغ رسالة ربِّي ». نعم : كان يطلب الحماية من القبائل العربية ، فأتى بني عامر بنِ صعصاع ، فعرض عليهم نفسه ، فقام رجل منهم يقال له : بحيرة بن فراس فقال : والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب ، ثم قال له : أرأيت إن نحن بايعناك على أمرِك ، ثم أظهرك الله على من خالفك ، أيكون لنا الأمر من بعدي؟ .. يقصد : نحن معك ، ولكن عندما تموت سأكون أنا الرئيس المطاع ، فقال رسول الله ﷺ : «الأمر إلى الله يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» .. ومعنى هذا الكلام : أنك إذا أردت أن تدخل في الدين فلا تشرط على الملك .. أنت عبد .. فالرسول ﷺ يريد أن يعلمَه ويعلّمنا : أنك تباعني وتحمياني لتعبد ربَّك .. تباعني وتحمياني لأجل الجنة ، لا لشيءٍ من الدنيا .

بعض الشباب يلتزم حتى يعطيه الله المال وغيره .. لا .. قال الرَّسُولُ ﷺ : «إنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ يَضَعُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» .. لذلك تجد بعض الناس يعيشون

(١) أخرَحَهُ : أحمد (٤٩٣/٣) ، والحاكم (١٥/١) ، وابن حِبَّان (٦٥٦٢/١٤) ، وإسناده صحيح .

الدين بالغش ، يدخلون إلى الالتزام من أجل مصالح دنيوية . فإن كنت قد فعلت ؛ فصحيح نيتك ، يصحح الله لك عملك .

إِنَّ مَنْ عَادَتْنَا أَنْ نَذْهَبَ إِلَى الْمُسْتَشْفِيَاتِ فَنَأْخُذُ مَعَنَا عَسْلًا .. نِصْف

كيلو عسلاً ، وكتاب « حصن المسلم » ، والمصحف للمرضى - اللهم اشف مرضى المسلمين - ؛ فيكون الكتاب والسنّة والشفاء .. نعطي للمريض هذه الثلاث ، فنأتيه بعد أسبوعين فنجده قد التحرى ، فيقول : ها أنا ذا قد التحيت ، وكأنه يرضينا ، لا ، بل قل : التحيت من أجل الله ليشفيَنِي .. ادخل الدين من أجل الله .. ادخله وأنت قويٌّ معافٍ .. ادخله برضاك ، بدلاً من أن تدخله وأنت مبتلى مقهور .

الشاهد : أنَّ الرَّسُولَ ﷺ عَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى مَجْلِسٍ فِي السَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ ، فَدَخَلَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرَ فَقَالَ : مَنْ الْقَوْمُ؟ ، فَقَالُوا : شِيبَانُ بْنُ ثَلْبَةَ ، فَالْتَّفَتَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ لَهُ : بَأْبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، هُؤُلَاءِ فُرُّدٌ فِي قَوْمِهِمْ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : كَيْفَ الْمَنْعَةُ فِيهِمْ؟ ، قَالُوا : عَلَيْنَا الْجِدُّ وَالْجَهَدُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ جِدًّا - كَلَامُ جَمِيلٍ - ، فَقَالُوا لَهُ : إِلَام تَدْعُو يَا أَخَا قَرِيشٍ؟ ، قَالَ : أَدْعُو إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» ، فَقَالُوا : إِلَام تَدْعُو أَيْضًا يَا أَخَا قَرِيشٍ؟ ، قَالَ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتَلْمَ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] ، إِلَام تَدْعُو أَيْضًا ، قَالَ : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْمُعْدُلِ وَإِلَّا لِلْحَسَنِ﴾ [النحل: ٩٠] ، فَقَالُوا : دَعَوْتَ يَا أَخَا قَرِيشٍ وَاللَّهُ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، وَلَقَدْ أَفْلَكَ قَوْمٌ كَذَبُوكَ وَظَاهَرُوكَ عَلَيْكَ .

قال أحدهم : ولكن - ما زلت أقول : إنَّ آفةَ النَّاسِ كَلْمَةُ « لكن » - أنا أرى : إنَّ ترَكَنَا دِينَنَا وَاتَّبعَنَاكَ عَلَى دِينِكَ عَلَى مَجْلِسٍ وَاحِدٍ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا ،

أصول الوصول إلى الله تعالى

فإنه لَوْهَنْ في الرأي ، وسوء نظر في العاقبة .. إنما تكون الذلة مع العجلة ، وإن من ورائنا قوماً نَكْرَهُ أن نَعْقِدَ عليهم عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر فتنظر .. لا .. لا .. الدين ليس هكذا .. الدين ليس فيه أصلي أم لا؟ .. ولا أتحي أم لا؟ .. وليس فيه تنتقبين أم لا؟ .. الدين قرار على وفق ما يُريد المَوْلَى .

فقام رجلٌ منهم هو المُشَّنِّي بْنُ حارثة فقال : إنما نحن نزلنا بين سريان اليمامة والسماءة ، فقال رسول الله ﷺ : «فَمَا هَذَا السَّرَّيَانُ؟» ، فقال المُشَّنِّي : أنهارٌ كُسرَى ومياه العرب .. فأما ما كان من أنهار كُسرَى فذنب صاحبِه غير مغفور وعذرُه غير مقبول .. يعني : أننا لسنا نقدر على كسرى .. وأما ما كان من مياه العرب فذنبه مغفور وعذرُه مقبول ، وإنما نزلنا على عهد أحده علينا كسرى : ألا نُحْدِثَ حَدَثًا ولا نأوي مُحَدِّثًا ، إنَّ هَذَا الْأَمْرَ تَكْرُهُ الْمُلُوكُ .. ما هذا الدين الذي جئت به؟ .. وإنما نرى أن هذا الأمر تكرهه الملوك . فإن أحببت أن نؤويك ونصرك ممن يلي مياه العرب فعلنا ، أما من كسرى أو قيسر فلا ؛ فلسنا نتحمل الوقوف في وجه هؤلاء .. فقال رسول الله ﷺ : «مَا أَسَأْتُمُ الرَّدَ إِذْ أَفْصَحْتُمُ بِالصَّدْقِ ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصَرِفْ إِلَّا مَنْ أَحَاطَهُ مَنْ جَمِيعٌ جَوَابِهِ»^(١) .

يا لله! .. انظر ماذا قال نبينا محمد ﷺ .. فن الدعوة .. قال له : إنك رجل طيب .. أثني عليه .. فقال : «إذ أفصحتم بالصدق» .. هذه الكلمة لها أثر كبير جداً في الدعوة .

(١) أخرجه : ابن حِبَّان في «الثقة» (٨٨/١)، وأبو نعيم في «دلائل النبوة» (٩٨/١)، ٩٩، وانظر : «البداية والنهاية» (٣/١٤٤).

ولذلك حينما يأتيني أخ ويقول : أنا أوجّه أبي إلى عدم التفرج على التلّفاز؛ أقول له: لا .. ليس الأمر بهذه الصورة .. أنا أريده أن تدخل على أبيك وتقول له: ما شاء الله .. وتقبل يده وتقول له: نعم الأب أنت! ، فأنت من أفضلي الناس ، الحمد لله أن لي أباً مثلك ، لكن يا ليتك تبتعد عن التلّفاز .. فإنه لا يليق بأهل العلم والأدب والفضل الجلوس أمامه .. نعم .. امدحه بما فيه .. وهكذا يكون الدين ، وهكذا تكون الدعوة .. باللين والرحمة والأدب .. فافهم الدين . قل له: والله يا أبي لا أرى أحداً يحافظ على صلاة الفجر مثلك ، فجزاك الله خيراً .. أنت رجل طيب ، وأنا لم أر أحداً يكرم إخوانه مثلك .. أراك من أهل الحق ، فتعطي الأجير حقه ، فلا تظلم أحداً .

والله يا أبي أنا أحبك في الله ، لأنني طوال عمري ما سمعتكم تكذبون أو تشتّتون .. أخي في الله ، امدح أباك بما فيه تكسب قلبك ويحب الدين .. ادعه بأدب ، فإذا أغاظ معك القول فقال مثلاً: اخرج خارج البيت ، أو قال: أتمثّل علىي .. فقل له بأدب ورحمة كما قال الرسول ﷺ: «ما أسمتم الرد، إذ أفصحتم بالصدق .. ولكن هذا الدين لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه» .

إخواته ، إننا نصيّق بمن ندعوهم؛ لأننا لم نفهم الدين .. لأننا متضايقون ومهمومون ، أو قل: عاصون .. يأتيني أحدهم مهموماً مُخنوقاً .. ما لك؟! ، يقول: روحي تقاد أن تخرّج ، أقول له: هل تحتاج إلى مال؟ .. لا .. المال كثير ، هل زوجتك أغضبتك؟ .. لا ..

أصول الوصول إلى الله تعالى

يا ليت كل النساء مثل زوجتي ، أولادك؟ .. الحمد لله حالي حسنة ..
تحتاج إلى عمل؟! .. لا .. كل شيء على ما يرام .. إذا ما الأمر؟ ،
يقول : لا أعرف ، فأنا مخونق وممتعب .. أقول له : تعال ، افتح صدرك
لي وقل لي .

يقول : والله لا أعرف ، ولو كنت أعرف لقلت لك .. ليس هناك سبب
واضح للضيق الذي أنا فيه الآن .. وأحياناً يقول هذا الكلام أخ متزمن ..
لقد كان حالياً قبل أن التزم أحسن من هذا ، فكنت لا أعصي الله بهذه
الطريقة ، ماذ جرني بعد الالتزام؟!!

إخواته ، إليكم السر .. السر في الضيق والهم والغم هو المعصية
الكبيرة التي تعملها وتصر عليها فتسبب لك الوحشة .. يقول ابن القيم في
كتاب «الداء والدواء» : «إن المعصية توقع بين العبد وبين الله وحشة ،
فإن زادت استحكمت تلك الوحشة» اهـ .

إذا زادت المعصية زادت في المسافة بينه وبين أقرب الناس إليه .
فترى هذا الذي استحكمت عليه الوحشة إذا قال له أحد : ما لك؟ ،
يقول : لا أريد أحداً أن يقول لي : ما لك! ، وإذا سأله أصحابه ،
قال : قولوا لهم ليس موجوداً ، فإذا استحكمت الوحشة أكثر وقعت بينه
وبين نفسه .

يقول العلماء : وقد تقتل هذه الوحشة إن زادت .. نعم : قد يموت
بسببها .. فسر الوحشة معصية ، وأخطر المعاصي معصية السر ، لأن

تعصي ربك ولا يراك غيره ؛ لأنك ساعتها تحذر أن يراك الناس ولا تحذر أن يراك الله ، تخاف من الناس ولا تخاف من الله .

إذاً فقد يكون هناك جانب من الدين متهدم في حياتك هو هذا الجانب «المعصية في السر» .. والذي يسبب لك الوحشة .

وقد يكون هذا الجانب هو أنك هاجر للقرآن ؛ فلا تحفظ ولا تراجع ولا تتلو .. هاجر بالكلية .. وقراءة القرآن للتعبد سنة مستحبة ، ولكن هدمها هدم للدين .. وقد يكون الجانب المنهدم من دينك هو عدم صلاتك للرحم أو عدم برك بوالديك ، وقد تكون اللحية .

أرى بعض الملتزمين اليوم بدون لحية .. هل هي غير مهمة؟! .. اللحية فرض ؛ قال رسول الله ﷺ : «أعفوا اللحى»^(١) .. «أرخوا اللحى»^(٢) .. «وفروا اللحى»^(٣) .. بالأمر .. وإذا تعللت بالمشكلات ، فقد تخدعني ولكن أبدا لن تخدع الله .. لا .. اللحية فرض .

وقد يكون الجانب الذي هدمته من الدين : الصلاة .. في بعض الأحيان أكون ذاهبا إلى الدرس وتأخر في الطريق ، فأصلّي المغرب في أي مسجد ، فأجد الإمام ينثّرها في دقيقة .. و كنت أصلّي أنا وصاحب لي

(١) متفق عليه : البخاري ، ك : اللباس ، ب : إعفاء اللحى (٥٨٩٣) ، ومسلم ، ك : الطهارة ، ب : خصال الفطرة (٢٥٩) .

(٢) أخرجه : مسلم ، ك : الطهارة ، ب : خصال الفطرة (٢٦٠) .

(٣) أخرجه : البخاري ، ك : اللباس ، باب : تقليم الأطفال (٥٨٩٢) .

والإمام ، فقال الإمام : الله أكبر ، سمع الله لمن حمده ، السلام عليكم ورحمة الله .. هكذا .. كلام سريع متلاحم ، وبعد أن انتهيت لحقت به وأنا لا أتمالك نفسي فقلت له : هذه الصلاة لا أستطيع أن أمرها هكذا .. لا أستطيع أن يمر على مغرب بهذه الصورة .. إذا ساعيده .

وأنا لا أقول : إن صلاة الرجل باطلة ؛ ولكنني أنا لم أصل .. أنا أريد أن أتدوّق الصلاة .. أريد أن أتمتّع .. أريد أن أصلّي لأنشرب معاني الصلاة فتؤثّر في قلبي .. ليس بسرعة .

قد يكون المسجد الذي بجوار بيتك صلاتُه كصلاة هذا الرجل ، وأنت تصلي كل يوم بهذا الشكل ، وتقول : ماذا أصنع؟! ، أقول : يا أخي ، المساجد كثيرة - اللهم زِ بيتك في الأرض - ؛ فلا يخلو شارع من مسجد أو اثنين أو ثلاثة ، ستقول صلاتهم سريعةً أيضًا ، أقول : ابحث عن مسجدٍ قريبٍ يطمئن فيه قلبك للصلاة .. ابحث ولن تَعدم مسجدًا إمامه حريص على السنة .

لقد كان بجوارنا مسجد يقولون عنه : «المجري» .. فالمؤذن يؤذن ويظلّ واقفًا ثم يقيّم الصلاة ، والإمام خلفه واقف ، فتصلي وراءه وكأنك لم تصل .. إذا فكن حريصًا على صلاة تنفعك أمام الله .. صلاة تغذّي قلبك بالإيمان .. صلاة تُسدد جوعك الروحي .. فقد تكون الصلاة هي الجانب المنهدِم في حياتك الذي يسبّ لك الوحشة .

أخي في الله ، ابحث عن الجانب أو الجوانب التي هدمتها في دينك وسدها .. أقِمْ جوانب الدين ترُّل عنك الوحشة .. لا تُهمل جانباً واحداً من جوانب الدين .. فالدين كُلٌ .. قال - تعالى - ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ إِمَّا مَنُوا أَدْخَلُوا فِي الْسَّلَامَ كَافَةً وَلَا تَتَّبِعُوا حُطُومَاتِ الشَّيْطَنِ إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾٢٩﴿ فَإِنْ رَلَّتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَنَّكُمْ أَلْبَيْنَتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾٣٠﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِّنَ الْفَمَاءِ وَالْمَلِئَكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [البقرة: ٢٠٨-٢١٠].

فلا بد أن تأخذ الدين كُلَّه .. وإياك أن تتمسك بجزئية فيه وتترك الباقى .. فبالكُلِّ لا بالجزء بإذن الله تصِل .

* * *

الأصل الثالث والعشرون

أنجز كل يوم شيئاً جديداً

قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الإِيمَانَ لِيُخْلُقُ فِي جَوْفِ أَهْدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ التَّوْبَ ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(١) .. اللَّهُمَّ جَدِّدِ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِنَا .. كَيْفَ تَجَدِّدُ الإِيمَانَ فِي قَلْبِكَ؟ .. أَنْ تَعْمَلَ كُلَّ يَوْمٍ عَمَلاً جَدِيدًا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَصْلَ اعْتِقَادَنَا أَنَّ الإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، يَزِيدُ بِالطَّاعَاتِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعَاصِي .

بعض الناس بعد فترة من الالتزام يرقد ويقعده وينام .. يقف يتعطل .. يتدهور حاله فلا يكون لديه جديد .. إن ديننا - أيها الإخوة - أبداً لا تنتهي جدته فدوماً هناك جديد لم تعمله .

لقد كنت أتكلّم مرّة مع الإخوة عن الجديد في الالتزام فقلت : إن العلماء يقولون : إن الأكسجين المُخلّق حديثاً في المعمل أكثر اشتغالاً من الأكسجين الموجود في الجو .. فما السبب؟ ، قالوا : لأنّه جديد .. وكذلك الالتزام الجديد يكون فيه انطلاقه وحيوية وإيمانيات عالية ، ثم بعد ذلك يقدم ويضعف ويختفت .

ولذا يحتاج منك دوماً إلى تجديد .. بأن يكون كل يوم في حياتك

(١) أخرجه : الحاكم في «المستدرك» (٤/١)، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى - في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٨٥).

مُختلفاً عن سابقه ولا حقه .. فكل يوم له لون جديد في الطاعة .. فلا تمل ولا تفتت ، وتشعر دائمًا بالإيمان .

ولا تقل : إن الدين ستتهي أعماله .. لا .. فالأعمال في ديننا كثيرة ومتنوعة ، والطاعة ليس لها حدود .. فأنجز كل يوم شيئاً جديداً بشرط أن تقوم به على أحسن وجه .

ابدأ اليوم وقل : اليوم سأضيّط الخمس صلوات .. فلن أسمح لذهني بالشروع .. اليوم تحد .. سأتحدى اليوم شيطان الصلاة « خنذب » .. اليوم سأقرأ في الخمس صلوات سوراً جديدة لم أقرأها من قبل .. بعض الناس في كل صلواته لا يقرأ إلا بسورتين قصيرتين ويظل معهما شهوراً ، ولذلك يشُرُّد فلا يعيش الصلاة . لأنه يصلى (أوتوماتيك) صلاة مكررة .

يوم آخر ، تقول : أذكار الصلاة سأقولها اليوم بقلبي وبدموع عيني .. يوم آخر : سأتدبر اليوم صفحة جديدة من القرآن ، وسأظل أغرس معانيها في قلبي طوال اليوم .. وهكذا .. كل يوم شيء جديد .

سبحان الله العظيم .. حديث في « صحيح مسلم » أعرفه ، قوله تعالى وكأني أقرأ لأول مرة في حياتي .. قال رسول الله ﷺ : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فليصيبون الغنيمة ، إلا تعجلوا ثلثي أجراهم من الآخرة . ويبقى لهم الثالث . وإن لم يصيروا غنيمة تم لهم أجراهم »^(١) .

ومعنى ذلك : « أن الغزاة إذا سلموا أو غربوا يكون أجراهم أقل من

(١) أخرجه : مسلم ، ك : الإمارة ، ب : بيان قدر ثواب من غزا فعنهم ومن لم يغنم ، بরفم . ١٩٠٦

أَجْرٍ مِنْ لَمْ يَسْلِمْ، أَوْ سَلِمَ وَلَمْ يَعْنِمْ، وَأَنَّ الْغَنِيمَةَ هِيَ فِي مُقَابَلَةٍ جَزءٌ مِنْ أَجْرِ غُزْوِهِمْ، فَإِذَا حَصَلَتْ لَهُمْ فَقَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمُ الْمُتَرَتِّبُ عَلَى الْغُزوِ، وَتَكُونُ هَذِهِ الْغَنِيمَةُ مِنْ جَمْلَةِ الْأَجْرِ»^(١).

إِذَا فَهَنَاكَ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ أَنْتَ سَمِعْتَهَا وَتَعْرَفْهَا؛ وَلَكِنْ عِنْدَ التَّدْبِيرِ وَالْوَقْوَفِ عِنْدَهَا تَشْعُرُ بِأَنَّهَا جَدِيدَةٌ عَلَيْكَ؛ فَيَزِيدُ بِهَا إِيمَانُكَ.. إِذَا فِي الْجَدِيدِ يَزِدَادُ الْإِيمَانِ.

وَكَذَلِكَ هُنَاكَ آيَاتٌ مِنَ الْقُرْآنِ تَقْرُؤُهَا فَتَقُولُ: سَبَحَانَ اللَّهِ، هَذِهِ الْآيَةُ جَدِيدَةٌ عَلَيَّ؛ لَمْ أَسْمَعْهَا مِنْ قَبْلٍ؛ مَعَ أَنَّكَ تَقْرُؤُهَا لِلَّيْلَ نَهَارًا، وَلَكِنْ لَأَنَّكَ بَدَأْتَ تَتَدَبَّرُ وَتَفْتَحُ قَلْبَكَ وَتَقْفُ مَعَ الْآيَاتِ؛ فَيُرِزِّقُكَ اللَّهُ الْمَعْانِي الْجَدِيدَةَ.

آيَةٌ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].. آيَةٌ جَمِيلَةٌ وَجَدِيدَةٌ، وَتَرْدَادُهَا وَتَكْرَارُهَا وَتَفَهُّمُهَا يَزِيدُ الْإِيمَانَ وَيُقْوِيهِ.. آيَةٌ - وَاللَّهُ - تُرِيَحُ الْقَلْبَ، وَتُخَفِّفُ الْمَشَاكِلَ، وَتُزَهِّدُ فِي الدُّنْيَا، وَتَحْثُثُ عَلَى السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ.

نعم: نَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَثِيرًا، وَمَعَ ذَلِكَ نَجُدُ جَدِيدًا كُلَّمَا قَرَأْنَا.. وَمَعْانِي الْقُرْآنِ لَا تَنْتَهِي؛ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَتٍ رَبِّ لِفَدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ، مَدَادًا﴾ [الْكَهْفَ: ١٠٩].. فَاقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ آيَةً بِنَفْسِهَا فِي أَوْقَاتٍ مُخْتَلِفةٍ وَأَحْوَالٍ مُتَغَيِّرةٍ سَتَخْرُجُ كُلَّمَا قَرَأْتَ بِجَدِيدٍ.. إِذَا فَالْجَدِيدُ كَثِيرٌ.. وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَعْزَمَ وَتَجِدَ.

إِخْوَتَاهُ، وَحِينَما تُنْجِزُونَ جَدِيدًا وَتُتَمَّمُونَهُ عَلَى وَجْهِهِ الْأَكْمَل؛ سَتَعْلَمُونَ

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٣/٧٨).

أنكم كنتم قبل تلعبون ، حين تذوقون نعيم الطاعة وطعم الإيمان ولذة الإيمان .. **قال الشاعر :**

وكنت أظُنْ أَنْ قَدْ تَنَاهَى بَيِّ الْهَوَى وبَلَغَ بَيِّ غَايَةً لَيْسَ لَيِّ بَعْدَهَا مَذْهَبٌ
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَعَانِيْتُ حُسْنَهَا عَلِمْتُ أَنَّيْ كَنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ أَعْبُ
فِإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلَّ كَمَا يَنْبَغِي ، وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاقْرَأْهُ كَمَا يَنْبَغِي ،
وَإِذَا تَصَدَّقْتَ فَتَصَدَّقْ كَمَا يَنْبَغِي .. وَإِذَا قَمْتَ اللَّيلَ أَوْ ذَكْرَتَ أَوْ حَجَجْتَ
أَوْ اعْتَمَرْتَ أَوْ طُفْتَ أَوْ سَجَدْتَ فَبِحَقِّ .. أَنْجِزْ الْجَدِيدَ فِي الْيَوْمِ الْجَدِيدِ
عَلَى الْوِجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي ؛ لِتَذْوَقَ حَلاوةَ الإِيمَانَ .

يقول ابن القيم : «سعادة المعطي أعظم من سعادة الآخذ» .. نعم :
الطاعة بحق لها سعادة وحلوة ومتعة ولذة .. وهذا هو الدين .. اللهم
ارزقنا الالتزام بالدين يا رب .

أخي في الله ، اقرأ اليوم باباً جديداً في التوحيد ، واقرأ غداً في سيرة النبي ﷺ ، وبعد غد اقرأ في تفسير آية لم تقرأها من قبل .. وهكذا ..
أنجز كل يوم جديدا .. جديداً في العلم .. أو جديداً في العبادة .. أو
جديداً في الدعوة إلى الله .

جَدِيدٌ إِيمَانَكَ يَوْمِيًّا حَتَّى لا تَفْتَرَ أَوْ تَمَلَّ فِي طَرِيقِ السَّيِّرِ إِلَى اللَّهِ ..
فَالْتَّجَدِيدُ يَدْفَعُ الْمَلَلَ ، وَيَقُوِّي السَّيِّرَ وَيَحْثُّ عَلَيْهِ .. فَجَدِيدٌ إِيمَانَكَ وَسَلِ اللَّهِ
ذَلِك ؛ تَصْلُ بِإِذْنِ اللَّهِ .. اللَّهُمَّ جَدِيدُ الإِيمَانَ فِي قَلْوَبِنَا يَا رَبٌ^(١) .

* * *

(١) لنا محاضرة بعنوان «جدّد إيمانك» استمع إليها تُفْدَ بِإِذْنِ اللَّهِ .

الأصل الرابع والعشرون

كُفَّ عنِ الشَّكُوْى وابدأ العلاج

كثيرٌ من الناس ليالٍ نهار ليس لَهُمْ هُمْ إِلَّا الشَّكُوْى .. التبرُّج كثيُرٌ! .. والفتُنُ! .. و .. يقول إسماعيل الهرمي: «الزهد في الدنيا نفُضُّ اليدين عن الدنيا ضبطاً أو طلبًا، وإسكاتُ اللسان عنها مدحًا أو ذمًا، والسلامة منها طلبًا أو ترکًا»^(١).

الشاهدُ الذي نَسْتَخْرِجُهُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُهِمِّ : أنَّ الذي يحبُّ الدنيا يتكلُّم عنها كثيُرًا ولو بالذم .. كذلك يُعَدُّ الرجل مفتونًا بالنساء إذا أكثَرَ من ذِكْرِهِنَّ ولو بالذم ، والذي يتكلُّم عن المال كثيُرًا ولو بالذم فهو أيضًا مفتون .. ومن هنا فالذي يشتكي كثيُرًا فمفتون ؛ قال الملك العليم - سبحانه - في آية من الآيات الفاضحة : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُوْلُ أَثْدَنَ لِي وَلَا نَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبه: ٤٩].

تجدُّ أحدهم يقول : لا أُريدُ أن أذهب إلى الدرس الفلاني لأنَّ هناك نساء وأنا ضعيف!! .. يا مفتون .. تقول له : اخطب الجماعة فيقول لك : أخاف من الرياء! .. مفتون .. عجبًا لك! ، طوال الوقت تتكلم وتقول : حلال وحرام ، ونصبَّت نفسكَ شيخًا ، لماذا عند تَحْمُلِ المَسْؤُلية تخافُ من الرياء؟!! .. اللَّهُمَّ ثبِّتنا على الإيمانِ وارزقْنا الإخلاص .

(١) طريق الهجرتين (١٦).

الإمام مالك كان إذا أعطى موعظة بكى وقال : « يحسبون أن عيني تُقر بـكلامي ، كيف وأنا أعلم أن الله سائل عنـه يوم القيمة ماذا أردت به » .. وعلى الرَّغم من هذا الكلام ؛ إلا أنه لم يتوقف عن الوعظ ، ولم يقل مثـلـما يقول شبابـ اليوم : أخاف على نفسـي من الـريـاء ..

إخوتي في الله ، هل تظنـونـ أني أـفـرحـ حـينـماـ أـقـولـ درـسـاـ أوـ أـخـطبـ جـمـعـةـ؟! .. هل يوم الـقيـمةـ ستـكـونـونـ جـالـسـينـ أمـامـيـ بـهـذـهـ الصـورـةـ؟! .. لاـ وـالـلـهـ.. إنـ رـبـيـ سـيـسـائـلـنـيـ : تـحـرـكـتـ مـنـ هـنـاـ إـلـىـ مـصـرـ الـجـدـيـدةـ لـتـعـظـ؟ـ لـمـاـذـاـ؟ـ ، لـأـجـلـ النـاسـ أـمـ لـأـجـلـيـ؟ـ ، فـمـاـذـاـ أـقـولـ لـهـ؟! .. اللـهـمـ اـرـزـقـنـاـ الإـلـاـصـ وـاجـعـلـنـاـ مـنـ أـهـلـهـ.

كُفَّ عن الشَّكُوكِيْ وَابدأ العلاج .. تـجـدـ بـعـضـ النـاسـ يـشـكـوـ منـ الـوـسـوـسـةـ وـلـيـسـ بـهـ شـيءـ ، وـلـكـنـهـ يـظـلـ يـقـولـ : الـوـسـوـسـةـ .. الـوـسـوـسـةـ .. حـتـىـ يـوـسـوـسـ فـعـلـاـ .. بـسـبـبـ كـثـرـةـ شـكـواـهـ .. يـظـلـ يـشـكـوـ : النـسـاءـ .. النـسـاءـ ، فـيـقـعـ فـيـ الفتـنـةـ ، وـلـوـ كـفـَّـ عنـ الشـكـوـكـيـ وـبـدـأـ فيـ العـلاـجـ ؛ـ لـكـفـاهـ اللـهــ هـذـهـ الفتـنـةـ .

إـنـ مـصـيـةـ كـثـيرـ مـنـ الإـخـوـةـ أـنـهـمـ مـشـغـلـوـنـ بـالـزـوـاجـ ..ـ فـتـرـىـ الـوـاحـدـ مـنـهـمـ يـمـشـيـ فـيـ الشـارـعـ فـيـ نـفـسـهـ :ـ أـتـزـوـجـ هـذـهـ؟ ..ـ لـاـ ،ـ بـلـ هـذـهـ ..ـ لـاـ لـاـ بـلـ مـيـثـلـ هـذـهـ ..ـ إـذـاـ أـرـدـتـ الـراـحـةـ فـارـفـعـ هـذـاـ المـوـضـوـعـ عـنـ تـفـكـيرـكـ ،ـ وـعـيـشـ حـيـاتـكـ الإـيمـانـيـةـ كـمـاـ يـنـبـغـيـ ،ـ وـوـقـتـ أـنـ تـقـرـرـ الزـوـاجـ تـزـوـجـ فـيـ نـفـسـ اللـهـحـظـةـ ..ـ أـمـاـ أـنـ تـعـيـشـ هـكـذـاـ ،ـ مـشـتـتـ الـفـكـرـ ،ـ تـشـتـكـيـ دـوـمـاـ مـنـ هـذـهـ القـضـيـةـ ؛ـ فـلـنـ تـنـجـوـ مـنـ الفتـنـ أـبـداـ ..ـ فـأـرـحـ دـمـاغـكـ الـآنـ عـنـ هـمـ الزـوـاجـ طـالـمـاـ أـنـ ظـرـوـفـكـ الإـيمـانـيـةـ وـالـحـيـاتـيـةـ لـاـ تـسـمـحـ ..ـ هـذـاـ هـوـ الـحـلـ لـلـفتـنـةـ :ـ عـدـمـ الشـكـوـكـيـ وـعـدـمـ الـهـمـ ،ـ وـعـدـمـ الضـيـقـ وـالـمـرـضـ بـسـبـبـهـاـ .

أصول الوصول إلى الله تعالى

بعض الناس يقول : المال .. مالنا وللما ، المال دنيا ، فكلامه المتكرر هذا عن المال دليل على أنه مفتون بالمال وبالدنيا . وفرق بين من يشكو ليعان وبين من يشكو ليتهرب .

سيدنا موسى - عليه وعليه نبيّنا الصلاة والسلام - لما قال له ربُّه :

﴿أَذْهَبْ إِلَيَ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازوات: ١٧] ؛ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي فَنَّمْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [٣٣] ﴿وَأَخِي هَرُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِ رِدَاءً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: ٣٤-٣٣] .. اشتكتي ؛ ولكن طلب العون فأعين .. أعاذه الله ووهب أخي هارون النبوة .. وهذه من البركات .. أن يُرزق أحد النبوة .. قال موسى : يا رب ، وأخي ؛ فقال - سبحانه - : وأخوك .

ولذا أريد منك حينما يرزقك الله الالتزام .. أريدك أن تقول :

يا رب ، وأخي .. يا رب ، وأبي .. يا رب ، وأمي .. يا رب ، وأختي .. يا رب ، وجاري .. ادع الله أن يهديهُم وانشغل بإصلاحهم بدلاً من أن تظل تسُكُوهم وتشتكي منهم فتُنكِّرُهُم ويُكَرِّهُوك .. ادع الله لهم وكف عن الشكوى ؛ ليُنْجِيَهم كما نجاك .

الرسُّول ﷺ لما قيل له : نَطِقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبُين؟ ؛ قال : «لعلَ الله يُخْرِجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يُوَحِّدُ الله»^(١) .. خرج وتعَب واستفرغ وسعه ..

(١) متفق عليه : البخاري (٣٢٣١) ، ك : بده الخلق ، ب : إذا قال أحدكم «آمين» والملائكة في السماء فوافقت إدحاماً الأخرى غُفر له ما تقدّم من ذنبه ، ومسلم : (١٧٩٥) ك : الجهاد والسير ، ب : ما لقي النبي ﷺ من أدى المشركين والمنافقين .

فليس همّنا أن يحرق الله الكفار ، وإنما همّنا أن يهديهم ، فما بالك بأهلك الذين تشکوهم .. اللهم اهد المسلمين وغير المسلمين يا رب .

أيها الإخوة ، كفوا عن الشكوى وابدوا العلاج .. كفاكم شكاوى .. أنا لا أستطيع القيام للفجر ، ولا أقدر على الدعوة ، ولا أقدر على كذا ، ولا أستطيع كذا .. طالما تشتكي فلن تقوم ولن تقدر ولن تستطيع .

الرسول ﷺ لما جاءه الرجل الموسوس وقال له : إن أحذنا ليجد في نفسه ما يتعاظم أن يتكلّم به ؛ قال : «الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة . إذا وجد أحد منكم ذلك فليقل : آمنت بالله ورسوله ، ولسيتعذ بالله ثلثاً ولنيتة»^(١) ، «ولنيتة» : أي لا يفكر فيها مرة ثانية .

«الحمد لله الذي ردَّ كيده إلى الوسوسة» .. أي إن الشيطان حينما ييأس ، ويُخيب في إغواء الرجل ؛ لا يجد شيئاً يكيد به سوء هذه الوسوسة .. فهي سلاحه الضعيف ؛ ولذا قال النبي ﷺ : «الحمد لله» . وقد قال ﷺ أيضاً في قطع الوساوس : «اتفل عن يسارك ثلثاً ، وقل : اللهم ربِّي لا شريك له»^(٢) .

اتفل على الشيطان ، فهذا احتقار له وازدراء وإهانة ؛ حتى لا يأتيك مرة ثانية .. ولا تعياً به .. وإنما انشغل بالله وحده فقلن : الله ربِّي لا شريك له .. ثم انته عن ذلك ؛ أي : لا تتكلّم ولا تسأل أحداً ولا تقرأ عن هذه المسألة ولا تبحث عنها ؛ وإنما انته ؛ لتنقطع الوساوس .

(١) أخرجه : أحمد (٢٣٥/١) ، وأبو داود ، ك : الأدب ، ب : في رد الوسوسه (٥١١٢) ، وصححة الألباني - رحمه الله تعالى - في «صحيح السنن» .

(٢) أخرجه : أحمد (١٨٣/١) ، وابن حبان في «صحيحة» (٢٠٦/١٠) .

إذا فالعلاج في أربعة أمور :

١- قل : آمنت بالله ورسوله .

٢- استعد بالله من الشيطان الرجيم .

٣- اتفل عن شمائلك ثلاثة .

٤- اسكت .. التزم الصمت .. لا تشتكي .. انته .. أغلق هذا الباب تماماً .

كثير من الشباب يقول : أبي يعمل كذا وكذا ، وأمي تقوم بكندا وكذا .. وأختي .. وأخي .. والمسجد فيه كذا ، والإمام يفعل كذا .. والشيخ قال كذا .. ويظل يشتكي .. ارحم نفسك ، ولا تُكثِّر الشكوى .. لا تكثر الشكوى ، وإنما اسكت .. اصمت لتسريح وتُريح الناس من همك ومشاكلك ، فالناس بهم ما يكفيهم ، وإنما الرأسي منهم من أرضاء الله ؛ فارض بالله واسْك همومك إليه وحله يكفك ما أهمك ؛ فهو - سبحانه - يعلم حالك .

إخواته ، إن الذين يشكرون الواقع لن يغيروه مطلقاً ؛ بل ولن يتغيروا هم أيضاً ، سيظلون هكذا في وحل الفتنة يُقاومون المراة والكرب طالما أنهم لم يبدعوا العلاج من عند أنفسهم .

إن الوصول إلى الله - أحبتني في الله - يحتاج مثناً ألا نقف أمام المشاكل والهموم مكتوفي الأيدي ، واضعين أيدينا على خودينا نشتكي إلى كل رائح وغاد؛ بل لا بد من التحرك والعلاج .. فعاهد نفسك - أخي في الله - من الآن ألا تشتكي مطلقاً .. كف عن الشكوى وابدا العلاج ؛ ليعينك الله على الوصول إليه .

* * *

الأصل الخامس والعشرون

لَيْسَ الشَّائُنَ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّائُنَ أَنْ يُحِبَّكَ

فهل يُحِبُّكَ اللَّهُ؟

إخوتي في الله ، والذى فلقَ الحبة وبرأَ السُّمَّة إِنِّي أُحِبُّكُمْ في الله ، وأسائلُ الله ﷺ أن يجمعنا بهذا الحب في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .. أحبتي في الله ، الحب .. الحب حب الله .. اللهم ارزقنا حبك وحب كل عبد صالح يحبك ، وحب كل عمل صالح يقربنا إلى حبك ، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من أهلينا وأنفسنا ومن الماء البارد على الظماء .

أحبتي في الله ، يذكر ابن القيم أن الدنيا لا تقوم إلا على الحب؛ فكل حركة وسكنة في الحياة إنما الدافع عليها الحب ، وأصل الحب حب الله .. وليس القضية أن تعزِّم وتظلَّ الليل والنهر تقول : أحبك ؛ وإنما الشائُنَ أَنْ يُحِبَّكَ هو ؛ ولذلك اختار الله قوما ، قدم حبه على حبهم ؛ قال ﷺ : ﴿يَتَآهُوا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] ، فقدم حبه لهم على حبهم له ، فهو - سبحانه - أحبهم وبحبه لهم أحبُّوه؛ ولذلك فإنَّ الأصل في هذه القضية - أيها الأخ الكريم - : هل يُحِبُّكَ اللَّهُ؟!

هذا هو السؤال .. الله يحبك أم لا؟ .. سؤال يحتاج منك فعلًا إلى إجابة .. هل تصلح؟ .. هل تستحق؟ !

أصول الوصول إلى الله تعالى

مثال : لو قالوا : إنَّ الممثلة الفلانية تحبُك ، فراك تقول لأحد الناس : فلانة تحبني ، فينظر إليك متعجبًا ويقول لك : تحبك أنت !؟ بماذا ؟ ، وعلى أي شيء تحبك !؟ ، ومن أنت !؟ .. ﴿وَلَهُ الْمُثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ أَعْزَى الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧] .. فلو كنت جالساً مع الناس وقلت : إن الله يحبني ؛ سنقول لك أيضًا : وعلى أي شيء يحبك ، ولم يحبك ؟ ، وبماذا يحبك ؟ ، ومن أنت حتى يحبك ؟ ! .. الله الكبير .. الله العظيم .. الله الجليل .. الله الملك المتعال يحبك أنت ؟ !؟ .. ماذا فيك يحب ل أجل أن يحبك الله ؟ !؟

سَهْلٌ جَدًّا أَنْ تَقُولَ : أُحِبُّهُ ؛ وَلَكِنْ مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تَقُولَ : يُحِبُّنِي .

وإذا قلت : نعم يحبني ، فما طلبت منه شيئاً إلا وأعطيته ؛ أقول لك : ليس شرطاً .. فقد أعطى الكفار ما يريدون ؛ فهل معنى ذلك أنه يحبهم ؟! القضية إذا خطيرة ، والكلام فيها وعنها أيضًا خطير .

ويستدلُ ابنُ القَيْم - رحمةُ الله - لذلِكَ فيقول : كيف وقد أعطي أبغض خلقه عينه .. يعني : أن إبليس سأله الإنتظار أعطاه له .. ﴿قَالَ أَنْظُرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبَعَّثُونَ ﴾ قال إناك من المنظرين ﴿الأعراف: ١٤-١٥﴾ .. إبليس طلب فأعطيه الله فهل يحبه ؟! .. لا .. فليس شرطاً في الإعطاء أن يحبك .. قد يعطيك لأنه يكرهك .. لا يريدك .. خذ ولا أريد أن أسمع صوتك .. ولذلك فإنَّ مِنَ الأصول المهمة : تمامُ الخدلان اشغالُ العبد بالنعمَة عن المُنْعِمِ .

هل يحبك الله ، وهل تحب الله ؟ .. نعم : أحبه ؛ إذاً فما الدليل ؟ .. إنَّ أَيَّ ولِدٍ مِنْ يجلسون على النواصي فيواعدُ البنت الفلانية ، تجدهُ وهو

ذاهبٌ لمقابلتها في أحسنِ شكلٍ ، وقلبهُ يرفرفُ ، ويقادُ يطيرُ فرحاً ..
فهل وأنت قادمٌ إلى الصلاة يرفرف قلبك فرحاً لمقابلة ربك؟!! .. إنْ
لم يكن فاعلماً أنك لا تحبه.. هذا كلام منطقٌ .. إذا لم تكن سعيداً
بلقاء الله ، وأنت في بيت الله ، ومع الله ، فأنت لا تحبه..

ولذلك فإنَّ من ادعى محبة الله ثم مال بقلبه إلى الدنيا فهو كذاب ..
نعم : إذا لم يرفرف قلبك بحبه فأنت كذاب .. ، المشكلة ليست في أنْ
تحبه ، المشكلة في أنْ يحبك - اللهم أحبابنا يا رب - ، فإذا أحبك نلت
السعادة والوصول .

**يقول ابن القيم : « فهي محبة تقطع الوساوس ، وتلذذ الخدمة ،
وتسلي عن المصائب » .. فإذا أحببك انقطعت عنك الوساوس .. كثيرٌ من
الشباب الملتهماليوم مبتلى بالوسوسة .. نعم : لأنَّه لا يحب الله ، ولو
أحبَّه لانقطعت عنه الوساوس .. وسبب آخر هو : أنَّ المؤسوس دائمًا
يسأل عن الوساوس ويشتكي منها - كما قلنا في الأصل السابق .. اللهم
إنا نسألك أن تعافي كل مبتلى مسلم .**

**أخي في الله ، لا يوسموس إلا فارع ، أما الذي قلبه ملآنٌ ودماغه
مشغولٌ ففيه يوسموس؟!؛ فهو منشغلاً بعيداً عن هذه الوساوس .. إنَّه
مشغولٌ بالله وبحب الله .**

وحين يحبك الله يملأ قلبك بحبه فلا تشغله غيره - اللهم أحبابنا
يا رب - ، فتجد نفسك مشغولاً ليلاً ونهاراً به - سبحانه وتعالى .. ليس
لَكَ هُمْ إِلَّا اللَّهُ يَعْلَمُ والوصول إليه ، ونيل رضاه ، فتعمل لخدمته ، فتظل
مشغولاً به - سبحانه - وحده طيلة الوقت وطيلة العمر .

نعم : إذا أَحَبَّكَ شَغَلَ قَلْبَكَ بِحُبِّهِ ، وَجَوَارِحَكَ بِخَدْمَتِهِ ، وَعَقْلَكَ بِالْفَكْرِ فِيهِ ؛ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ بَقِيَةً لِغَيْرِهِ .. أَوْلُ شَيْءٍ فِي الْحُبِّ أَنَّ الْمُحَبَّةَ تَقْطَعُ الْوَسَاوِسَ .. فَاللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّكَ يَا رَبَّ .

ثُمَّ إِنَّ الْحُبَّ يُلَدُّ الْخِدْمَةَ .. أَحَدُ إِخْرَانِا ذَهَبَ لِيَعْتَمِرَ فَكَانَ يَقُومُ بِخَدْمَةِ الْمُعْتَمِرِينَ .. أَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَقْبَلَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَمِنْهُ .. اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ .. قَلْتُ لَهُ : اجْعَلْ قَلْبَكَ - وَأَنْتَ تَخْدُمُ إِخْرَانِا - مَشْغُولًا بِاللَّهِ .. وَاسْتَشْعِرْ نَظَرَهُ إِلَيْكَ ؛ لِتَزَدَادَ تَلَدُّذًا وَحُبًّا فِي الْخِدْمَةِ .

أَخِي فِي اللَّهِ ، لو أَنَّكَ أَتَيْتَ بِرَجُلٍ يَشْتَغِلُ عَنْكَ لِيَدْهِنَ لَكَ هَذَا الْمَكْتَبَةَ مَثَلًا وَأَنْتَ وَاقِفٌ خَلْفَهُ ؛ فَسَيَظْلَمُ يَعْمَلُ بِحَدَّرٍ وَجِدًّا .. فَاجْعَلْ هَذَا إِحْسَاسَكَ .. الْمَرَاقِبَةَ .. وَاقِفٌ أَنْتَ أَمَامَ حَبِيبِكَ فَهُوَ نَاظِرُكَ .. حَبِيبِكَ الَّذِي تَشْتَغِلُ لَهُ وَتَعْمَلُ لَهُ ، اسْتَشْعِرْ مُرَاقبَتَهُ لَكَ دَائِمًا ؛ سَاعِتَهَا سَتَعْمَلُ بِحُبٍّ وَتَلَدُّذٍ ، لَيْسَ عَلَى خَوْفٍ وَفَقْطَ ، بَلْ بِحُبٍّ ؛ لَأَنَّ حَبِيبَكَ يَرَاكَ ، وَالْمَحْبُّ يُحِبُّ أَنْ يَرَاكَ حَبِيبُهُ دَوْمًا وَهُوَ يَعْمَلُ لَهُ .

صَلَيْتُ مَرَّةً بِالنَّاسِ فَأَطَلَّتُ الصَّلَاةَ وَقَلَّتُ لَهُمْ : إِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ (أَعْنِي : أَنَّ اللَّهَ نَاظِرُنَا) .. وَمَرَرْنَا مَرَّةً عَلَى « اسْتُرْجِي » وَقُدَّامَهُ الطَّقْمُ « أَنْتَرِيَهُ » وَهُوَ جَالِسٌ يَدْهِنُهُ .. يُمْسِكُ بِالْقُطْنَةِ وَالرِّيشَةِ .. قَلْنَا : مَا لَكَ لَا تَنْتَهِي ؟ ! ؟
قال : إِنَّ صَاحِبَ الطَّقْمِ يُدْقِقُ جِدًّا فِي كُلِّ شَيْءٍ .. أَفَهِمْتَ ؟ !

وَلَذِكَ فَإِذَا صَلَيْتَ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ إِلَيْكَ وَجَهِكَ فِي صَلَاتِكَ مَا لَمْ تَلَتَفِتْ .. إِذَا قَمْتَ لِلصَّلَاةِ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَنْظُرُ إِلَيْكَ وَيَطَالِعُكَ .. وَلَذِكَ كَانَ الْوَاحِدُ مِنَ السَّلَفِ إِذَا تَوَضَّأَ اصْفَرَ لَوْنَهُ ، وَارْتَعَشَ

جلده ، يقولون له : مالك؟!؛ يقول : أتدرونَ بين يَدِي مَنْ سَاقْفُ؟!! ولذلك فإنَّ مِنَ الأصولِ المهمة أَيْضًا : الاستحضارُ الذهنيُّ للعباداتِ قبل الدخولِ فيها ، سُبْلُ الْإِلْخَاصِ فِيهَا .

أَيْهَا الْأَخُ الْكَرِيمُ ، الْحُبُّ تَلَذُّذُ الْخَدْمَةِ .. نَعَمْ : يُلَذِّذُ الْحُبُّ الْخَدْمَةِ .. تَكُونُ الْخَدْمَةُ لِذِيْدَةً جَدًّا .. قال أمير الشعراء عن قيامِ رسولِ الله ﷺ مُتَلَذِّذًا له :

رَاضِيَّةً نَفْسُهُ لَا تَشْتَكِي سَأَمًا
وَمَا مَعَ الْحُبُّ إِنْ أَخْلَصْتَ مِنْ سَأَمٍ
بَكَى أَحَدُ السَّلَفِ عِنْدَ مَوْتِهِ ، قيل : ما يُبَكِّيكَ؟ ، قال : «أَبْكَيِ لِأَنِّي
أَمُوتُ وَلَمْ أَشْتَفِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ» .. أَبْكَيِ لِأَنِّي أَمُوتُ وَلَمْ أَشْبُعْ مِنْ قِيَامِ
اللَّيْلِ .

وَكَانَ بَعْضُ السَّلَفِ يَقُولُ عِنْدَ مَوْتِهِ : «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ كَتَبْتَ لِأَحَدٍ أَنْ
يُصْلِيَ فِي قَبْرِهِ فَاجْعَلْنِي مِمْنُ يُصْلَى فِي قَبْرِهِ» .. لَمْ يَشْبُعْ مِنَ الصَّلَاةِ
وَيُرِيدُ أَنْ يُصْلِيَ أَكْثَرَ .. قَالُوا هَذَا؛ لِأَنَّهُمْ أَحَبُّوا اللَّهَ ، فَاسْتَحْضَرُوا
الْعَبَادَاتِ ذِهْنِيًّا .. اشْتَغَلُوا فِي الْعَبَادَاتِ بِمَحْبَبِهِ؛ فَانْقَطَعَتْ عَنْهُمُ الْوَسَاوسُ
وَتَلَذَّذُوا بِالْخَدْمَةِ ، وَتَسْلُوا بِتَلَكَ الْمَحْبَبِهِ عَنْ كُلِّ الْمَصَابِ وَالْمَتَاعِبِ .

قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «وَجَعَلْتُ قُرْآنَ عِينِي فِي الصَّلَاةِ»^(١) .. هَذِهِ هِيَ
اللَّذَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، وَهَذَا هُوَ التَّلَذُّذُ فِي الْخَدْمَةِ بِحَقِّهِ .. فَهَلْ أَحِبَّتَ رَبَّكَ

(١) أَخْرَجَهُ : أَحْمَد (١٢٨/٣) ، (١٩٩) ، وَالنَّسَائِيُّ (٣٩٤٩) ، (٣٩٥٠) ، لَكَ : عَشْرَةُ النِّسَاءِ ، بِهِ : حُبُّ النِّسَاءِ ، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : حَسْنٌ صَحِيفٌ .

فِعِشْتَ هَذَا النَّعِيمُ؟ .. هَل أَحْسَنْتَ بِحلاوةِ الْحُبِّ وَمَتْعَتِهِ وَلَذَّتِهِ وَجَمَالِهِ
بَعْدَ أَنْ كُنْتَ فِي جَاهْلِيَّةِ؟ ..

كُنْتَ تَأْكُلُ وَتَشْرُبُ وَتَهْرُجُ وَتَمْشِي مَعَ الْبَنَاتِ وَتَسْمَعُ الْمُوسِيقِيَّ
وَتَدْخُلُ السَّينِمَا وَتَدْهُبُ إِلَى الْمَسْرَحِ وَتَدْخُلُ الْمَلَاهِيِّ وَتُسَافِرُ تَصْيِيفُ عَلَى
الْبَحْرِ .. كُنْتَ فِي جَهْلٍ .. فِي ضَلَالٍ .. فِي جَاهْلِيَّةِ عَمْيَاءِ، وَتَابَ اللَّهُ
عَلَيْكَ وَدَخَلْتَ بَابَ الْمَسْجِدِ وَبَدَأْتَ تُحِبُّ اللَّهَ .. بَدَأْتَ تُحِبُّهُ بَعْدَ حُبِّ
الْبَنَاتِ .. تُحِبُّ الْمَصْحَفَ بَعْدَ الْمُوسِيقِيَّ وَالْأَغْانِيِّ .. بَدَأْتَ تُصْلِي بَعْدَ
الْجَلْوَسِ عَلَى الْمَقَاهِي وَ«الشَّيْشَةَ» .. بَدَأْتَ تَمْشِي فِي طَرِيقِ الْخَيْرِ بَعْدَ
أَنْ كُنْتَ تَمْشِي تَعَاكُسُ الْفَتَيَاتِ .. فَأَحْسَنْتَ بِالْفَرَقِ .. وَعَرَفْتَ النَّظَافَةَ
وَفَهِمْتَ الطَّهَارَةَ .. فِعِشْتَ الْفَرَقَ .. إِنَّمَا أَحْسَنْتَ بِذَلِكَ وَعَشْتَهُ فَلَا
تَسْتَطِيُّ أَنْ تَسْكُتَ .. لَا بُدَّ أَنْ تَنْقِلَ أَحْاسِيْسَكَ هَذِهِ لِغَيْرِكَ .. لَا بُدَّ.

وَلَكِنْ لِلأسَفِ الشَّدِيدِ كَثِيرٌ مِّنَ حِينَمَا يَلْتَزِمُ وَيَرِيدُ أَنْ يَنْقِلَ أَحْاسِيْسَهُ
يَنْقِلُهَا بِصُورَةٍ غَيْرِ لائِقَةٍ فَيُنَفِّرُ النَّاسَ، وَيُنَكِّرُهُمْ فِي الدِّينِ .. حَرَامٌ هَذَا ..
حَرَامٌ .. غَلَطٌ .. غَلَطٌ شَدِيدٌ .. تَجِدُهُ يَقُولُ لِلنَّاسِ : الشَّيْخُ الْفَلَانِي يُحِرِّمُ
كَذَا وَكَذَا .. فَيَكْرُهُونَ الشَّيْخَ وَالدِّينَ .. لَا .. لِيسَ الْأَمْرُ أَنْ تَتَكَلَّمَ عَنْ
غَيْرِكَ؛ إِنَّمَا الْأَمْرُ أَنْ تَنْقِلَ أَحْاسِيْسَكَ أَنْتَ .. قُلْ لَهُمْ : هَلْ تَعْرِفُونَ بِمَا ذَا
أَشْعُرُ؟ ثُمَّ تَنْقِلُ إِحْسَاسَكَ إِلَيْهِمْ ..

قُلْ لَهُمْ : وَأَنَا ساجِدٌ أَشْعُرُ بِكَذَا، وَأَنَا أَقْرَأُ كَلَامَ اللَّهِ أَحْسُنُ بِكَذَا ..
حِينَمَا أَذْكُرُ اللَّهَ فَأَقُولُ : سَبَحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ يَمْتَلِئُ قَلْبِي رَاحَةً
وَاطْمِئْنَانًا .. وَبِذَلِكَ تَصِلُّ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ، أَمَا إِذَا لَمْ تَحْسُّ بِمَا تَقُولُ

لَيْسَ الشَّائُنُ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّائُنُ أَنْ يُحِبَّكَ

٢٩٧

فَأَنْتَ كَذَابٌ فِي التَّزَامِكَ وَلَمَّا تلتَزِمَ إِلَى الْآنِ .. وَلَذِكَ أَحِسَّ الْجَمَالَ وَاسْتَشْعِرُ حلاوةَ الإِيمَانِ وَطَعْمَ الإِيمَانِ .. امْلَأْ قلبَكَ بِالْمَحَبَّةِ لِتَتَلَذَّذَ بِالْخَدْمَةِ ، وَتَسْلَى بِالْمَحَبَّةِ عَنِ الْمَشَاكِلِ وَالْهَمُومِ .

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَحَبَّةَ تَنْشَأُ مِنْ مُطَالِعَةِ الْمِنَةِ - كَمَا يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ .. رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : «أَحَبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْدُوكُمْ بِهِ ، وَأَحَبُونِي بِحُبِّ اللَّهِ»^(١) .. أَحِبَّ اللَّهَ فَهُوَ الَّذِي يُطْعِمُكَ وَيُنْفِقُ عَلَيْكَ ..

نَعَمْ : الْقُلُوبُ مَجْبُولَةُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا؛ فَلَوْ أَنَّ إِنْسَانًا أَعْطَاكَ الْيَوْمَ عَشْرَةً جُنِيهَاتٍ ، وَغَدَّا أَعْطَاكَ عَشْرَةً أُخْرَى ، وَبَعْدَ غَدٍ أَعْطَاكَ مِثْلَهَا أَيْضًا .. وَهَكَذَا كُلُّ يَوْمٍ يُعْطِيكَ ، وَبَعْدَ الْعَشْرَةِ أَعْطَاكَ مِئَةً ، وَبَعْدَهَا أَلْفًا ، ثُمَّ مَلِيُونًا .. وَهَكَذَا كُلُّ يَوْمٍ فِي زِيَادَةٍ؛ فَلَا شَكَّ أَنَّكَ تُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيدًا؛ فَكِيفَ بِكَ لَوْ كَانَ الْمُعْطِي هُوَ اللَّهُ؟! .. فَاللَّهُ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْطَاهُ مَلَيْنَ مُمَلِّيَّةً ، فَكُمْ تُسَاوِي عَيْنَكَ وَكُمْ يُسَاوِي سَمْعُكَ .. كُمْ تُسَاوِي الدُّنْيَا إِنْ فَقَدْتَ عَيْنَكَ؟!؟!

اللَّهُ - سَبَحَانَهُ وَتَعَالَى - أَعْطَاكَ وَلَا يَزَالُ يُعْطِيكَ .. فَالْهَوَاءُ الَّذِي تَنَفَّسُهُ لَوْ كَانَ النَّفَسُ مِنْهُ بِعَشْرَةِ قَرْوَشٍ؛ فَكُمْ تَدْفَعُ كُلَّ يَوْمٍ؟! .. لَوْ كُنْتَ تَدْفَعُ كَمَا تَدْفَعُ لِعَدَادِ الْكَهْرَباءِ أَوْ فَاتُورَةِ الْهَاتِفِ ، فَكُمْ كُنْتَ سَتَدْفَعُ مُقَابِلَهَا الْهَوَاءِ؟! .. لَوْ أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُكَ وَيَأْخُذُ مِنْكَ مَا لَلَّا عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُكَ مِنْ

(١) أَخْرَجَهُ : التَّرمِذِيُّ (٣٧٨٩) ، كَ : الْمَنَاقِبُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بَ : الْمَنَاقِبُ أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ ﷺ . وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ حَسْنٌ غَرِيبٌ ، إِنَّمَا نَعْرَفُهُ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ : ضَعِيفٌ .

التكلُّم والسماع فكم كنت تدفع؟! .. أنتَ وخلقك ولا يريده منك شيئاً؛ ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] .. اللهم كما أنطقتنا بقدرتك وعظمتك امْنُّ علينا بحُبِّك .. وامْنُّ علينا بمطالعةِ نعمتك لنحبك .. اللهم ارزقنا حُبَّك يا رب .

ما زلت تصنع - أخي في الله - لو كان هناك فاتورة على كلّ نعمةٍ من هذه النعم؟!! .. فطالع نعم الله ، واشكره عليها ، وأحبه من كل قلبك . فلا شكَّ أنَّ مَنْ يطالع نعم الله عليه تترى في راهها بقلبه وعينيه - لا شكَّ أنه سيدُوبُ حُبًا في الله .. فهو - سبحانه - يعطيك ولا يتَّظُرُ مِنْكَ شيئاً ، عكس المخلوق تماماً؛ فالتجار جميعاً يتعاملون معك ليربحوا منك ، أما الله : فهو - سبحانه - وحْدَهُ الذي يتاجر معك لتربح عليه .. يعطيك حين يَجِدُ في قلبك حُبًا له ، فأحْبِبه فهو المعطي .. أحْبِبه ليعطيك .. أحْبِبه ليُحِبَّك .

الشاهدُ : أَنَّ الْمُحَبَّةَ تَنْبُتُ مِنْ مُطَالِعَةِ الْمِنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ : ﴿فَادْكُرُوهُمْ أَلَا إِنَّ اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٤] .. ذِكْرُ النَّعْمِ يُثْبِتُ الْمُحَبَّةَ .

والدي - اللهم ارحمه وموته المسلمين - كان إذا تعَبَ يقول له الناس : مالك؟ ، فيقول : الحمد لله ، لا تقل : مالك؟ ؟ لأنَّ بعض الناس إذا قلت له : مالك؟ ؟ يقول : عندي صداع ، والصداع جاءني بِسَبَبِ ارتفاع الضغط ، وارتفاع الضغط أصلُهُ تعبٌ في المَعْدَةِ ، وَسَبَبَ ارتفاع النُّبْضِ ارتفاعاً في درجة الحرارة .. ويظلُّ يُعَدَّ وكأنه يشتكي ربه للناس .. فوالدي - يرحمه الله - يقصدُ : أَنَّ لَا تفتح للناس بابَ الشَّكُورِ ؛ ولكن افتح لهم بابَ ذِكْرِ النَّعْمِ .

تَجِدُ النَّاسَ إِذَا سَأَلْتَهُمْ: كَيْفَ الْأَخْبَارُ؟ يَقُولُونَ لَكَ: الْبَنْتُ مَرِيْضَةُ، وَزَوْجِي لَا أَدْرِي مَاذَا بَلَاهَا.. وَنَحْنُ نَسْكُنُ فِي الدُّورِ الْأَرْضِيِّ، وَالْأَرْضِيِّ فِيهِ رُطْبَوَةٌ، ثُمَّ إِنَّ الْجِيرَانَ فِي وَجْهِنَا فَلَا نُسْتَطِيعُ أَنْ نَفْتَحَ الشُّبَّاكَ، وَالْأَطْفَالُ يَلْعَبُونَ فِي الشَّارِعِ يُزِّعُجُونَا.. وَهَكَذَا.. شَكْوَى.. شَكْوَى.. فَيَعِيشُونَ يَشْتَكُونَ دَوْمًا !

سبحانَ اللَّهِ!، هل وجدتَ إِنْسَانًا تجلسُ معه فيقولُ : إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي .. وَأَعْطَانِي؟! .. هل فعلتَ أنت؟! .. هل جلستَ مع الناسِ مَرَّةً وقلتَ : وَاللَّهِ الْعَظِيمِ إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَنِي .. فقد كنتَ فقيرًا لا أَجُدُ لُقْمَةً فَأَعْطَانِي وأَغْنَانِي .. الْحَمْدُ لِلَّهِ نَجَانِي وَلَمْ أَكُنْ أَسْتَحْقُ .. لَمْ أَكُنْ أَسْتَهِلُ؛ ولَكُنْهُ - سُبْحَانَهُ - وَهَبَنِي زَوْجَةً صَالِحةً، وَأَعْطَانِي شَفَّةً، وَوَهَبَنِي أُولَادًا، وَصِحَّتِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مُمْتَازٌ .. الْحَمْدُ لِلَّهِ عَمَلِي هَادِي فَزَمَلَائِي يُحِبُّونِي .. وَالْفَضْلُ لِلَّهِ، الْمَرْتَبُ كَافٍ .. وَبِفَضْلِ اللَّهِ، الْأَمْرُ عَلَيِّ مَا يُرِام .. هل جَلَسَ مَعَكَ أَحَدٌ فَقَالَ لَكَ هَذَا الْكَلَامُ؟!!

إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي كُلِّ مَجَالِسِكَ شَتَّى كَلِيلٌ لِلنَّاسِ الصَّدَاعُ وَالْمَشَاكِلُ وَالْمَعْصَرُ
وَالزَّوْجَةُ وَالْعِيَالُ وَالْبَيْتُ وَالشُّغْلُ وَالْهَمُ وَالنَّكَدُ.. رَغْمًا أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ
بِالْعِكْسِ؛ قَالَ - تَعَالَى - : ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدَثَ﴾ [الضَّحْيَ: ١١].. فَإِنْ
حَدَثْتُكَ بِالنِّعْمَةِ؟!.. أَينْ حَدَثَكَ؟!.. الْحُبُّ يَئْبَثُ مِنْ مَطَالِعِهِ الْمِنَّةُ.

كُنْتُ مَرَّةً أَقْوَمُ بعِمْرَةٍ - وَأَقُولُ ذَلِكَ لِأَعْلَمُ كِيفَ تَعْمَلُ - ، وَكُنْتُ
مُرِيَضًا بعْضَ الشَّيْءِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَاللِّهُ - ؛ فَبَعْدَ أَنْ طُفْتُ وَجَدْتُ أَنْ
رِجَالِيَ تُؤْلِمُنِي فَلَا أَسْتَطِيعُ وَلَا أَقْدِرُ فَأَجَرَتُ كُرْسِيًّا - وَيُؤَجِّرُ هُنَاكَ بِخَمْسِينَ

أو بخمسة وخمسين ريالاً - لأسعى به .. فإذا بي وأنا عليه مُستريح أنظر إلى الناس فأجد امرأة مسكينة لا تقدر على المشي تستند إلى سور الصفا والمروءة .. فقلت لها وأنا راجع : انتظري لحظة ، تعال يا بني أعطني كرسيًا ، وقلت لها : اركبي : قالت : ليس معي مال ، قلت : أنا دفعت ، قالت : كم أنت كريم يا رب .. أنت ترانني وتعرف حالي وأعطيتني كرسيًا .. أنا أحبك يا رب ..

فكم تساوي هذه الكلمة - إخواته؟! .. وكم يساوي أن تجعل أحداً ينطِق بحُب الله؟! .. والله ، ملائين الدنيا لا تساوتها .. ربنا أكرم مني وأعطاني كذا وكذا ، وعمل لي كذا وكذا ، وطلبت منه كذا فوهبني كذا ، وسترنني في كذا ، وعافاني من كذا وكذا .. هكذا يكون التحدث بالنعم ، ولا يكون كُلُّ كلامنا أن نشتكي .. هذا ما أريد أن أوصلكم ، وأريدكم أن تعملوا به .. أن تجعلوا الناس يحبون الله ..

وإذا كانت المحبة ثبتت بمطالعة المينة؛ فإنها ثبتت باتباع السنة - اللهم ارزقنا اتباع السنة يا رب ، اللهم إننا نسائلك اتباع السنة وفعل السنة .. نعوذ بك اللهم من البدع وأهلها .. المحبة ثبتت باتباع السنة .. كُن خلف النبي محمد ﷺ تصل .. كن واحداً لواحد على طريق واحد تصل .. كُن شخصاً واحداً ليس بوجهين فأخلص .. «لواحد» أي : الزَّم التَّوحيد .. على طريق واحد هو اتباع السنة ..

على طريق النبي محمد ﷺ ثبتت ولا تتلوّن ولا تتغيّر ولا تحيّد أو تتحول .. أثبت على الطريق السنّي - اللهم ارزقنا الثبات على الدين ..

وتنمو المحبة على الإجابة بالفacaة .. لابد أن تُظهر فقرك وضعفك
 وذلك ومسكتك بين يدي الله .. بعضنا - يا شباب - يظن أنه «فتوة» ..
 ما لا يكون بالله لا يكون بغيره؛ قال - تعالى - : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ ولذلك تنمو المحبة بإظهار الفacaة والضعف
 والفقير والذل والمسكنا.

شيخ الإسلام ابن تيمية رأى إنساناً يقف تحت حر الشمس حاسراً
 الرأس حافياً، فسأل عنه فقالوا له: إنه نذر أن لا يجلس في الضلّ، فقال
 شيخ الإسلام: «يا جاهل، هذا تقاوٍ على الله» .. أتقاوى على
 الله؟!! .. قال لك الله: البس وتسّر واركب، فلماذا تتقاوى
 عليه؟!! .. لا تقاو بنفسك على الله ، قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا الْصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء﴾ [التوبه: ٦٠]؛ فأظهر فقرك ليتصدق الله عليك .. أظهر ضعفك
 ليرحمك .

يقول ابن الجوزي : «تضاعف ما أمكنك؛ فإن اللطف مع الضعف
 أكثر» .

كُلّما أظهرت ضعفك كلما لطف بك ، ولا تقل: أنا أستطيع أن أواجه
 كذا وأقدر على كذا ، قال رسول الله ﷺ: «لا تَمْنَؤُ لِقاءَ الْعُدُوِّ؛ لَكِنْ
 اسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ»^(١) .. اللهم إِنّا نسألك العافية في الدنيا والآخرة ..
 فإِيَّاكَ أَنْ تَعْقِدَ أَنَّكَ «فتوة» ..

(١) متفق عليه: البخاري (٢٩٦٦)، ك: الجهاد والسير، ب: كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل
 أول النهار آخر القتال حتى تزول الشمس ، ومسلم (١٧٤٢)، ك: الجهاد والسير،
 ب: كراهة تمني لقاء العدو والأمر بالصبر .

إِنَّ الْبَعْضَ يَقُولُ : تخاف علينا من الجامعة بسبب الاختلاط .. لا .. لا يهمني الاختلاط .. فلو كان أمامي ألف عارية فلن تهتز مثني شعرة .. أقول : اللهم تب عليك .. كثير من الناس يقول هذا الكلام ويعمل به ولا يظهر ضعفه ، فيعتمد على نفسه ؛ فيكون أول من تندق عنقه بما لا يخشاه أو يحذره .. نعم : يكون أول الواقعين في الفتنة .

فالجأ إلى الله وافتقر إليه فأنت ضعيف .. ﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ، خلقك الله ضعيفاً لتفرّ إليه .. قال ابن تيمية في تفسيرها : « ضعيفاً أمّا شهوة فرجه ». إن اعتمادك على نفسك في مواجهة الفتنة أعظم عند الله وأشد إثماً من الذنب نفسه .

ولقد كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم لا تكُلني إلى نفسي طرفة عينٍ أبداً »^(١) .. فاللهُم لا تكُلنا إلى أنفسنا فتُهلكنا .. لا تكُلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .. آمين .

أخي في الله ، حبيبي في الله ، يا من أنت مسغوف بالوصول إلى الله ، إذا كنت تحب ربّك فسأل نفسك : هل يحبك ؟ ! ، فليس الشأن أن تُحبه ؛ إنما الشأن أن يُحبك .. والعalamة أنه إذا أحبك شغلك به وحده فعشت له وبه .. إذا أحبك شغل قلبك بحبه ، وجوارحك بخدمته ،

(١) أخرجه : البزار (٣١٩٠) - كشف الأستار ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢٣٨/٧) بلفظه ، وأحمد (٤٢/٥) ، وأبو داود (٥٠٩٠) ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٧٠١) بمعناه مطولاً ، وقال الألباني : حسن .

لَيْسَ الشَّائُنُ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّائُنُ أَنْ يُحِبَّكَ

٣٠٣

وَعَقْلَكَ بِالْفِكْرِ فِيهِ ؛ ثُمَّ لَا تَجِدُ فِي نَفْسِكَ بَقِيَّةً لِغَيْرِهِ .. فَانظُرْ أينَ قَدْمُكَ ..
إِذَا أَحَبَّكَ وَضَعَ قَدْمَكَ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي يَرْضَاهَا .. نَعَمْ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ
تَعْرِفَ مَقَامَكَ فَانظُرْ أينَ أَقَامَكَ ؟ !

عَلَامَاتُ حُبِّ اللَّهِ - تَعَالَى - لِلْعَبْدِ^(١) :

١- اتِّبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ .

قَالَ اللَّهُ - تَعَالَى - : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُجْبِونَ اللَّهَ فَأَتَّبِعُونِي يُعِبِّدُكُمُ اللَّهُ
وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ » [آل عمران: ٣١] .

٢- الذِّلَّةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

٣- الْعِزَّةُ عَلَى الْكَافِرِينَ .

٤- الْمُجَاهِدَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

٥- عَدْمُ خَوْفِ اللَّوْمِ فِي اللَّهِ .

وَجَمَعَ هَذِهِ الْأَرْبَعَ قَوْلُ اللَّهِ - تَعَالَى - : « يَكْتَبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ
مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يُأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْهُمْ أَذْلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْنَّةٌ عَلَى
الْكُفَّارِ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَآئِمَّةٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ » [المائدة: ٥٤] .

٦- التَّقْرِبُ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ .

(١) انظر : رياض الصالحين ، باب : علامات حُبِّ اللَّهِ - تَعَالَى - لِلْعَبْدِ ، والـحَثُّ عَلَى
التَّخْلِقِ بِهَا ، وَالسَّعْيُ فِي تَحْصِيلِهَا (١٩٤ - ١٩٥) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَالَ : مَنْ عَادَ لِي وَلِيَا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ^(١) ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَرَأُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالثَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أُحِبَّتِهُ ، كُنْتُ سَمِعَةُ الدِّيْنِ يُسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الدِّيْنِ يُبَصِّرُ بِهِ ، وَيَدُهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرَجْلُهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيَّذَنُهُ»^(٢).

٧- القبول في الأرض .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «إِذَا أَحَبَ اللَّهُ - تَعَالَى - الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ : إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبَبْهُ ، فَيُحِبِّهُ جِبْرِيلُ فَيَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبَبْهُ فَيُحِبِّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضِعُ لَهُ الْقُبُولُ فِي الْأَرْضِ»^(٣).

وفي رواية لمسلم : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - إِذَا أَحَبَ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ فَقَالَ : إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبَبْهُ ، فَيُحِبِّهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبَبْهُ فَيُحِبِّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضِعُ لَهُ الْقُبُولُ فِي الْأَرْضِ . وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَاهُ جِبْرِيلَ فَيَقُولُ : إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ ؛ فَيُبَغِضُهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللَّهَ يُبَغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُهُ ، ثُمَّ تُوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(٤).

(١) آذنته : أي أعلمته بآني مُحارب له .

(٢) أخرجه : البخاري (٦٥٠٢) .

(٣) أخرجه : البخاري (٣٢٠٩) .

(٤) أخرجه : مسلم (٢٦٣٧) .

٨ - التَّعْبُدُ لِلَّهِ - تَعَالَى - بِأَسْمَائِهِ وَصَفَاتِهِ .

عَنْ عَائِشَةَ قَوْنِيَّةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيرَةِ فَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : «سَلُوْهُ لَأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» ؟ ، فَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : لَأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ فَأَنَا أَحْبُّ أَنْ أَفْرَأِ إِلَيْهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - يُحِبُّهُ»^(١) .

فَقْتِشْ - أَخْيَيْ - فِي نَفْسِكَ عَنْ عَلَامَاتِ حُبِّ اللَّهِ لَكَ .. فَلِيُسْتَ القَضِيَّةُ فِي الدُّعَايَةِ أَنَّكَ تُحِبُّهُ ؛ وَلَكِنَّ الشَّائُنَ كُلَّ الشَّائُنِ فِي أَنْ يُحِبَّكَ هُوَ .. فَاعْلَمْ أَنَّ الْقَضِيَّةَ يَتَعَلَّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تُحِبَّهُ حَتَّى يُحِبَّكَ فَيَجْعَلَكَ تُحِبُّهُ ثُمَّ يُشْبِكَ عَلَى حُبِّكَ حُبًّا ثَانِيًّا مِنْهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .. فَحُبُّكَ مَحْفُوفٌ بَيْنَ حُبَّيْنِ مِنْهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ؛ حُبٌّ قَبْلَهُ وَحُبٌّ بَعْدَهُ .. وَلَكِنْ صَلَاحِيَّةُ الْمَحَلِّ وَأَهْلِيَّةُ الشَّخْصِ .. فَهَلْ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ حَبِيبَ اللَّهِ؟ .. بَادِرْ وَاللَّهُ كَرِيمٌ .

* * *

(١) متفق عليه: البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

الأصل السادس والعشرون

كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْحَبُ مِنْ رَصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ

لقد أُصْبِطْتُ بِالرُّغْبَىِ عِنْدَمَا قَرَأْتُ حَدِيثَ صَحِيحِ مُسْلِمٍ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا مِنْ غَازِيٍّ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُصِيبُونَ الْغَنِيمَةَ ، إِلَّا تَعْجَلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ مِنَ الْآخِرَةِ . وَيَبْقَى لَهُمُ الْثَلِثُ . وَإِنْ لَمْ يُصِيبُوهُمْ غَنِيمَةً ثُمَّ لَهُمْ أَجْرُهُمْ»^(١) .. وَكَانَيَ أَقْرَأَهُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي حَيَاتِي .. حَدِيثٌ يُخَوِّفُ .. يُرْعِبُ ..

نَفَهُمْ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ الَّذِينَ يَغْزُونَ فَيَغْنَمُونَ وَيَسْلَمُونَ اسْتَعْجَلُوا ثُلُثَيْ أَجْرِهِمْ ؛ أَيْ : ضَيَّعُوا الثَلِثَيْنِ مِنَ الْأَجْرِ فِي الدُّنْيَا ؛ فَلِمَ يَبْقَى لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْأَجْرُ الْقَلِيلُ .. فَالَّذِي أَخْذَتَهُ مِنَ الدُّنْيَا كَمْ ضَيَّعْتَ فِي مُقَابِلِهِ مِنَ الْآخِرَةِ .. إِنَّ كُلَّ مَا تَأْخُذُهُ مِنَ الدُّنْيَا مَخْصُومٌ مِنْ حِسَابِكَ فِي الْآخِرَةِ .

أَخْذَتَ مِنَ الدُّنْيَا مَالًا أو سِيَارَةً أو .. مَخْصُومٌ مِنْ نَعِيمِ الْآخِرَةِ .. وَلَا يَسْتُوِي فِي الْآخِرَةِ الْفَقِيرُ مَعَ الْغَنِيِّ ، وَإِنْ دَخَلَ الْغَنِيُّ الْجَنَّةَ .. لَا يَسْتُوِيَانِ أَبَدًا .. قَالَ - اللَّهُ تَعَالَى - : ﴿أَذَهَبْتُمْ طَيْبَاتُكُمُ الْدُّنْيَا وَأَسْتَمْنِعُمْ بِهَا﴾ [الْأَحْقَافِ: ٢٠] ، وَقَالَ - تَعَالَى - : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ الْغَيْمِ﴾ [التَّكَاثُرِ: ٨] .. فَكُلُّ مَا أُوتِيَتَهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا فَهُوَ بِالْخَضْمِ مِنْ نَعِيمِكَ فِي الْآخِرَةِ .

(١) أَخْرَجَهُ : مُسْلِمٌ (١٩٠٦) ، كِ : الإِمَارَةُ ، بِ : بِيَانِ قَدْرِ ثَوَابِ مِنْ غَزَا فَغَنَمْ وَمَنْ لَمْ يَغْنِمْ .

كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْحَبُ مِنْ رَصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ

٣٠٧

لذلك قال ربنا ﷺ : «كُلُّو وَأَشْرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ» [الحاقة: ٢٤] . . يقول ابن كثير رحمه الله : «أي يُقال لهم تفضلاً عليهم وامتناناً وإنعاماً وإحساناً . وإنما فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله عليه عليه رحمة الله أنَّه قال : «اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أنَّ أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة» ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل» ^(١) اهـ ^(٢) .

فإذا كان العمل الصالح وحده لا يدخل الجنة فما بالك بالسيء . ولذلك فإن متابعتك الدنيا «السيء» كلما كثر كلما ضيَّع عليك الآخرة . وإنما قال الله : «بِمَا أَسْلَفْتُمْ» ؛ ليرفع من همتك في السير إليه ؛ وإنما فالأسأل أَنَّه - سبحانه - الذي وفقك .

«وهذا اللون من النعيم مع هذا اللون من التكرييم في الالتفات إلى أهله بالخطاب ، قوله : «كُلُّو وَأَشْرِبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ» . . فوق أنه اللون الذي تبلغ إليه مدارك المخاطبين بالقرآن في أول العهد بالصلة بالله ، قبل أن تسمعوا المشاعر فترى في القرب من الله ما هو أعجب من كل متع .. فوق هذا ؛ فإنه يليبي حاجات نفوس كثيرة على مدى الزمان ، والنعيم ألوان غير هذا وألوان» ^(٣) .

(١) متفق عليه : البخاري (٦٤٦٧) ، ك : الدقائق ، ب :قصد والمداومة على العمل ، ومسلم (٢٨١٨) ، ك : صفات المنافقين وأحكامهم ، ب : لن يدخل أحد الجنة بعمله ؛ بل برحمه الله - تعالى .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤١٦/٤) .

(٣) في ظلال القرآن (٤/٤ - ٣٦٨١ - ٣٦٨٢) .

فَمَنْ عَاشَ نَعِيمَ الدُّنْيَا حُرِمَ نَعِيمَ الْآخِرَةِ؛ فَأَقْبَلَ عَلَى اللَّهِ وَاتَّرَكَ الدُّنْيَا وَمَلَدَّاَتِهَا وَشَهْوَاتِهَا، أَقْبَلَ عَلَى الْأَدْوَمَ فَنَعِيمُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى؛ ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَّعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

قال رسول الله ﷺ : «بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ وَالدِّينِ وَالرُّفَعَةِ وَالْتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلْدُّنْيَا؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ»^(١).

قال ربِّي : «وَيَوْمَ يُعَرَّضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى الْأَنَارِ أَذْهَبُوكُمْ طَبَيْتُكُمْ فِي حَيَاةِكُمْ الْدُّنْيَا وَأَسْتَمْنِعُوكُمْ بِهَا فَلَيَوْمَ تُبَخَّرُونَ عَذَابَ الْهُنُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسِقُونَ» [الأحقاف: ٢٠].

إِنَّ الَّذِينَ يَطْلَبُونَ الدُّنْيَا وَيَتَفَانَوْنَ فِيهَا وَيَسْعَوْنَ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا؛ لَابْدَأْنَ نُذَكِّرُهُمْ حَالَ نَبِيِّهِمْ ﷺ، وَكِيفَ أَنَّهُ ﷺ مَاتَ وَلَمْ يَجِدْ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ مِنَ الدَّفَلِ (أَرْدَأُ التَّمْرِ) ثَلَاثَةً أَيَّامٍ.. لَمْ يَكُنْ يَشْبُعُ ثَلَاثَةً أَيَّامٍ مُتَتَالِيَّةٍ.. يَشْبُعُ الْيَوْمَ فِي جُوْعٍ غَدَّاً، وَيَشْبُعُ الْيَوْمَيْنِ فِي جُوْعٍ ثَالِثًا.. نَعَمْ: لَمْ تَمُرْ عَلَيْهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ شَبَعَهَا قَطْ.. فَمَا آخِرُ مَرَّةٍ جُعِّتْ فِيهَا؟.. إِنَّا لَا نَجُوْعُ يَوْمًا وَاحِدًا، وَمَعَ ذَلِكَ نَسْخُطُ وَلَا نَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ - اللَّهُمَّ لَا تَعْذِبْنَا يَا رَبُّ، اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا شُكْرَ نِعْمَتِكَ يَا رَبُّ.. وَمَنْ هُنَا نَفْهُمُ هَذَا الْأَصْلَ، وَأَنَّ قَدْوَتَنَا فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَفْضَلُ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ.. فَكُلُّ مَا تَأْخُذُهُ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ بِالْخَصْمِ مِنْ حَسَابِكَ فِي الْآخِرَةِ.

(١) أَخْرَحَهُ : أَحْمَد (٥/١٣٤)، وَابْنُ حَيَّانَ (٢/٤٠٥) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ» بِرَثْمٍ (٢٨٢٢).

قال بعضُ الصَّحَابَةِ - رضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - : أَسْلَمْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَانَ أَحَدُنَا لَا يَجِدُ مَا يَمْلأُ بَطْنَهُ، فَمِنَّا مَنْ ماتَ وَلَمْ يُصْبِطْ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا شَيْئًا ، كَمْ صَعْبُ بْنُ عَمِيرٍ ، ماتَ وَلَمْ يَجِدْ مَا نُكْفَنَهُ فِيهِ ، إِلَّا نَمِرَةً إِذَا غَطَّيْنَا رَأْسَهُ بَدْتُ رِجْلَاهُ ، وَإِذَا غَطَّيْنَا رِجْلَيْهِ بَدْتُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : «غَطُّوا بَهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوهَا عَلَيْهِ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخَرِ»^(١) .

صَعْبُ بْنُ عَمِيرٍ الَّذِي فَتَحَ الْمَدِينَةَ وَحْدَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ ابْنُ أَمِّ مَكْتُومٍ .. قَائِدُ فَتْحِ الْمَدِينَةِ يَمُوتُ وَلَا يَجِدُونَ لَهُ كَفَنًا .. فَكُمْ عَنْدَكَ مِنْ مَلَابِسِ؟! .. كُمْ عَدُدُ الْقُمُصِ وَالْعَبَاءَاتِ التِّي عَنْدَكَ؟! .. وَكُمْ بَدْلَةٌ تَمْلِكُهَا؟! .. وَكُمْ وَكُمْ ..

سَلْمَانُ الْفَارَسِيُّ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ بَكَى ، قَالُوا : مَا يُبَكِّيكُ؟! ، قَالَ : عَهِدْنَا إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ عَهْدًا وَمَا أَرَانِي إِلَّا تَجَاوِزُهُ ، قَالُوا : وَمَا عَهِدْنَا إِلَيْكُمْ ، قَالَ : عَهِدْنَا إِلَيْنَا أَنْ يَكُونَ زَادُ أَحَدِنَا كَزَادِ الرَّاكِبِ^(٢) .. فَلَمَّا ماتَ حَسَبُوا لَهُ تَرِكَتَهُ ، فَوَجَدُوا عَنْهُ سَتَةَ عَشَرَ دُرْهَمًا (٦٤ جَنِيْهًا) .. فَأَيْنَ مِنْ يَتَرَكُونَ الْأَلَافَ وَالْمَلَالِيَّنَ؟! .. أَيْنَ مِنْ يُورِثُونَ الْأَرَاضِيَ وَالْفَدَادِيَّنَ؟! .. أَيْنَ أَصْحَابُ الْعَمَارَاتِ وَالْمَحَلَّاتِ وَالدَّكَاكِينَ؟! .. أَيْنَ هُؤُلَاءِ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ؟! .. إِنَّ هَذِهِ الْمَتَعَ وَالْمَلَذَاتِ وَالْمَسَرَّاتِ بِالْخَضْمِ مِنْ

(١) أَخْرَجَهُ : الْبَخَارِيُّ (٤٠٤٧) ، (٤٠٨٢) . وَالْإِذْخَرُ : نَبَاتٌ طَيِّبٌ الرَّائِحةِ .

(٢) أَخْرَجَهُ : أَحْمَدَ (٤٣٨/٥) ، وَابْنُ مَاجَهَ (٤١٠٤) ، كَ : الزَّهْدُ ، بَ : الزَّهْدُ فِي الدُّنْيَا ، وَابْنُ حِبَّانَ (٧٠٦/٢) ، وَعَبْدُ الرَّزَّاقَ (٢٠٦٣٢) ، وَأَحْمَدُ فِي «الْزَهْد» (ص: ١٥٢) ، وَوَكِيعُ فِي «الْزَهْد» (٦٧) ، وَالطَّبرَانِيُّ (٦٠٦٩) ، وَالْحَدِيثُ صَحَحُهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحْمَهُ اللَّهُ تَعَالَى .

حسابك في الآخرة فانتبه .. انتبه قبل أن تذهب إلى هناك فلا تجده شيئاً يسرّك .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أخذ رسول الله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته بمنكبِي فقال : «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنْكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرٌ سَبِيلٌ». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : إذا أَمْسِيْتَ فَلَا تَتَنَظِّرُ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَتَنَظِّرُ الْمَسَاءَ ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ ، وَمِنْ حَيَاةِكَ لِمَوْتِكَ^(١) .

قال الإمام النووي رحمه الله (٢) :

(قوله صلوات الله عليه وسلامه وبركاته) : «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنْكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرٌ سَبِيلٌ» ؛ أي : لا ترکن إليها ، ولا تأخذها وطنًا ، ولا تحدّث نفسك بالبقاء فيها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلّق به الغريب في غير وطنه الذي يريد الذهاب منه إلى أهله . وهذا معنى قول سلمان الفارسي رضي الله عنه : أَمْرَنِي خَلِيلِي صلوات الله عليه وسلامه وبركاته أَلَا أَتَخْدَ من الدُّنْيَا إِلَّا كِمْتَاعَ الرَّاكِبِ .

ترجمة البقاء بدار لا بقاء لها وهل سمعت بظلٍ غير مُتقلٍ

«وَمِنْ حَيَاةِكَ لِمَوْتِكَ» : أَمْرَهُ بِتَقْدِيمِ الزَّادِ ، وَهَذَا كَوْلُهُ - تَعَالَى - : ﴿وَلَا تَنْتَظِرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدِّ﴾ [الحشر: ١٨] ، وَلَا يُفَرِّطُ فِيهَا حَتَّى يُدْرِكَهُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ : ﴿رَبِّ أَرْجَعُونَ﴾ [٩٩] لَعَلَّهُ أَعْمَلَ صَلِحًا فِيمَا تَرَكَ^(٣) [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقال الغزالى - رحمه الله تعالى - : «ابن آدم بدنُه معه كالشبكة يكتسب بها الأعمال الصالحة ، فإذا اكتسب خيراً ثم مات كفاه ، ولم

(١) أخرجه : البخاري بهذا السياق والتمام برقم (٦٤١٦) .

(٢) شرح الأربعين النووية (١٢٥ - ١٢٨) بتصريف .

يجتمع بعد ذلك إلى الشبكة ، وهو البدن الذي فارقه بالموت . ولا شك أنَّ الإنسان إذا مات انقطعت شهوته من الدنيا ، واشتهرت نفسه العمل الصالح لأنَّه زاد القبر ، فإن كان معه استغنى به ، وإن لم يكن معه طلب الرجوع منها إلى الدنيا ليأخذ منها الزاد ، وذلك إنْ أخذَتْ منه الشبكة .

فِيَقَالُ لَهُ : هَيَهَا تَ ، قَدْ فَاتَ . فَيَقِنُ مُتَحِيرًا دَائِمًا عَلَى تَفَرِيظِهِ فِي أَخْذِ الزَّادِ قَبْلِ اِنْتَزَاعِ الشَّبَكَةِ ؛ فَلَهُذَا قَالَ : « وَخَذْ مِنْ حَيَاةِكَ لِمَوْتِكَ » ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ») اهـ .

أَخِي فِي اللَّهِ ، زَوْدُ رِصِيدِكَ فِي الْآخِرَةِ ؛ فَمُسْتَقْلٌ وَمُسْتَكْثِرٌ .
ستقول : ماذا أصنع؟! ، اللَّهُ قد أعطاني أموالًا فهل أرميها في الشارع؟!! .. أقول لك : تصدق بها على الفقراء تجدتها هناك ..
« يقول ابن آدم : مالي مالي ، فيقال له : ليس لك يا ابن آدم من مالِك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لمِسْتَ فأبليت ، أو تَصَدَّقْتَ فأبقيت » .. فالمالُ مال اللَّهِ أَعْطَاهُ لَكَ فَرِدَهُ إِلَيْهِ وَلَا تَقْلُ : مالي .. فهو - سبحانه - قادرٌ على أن يُفْقِرَكَ وَيَسْلِبَكَ هَذَا الْمَالَ فَتَمْشِي فَقِيرًا مُحْتَاجًا .. أَلَا تَشْكُرُ اللَّهَ أَنَّ وَهَبَكَ مَالَهُ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ يُثْبِكَ وَيَرْفَعُكَ حِينَما تَرْدُهُ إِلَيْهِ وَتُنْفَقُهُ فِي سَبِيلِهِ .. أَلَا تَسْتَحِي مِنْ رَبِّكَ؟! .. فإنْ كَانَ عِنْدَكَ مَالٌ فَتَصَدَّقْ بِهِ .

ولذلك فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال : « وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لِي مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبَا ، فَيَبْيَتَ عَنِي مِنْهُ ثَلَاثٌ فَأَفْعَلَ بِهِمْ هَكُذا وَهَكُذا وَهَكُذا وَهَكُذا »^(١) .. أي : يُفَرِّقُ هَذَا الْمَالَ وَيُوزِّعُهُ عَلَى الْفَقَرَاءِ بِسَرْعَةٍ .

(١) متفق عليه : البخاري (٢٣٨٩) ، ومسلم (٩٩١) .

يقول الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في حديث رسول الله ﷺ:

«ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس»^(١):

«الزهد ترك ما لا يحتاج إليه من الدنيا وإن كان حلالاً، والاقتصار على الكفاية»، والوراع: ترك الشبهات. قالوا: وأعقل الناس الزهاد! لأنهم أحبوا ما أحب الله، وكرهوا ما كره الله من جميع الدنيا، واستعملوا الراحة لأنفسهم.. وللشافعي رحمه الله في ذم الدنيا:

ومن يدُقِّ الدنيا فإني طعمتها	وسيق إلينا عندها وعداها
فلم أرها إلا عروراً وباطلاً	كما لاح في ظهر الفلاة سراها
وما هي إلا جيفة مستحيلة	عليها كلاب همهم اجتذبها
فإن تجذبها كنت سلما لأهلها	وإن تجذبها نازعتك كلابها
فدع فضلات الأمور فيها	حرام على نفس التقى ارتكابها

قوله: «حرام على نفس التقى ارتكابها» يدل على تحريم الفرح بالدنيا، وقد صرَّح بذلك البغوي في تفسير قوله - تعالى - **﴿وَرِحْمًا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** [الرعد: ٢٦]. ثم المقصود بالدنيا المذومة: طلب الزائد على الكفاية، أما طلب الكفاية فواجب.

قال الشافعي رحمه الله: «طلب الزائد من الحلال عقوبة ابتلى الله بها أهل التوحيد».

وقد مدح الله المقتضدين في العيش فقال: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ**

(١) أخرجه: ابن ماجه (٤١٠٢)، ك الزهد، ب: الزهد في الدنيا، وصححه الألباني - رحمه الله تعالى. انظر «السلسلة الصحيحة» (٩٤٤) و«صحيح الجامع» (٩٣٥).

كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْحَبُ مِنْ رِصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ

٣١٣

يُسَرِّفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴿ [الفرقان: ٦٧] . . وكان يُقال : القصدُ في المعيشةِ يكفي عنك نصفَ المؤنةِ ، والاقتصادُ : الرضا بالكافية﴾^(١) .

أحدُ الناسِ - أسألُ اللهَ أَنْ يُفْرِجَ كربَه ويقضيَ دينَه - قال لي : أنا أدفع للبنكِ ستينَ ألفَ جنِيهِ رِبَا كُلَّ شهْرٍ ، قلت له : لو أَنَّ ستينَ ألفَ جنِيهِ تُصْدِقَ بها عَلَى الْفَقَرَاءِ كُلَّ شهْرٍ فَكُمْ تُغْنِي فِي الْآخِرَةِ؟! . . يُريَدُ أَنْ يُسَدَّدَ بعْدَ أَنْ تُورَّطَ وَعَاشَ الْهَمُّ وَالْغَمُّ لِيلَ نهارٍ .. اللَّهُمَّ تُبْ عَلَى كُلِّ عَاصِ مِرَابٍ .. نعم : الرِّبَا حِرْبٌ عَلَى اللَّهِ .. قال هذا الرجلُ : ولذلك إِذَا قابلني أحدُ فِي الدُّنْيَا أقولُ لَهُ : «سِكَّةُ الْبَنُوكِ سِكَّةُ الْخَرَابِ» .. لا يوجد أحدُ مشَى فِي سِكَّةِ الْبَنُوكِ إِلَّا وَخَرَبَ بَيْتَه .. خَرَابٌ .. أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يصرفِ الرِّبَا عَنِ الْمُسْلِمِينَ .. اللَّهُمَّ إِنَا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الرِّبَا وَالزُّنا وَالْغَنَا وَالْوَرَبَا .

فلو أَنَّ هَذَا الْمَالَ الْمَكْنُوزَ صُرْفَ فِيمَا يُرْضِي اللَّهَ ؛ لَارْتَاحَ النَّاسُ وَسَعِدُوا وَلَا طَمَأنُوا وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .. كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَسْأَلُ باسْتِمرَارٍ : ابْتَعَدْتُ عَنِ الْبَنِكِ وَلَمْ أَضْعُ أَمْوَالِي فِيهِ فَمَاذَا أَصْنَعُ؟ .. أَشْغَلَهَا فِي مَشْرُوعٍ؟! .. وَلَكِنِي أَخَافُ مِنَ الْخَسَارَةِ! .. أَقُولُ : تُصْدِقُ بِهَا عَلَى الْفَقَرَاءِ يَنْفَعُكَ عَنْدَ اللَّهِ .. وَهَذَا هُوَ التَّشْغِيلُ الْحَقِيقِيُّ لَهَا .. التَّصْدِيقُ بِهَا .

نعم : عندك زِيادَةٌ فِي الْمَالِ تُرِيدُ أَنْ تَضَعَّهَا فِي الْبَنِكِ أَوْ تَعْمَلَ بِهَا مَشْرُوعًا .. لَا .. بل تُصْدِقُ بِهَا عَلَى الْفَقَرَاءِ ، فَوَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ،

(١) شرح الأربعين النووية (١٠٥ - ١٠٢) بتصرف .

أصول الوصول إلى الله تعالى

هناك فقراء لا يجدون ما يأكلونه .. والله ، فقراء لا يجدون «الرغيف الحاف» .. فقراء لا يرثون اللحم بالشهور ، ولو ذهبت إليهم بدهاجة من دجاج «الجمعية» لطاروا فرحا .. فيا من لا تأكل إلا اللحم باللحم .. تريد أن تحفظ بالأموال وتكبرها ، وإخوانك فيهم من لا يجد ما يسدد جوعه .

أطعم الفقراء وأنفق عليهم مالك بسخاء ، أطعمهم وكن رحيمًا بهم ؛ فالمال مال الله وهو الذي أغناك .. ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَتَمُ الْفَقَرَاءِ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] .. اللهم أطعم فقراء المسلمين ، اللهم أغن فقراء المسلمين بفضلك وكرمك يا أرحم الراحمين ، اللهم وسع أرزاق المسلمين وبارك لهم فيها يا رب العالمين .

طلحة بن عبد الله التيمي .. الصحابي الجليل .. الذي قال عنه رسول الله ﷺ : «من سره أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قضى نحبه ، فلينظر إلى طلحة بن عبد الله»^(١) .

يقول عنه الدكتور عبد الرحمن رافت الباشا - رحمه الله تعالى - بعد

أن ذكر قصّة وفاته - :

«هذه هي قصّة تُعْتَد طلحة بن عبد الله «بالشهيد الحي» ، أمّا تلقّيه بطلاحة الخير ، وطلحة الجود فلها مئة قصّة وقصّة ..

(١) آخره : أبو يعلى (٤٨٩٨) ، وابن عدي (١٠٨/٥) بسنده ضعيف ؛ لكن روئي بمعناه الترمذى (٣٢٠٢ ، ٣٧٤٠) وقال : غريب ، وابن ماجه (١٢٦) ، وقال الألبانى : حسن .

كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْحَبُ مِنْ رَصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ

٣١٥

مِنْ ذَلِكَ أَنَّ طَلْحَةَ كَانَ تَاجِرًا وَاسِعَ التِّجَارَةِ عَظِيمَ الثَّرَاءِ ، فَجَاءَهُ ذَاتَ يَوْمٍ مَالٌ مِنْ « حَضْرَمَوْتَ » مَقْدَارُهُ سَبْعُمِائَةِ أَلْفِ دَرْهَمٍ ، فَبَاتَ لِيلَتَهُ وَجِلًا جَزِيرًا مَحْزُونًا .

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجُهُ أُمُّ كُلْثُوم بَنْتُ أَبِي بَكْر الصَّدِيقِ ، وَقَالَتْ : مَا بَكَ يَا أَبَا مُحَمَّد؟!! .. لَعَلَّهُ رَابِكَ مَنَا شَيْءًا! ، فَقَالَ : لَا ، وَلَنِعَمْ حَلِيلُهُ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ أَنْتِ .. وَلَكِنْ تَفْكَرُتُ مِنْذُ اللَّيْلِ وَقَلَتْ : مَا ظُنِّ رَجُلٌ بِرِبِّهِ إِذَا كَانَ يَنْامُ وَهَذَا الْمَالُ فِي بَيْتِهِ؟! ، قَالَتْ : وَمَا يَغْمُكُ مِنْهُ؟! ، أَينَ أَنْتَ مِنَ الْمُحْتَاجِينَ مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِلَائِكَ؟! ، فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَقْسَمَهُ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : رَحْمَكِ اللَّهُ ، إِنَّكَ مُوقَّفَةٌ بَنْتُ مُوقَّفٍ .. فَلَمَّا أَصْبَحَ جَعْلَ الْمَالِ فِي صُرَرٍ وَجِفَانٍ ، وَقَسَمَهُ بَيْنَ فَقَرَاءِ الْمَهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

وَرُوِيَ أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَطْلُبُ رِفْدَهُ ، وَذَكَرَ لَهُ رَجِمًا تَرْبِطُهُ بِهِ ، فَقَالَ طَلْحَةُ : هَذِهِ رَجِمٌ مَا ذَكَرَهَا لِي أَحَدٌ مِنْ قَبْلِهِ ، وَإِنَّ لِي أَرْضًا دَفَعَ لِي فِيهَا عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ .. فَإِنْ شِئْتَ خَذْهَا ، وَإِنْ شِئْتَ بَعْثُها لَكَ مِنْهُ بِثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ وَأَعْطِيَكَ الثَّمَنَ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : بَلْ آخُذُ ثَمَنَهَا ؛ فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ .. هَنِيَّا لِطَلْحَةِ الْخَيْرِ وَالْجُودِ هَذَا الْلَّقَبُ الَّذِي خَلَعَهُ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنُورَ لَهُ فِي قَبْرِهِ»^(١) .

(١) صور من حياة الصحابة (٤٩٢ - ٤٩٣).

أخي المسلم ، عِنْدَكَ زِيَادَةً - وَلَيْسَ الْكَلَامُ لِلأَغْنِيَاءِ فَقَطْ - ؛ فَتَصَدَّقُ بِهَا ؛ أَبْنَ مسجداً أَوْ عِيَادَةً لِعَلاجِ الْفَقَرَاءِ مِجاناً .. تَبَنَّ مَشْرُوعاً لِلنَّفَاقِ عَلَى الْأَسْرِ الْيَتِيمَةِ .. سَاعِدْ فِي زِوَاجِ الشَّبَابِ الْمُحْتَاجِ إِلَيْهِ .. تَبَنَّ طَالِبَ عِلْمٍ شَرِعيِّ لِيَخْدُمَ الْأُمَّةَ .. أَنْفَقْ مَالَكَ فِي مَسَارِيعِ أُخْرَوِيَّةٍ تَكُونُ لَكَ عَنْدَ اللَّهِ ؛ وَإِلَّا تَفْعَلْ فَهِيَ بِالْخَصْصِ مِنْ حِسَابِكَ فِي الْآخِرَةِ .

* * *

الأصل السابع والعشرون

المرء معَ مَنْ أَحِبَّ؛ فَاخْتَرْ حَبِيبَكَ مِنْ هَاهُنَا

قال لي أحدهم : أحب الممثلة الفلانية ؟ قلت له : أتحب أن تُحضر معها في الآخرة ؟ .. تُحب أن تكون معها أم مع النبي محمد ﷺ ؟ .. تحب أن تكون مع من ؟ .. سأله أعرابي رسول الله ﷺ : الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ ، قال : «المرء معَ مَنْ أَحِبَّ»^(١) .

فهل تُحب أن تكون مع الفاسدين وأهل اللغو والمجنون؟!

لذا لِمَا سَمِعَ أنسُ بن مالكٍ هذا الحديث ، قال : فما فَرَحْنَا بِشَيْءٍ بَعْدَ إِسْلَامَ فَرَحْنَا بِهَذَا الْحَدِيثِ «المرء معَ مَنْ أَحِبَّ» ؛ لَأَنَّنِي أَحِبُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرَ وَعُمَرَ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ فِي الْجَنَّةِ .

ولذلك كان من إحدى رسائلني على الهاتف لأحبابي في الله : «اللَّهُمَّ إِنْكَ تَعْلَمُ أَنِّي إِنْ كُنْتُ أَعْصَاكَ ؛ إِلَّا أَنَّنِي أَحِبُّ مَنْ يطِيعُكَ ؛ فاجعِلْ ذَلِكَ قُرْبَةً لِي عِنْدَكَ .. آمِين». هذه هي الرسائل النافعة .. ولن泥土 تلك التي يكتبونها اليوم من هُرَاءٍ غَيْرِ مفيدة .. اكتب شيئاً مفيداً .. فالهاتف نعمة لا تستعملها في المعاصي ، لِمَ تَسْتَعْمِلُهُ فِي اللَّهِ وَالْغَفْلَةِ ؟ !

استعمله في طاعة الله ونشر الحب في الله .. اكتب : اليوم درس في

(١) متفق عليه : البخاري (٦١٦٨) ، ومسلم (٢٦٤١) .

أصول الوصول إلى الله تعالى

المكانِ الفلاّنيِ . . وأرسِلْهُ إلى كلِّ الناسِ . . كلُّ المُسَجَّلِ على الهاتفِ أرسِلْ إليهِ . . فإنْ جاءَ فخِيرٌ كبيرٌ ، وإنْ لم يأتِ كانتْ أيضًا في ميزانِ حسناّتكِ . . اكتبْ آيَةً قرأتَها نفعَتْكِ . . اكتبْها وأرسِلْها . . حدِيثًا سمعْتهَ اكتبْهُ وأرسِلْهُ . . ادعُ إلى الله بالحُبِّ لعلَّ الله ينفعُ بك وإنْ لم تفعلْ . إنْ فعلْتَ هذا وعِشْتَ على هذا ؛ فأنتَ تُحِبُّ الخيرَ وتُحِبُّ أهلهَ ، وسوف تُحشر معهم بإذنِ اللهِ - تعالى .

والذي يحبُّ الراقصةَ الفلاّنيةَ والفنانةَ الفلاّنيةَ والممثلَ الفلاّنيَّ فسوف يكونُ معهم . . الذي تحبُّه ستكونُ معه . . تحبُّ اللّاعبَ الفلاّنيَّ . . المسرحيَّةَ الفلاّنيةَ . . الأغنيةَ الفلاّنيةَ . . ستكونون معاً يوم القيمةِ في الموقفِ ، وبعد ذلك جهنَّمُ والعياذ باللهِ .

أمّا إذا أحببتَ اللهَ وأحببتَ من يُحِبُّ اللهَ . . فستكونُ جارَهُ في الفردوسِ الأعلىِ . قال رسولُ اللهِ ﷺ : «إذا سألتُم اللهَ الجنةَ فاسألوهُ الفردوسَ؛ فإنه أعلىُ الجنَّةِ ووسطُ الجنَّةِ، ومنه تُفجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ، وسقفُه عرشُ الرحمن»^(١) . فإذا أحببتَ اللهَ كنتَ جارَهُ . . وإذا أحببتَ النبيَّ ﷺ كنتَ معه .

أبو بكر الصديقُ وعمُرُ وعليٌّ وعثمانٌ وأبو الدرداءِ وأنسٌ وأبو ذرٌّ ومعاذٌ رضي الله عنه . هؤلاءِ هُم التّجومُ بحقِّ ، فإذا أحببَتهم كنْتَ معهم هناكَ في الآخرةِ . . نعم : هؤلاءِ هُم الذين يستحقُون الحبَّ . . فمن تحبُّ؟!

(١) أخرجهُ : البخاريُّ (٢٧٩٠) .

إنَّ قضيَّةَ الحُبِّ في هذه الأَيَّامِ قضيَّةٌ في غَايَةِ الغَرَابَةِ؛ فَالنَّاسُ الْيَوْمَ يُحِبُّونَ أَشْيَاءً غَرِيبَةً وَمُوْضُوعَاتٍ عَجِيبَةً.. لَقَدْ قَرَأْتُ فِي إِحْدَى وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الْمَقْرُوْءَةَ: أَنَّ رَجُلَيْنِ قَدْ رَفَعَا قَضَايَا ضَدَّ بَعْضِهِمَا الْبَعْضَ بِسَبَبِ كَلْمَةٍ سَاقِطَةٍ.. عَجِيبٌ!!.. عَجِيبٌ أَنْ تَرَى النَّاسَ فِي الشَّارِعِ يُحِبُّونَ التَّلْفُظَ بِهَذِهِ الْكَلْمَاتِ.

لَقَدْ كَانَ النَّاسُ مِنْذِ زَمَانٍ مُضِيَّ يَبْحَثُونَ عَنِ الْكَلَامِ الَّذِي فِيهِ أَدْبُّ وَذُوقٌ.. كَلَامُ أَرْسِتَقَرَاطِي.. فَكَانُوا يَتَشَبَّهُونَ بِالْفَرْنَسِيِّينَ فِي تَرْقِيقِ الْكَلَامِ وَنَطْقِ الرَّاءِ غَيْنَاهُ.. وَإِنْ كَنَا لَا نَوَافِقُهُمْ؛ فَلَغُتنَا وَقُورَةً وَمَحْتَرَمَةً وَفِيهَا كُلُّ الْجَمَالِ وَالْأَدْبُ.. وَلَكِنَّ الشَّاهِدَ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا يَبْحَثُونَ عَنِ الْكَلَامِ الْمُحِبِّ الْجَمِيلِ.. أَمَا الْيَوْمَ فَصَارَ النَّاسُ يَبْحَثُونَ عَنْ كَلَامِ السُّوْقَةِ.. أَلْفَاظُ سُوْقِيَّة.. يَبْحَثُونَ عَنِ الْأَلْفَاظِ السَّفَلَةِ وَالضَّائِعَيْنِ فِي الشَّوَارِعِ.. وَتَجَدُّنَا وَلِلْأَسْفِ نَتَكَالَّبُ عَلَيْهَا وَنَتَبَاهَيُّ بِهَا.. أَمَّةٌ فِي الْحَضِيرَصِ!!

إِنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ نَبْحَثَ عَنْ كُلِّ كَلْمَةٍ جَمِيلَةٍ مُرِيحَةٍ رَطِبَةٍ، وَكُلِّ إِشَارَةٍ مُؤَدِّبَةٍ وَكُلِّ حَرْكَةٍ مَهَذَبَةٍ لِتَنْتَعَالِمَ بِهَا مَعَ النَّاسِ؛ لِنَكْسِبَ حَبَّهُمْ وَنَحِبِّهِمْ إِلَى اللَّهِ؛ لِنَكُونَ مَعَهُمْ وَيَكُونُوا مَعَنَا عَلَى طَرِيقِ الْحُبِّ فِي اللَّهِ.

وانظرْ إِلَى الرِّقَّةِ وَالْأَدْبِ فِي التَّعَالِي بَيْنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى

عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - :

عن زيدِ ابنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ: «عَزَلَ عَمْرُ خَالِدًا، فَلَمْ يُعِلِّمْهُ أَبُو عَبِيدَةَ حَتَّى عَلِمَ مِنَ الْغَيْرِ، فَقَالَ: يَرْحُمُكَ اللَّهُ، مَا دَعَاكَ إِلَى أَنْ لَا تَعْلَمَنِي؟؛ قَالَ: كَرِهْتُ أَنْ أُرَوِّعَكَ».. حُبُّ فِي اللَّهِ.

قال الصوري : علامة الحب لله المراقبة للمحوب ، والتَّحرِي لمرضاته .

ولمَّا اشتري أبو بكر بلاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواق ذهبًا؛ قالوا: لو أبىت إلا أُوقية لبعنائه؛ فقال: لو أبىتم إلا مائة أُوقية لأخذته .. حب في الله .

قال فضيل بن عزوان : أتيت أبا إسحاق بعد ما كف بصره ، قال : قلت : تعرفي؟ ، قال : فضيل؟ ، قلت : نعم . قال : إني والله أحبك ، لولا الحياة منك لقلبك . فضمّني إلى صدره ، ثم قال : حدثني أبو الأحوص عن عبد الله : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَفَّالَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأفال: ٦٣] نزلت في المتحابين .

وكان أبو العالية إذا دخل عليه أصحابه يرحب بهم ويقرأ : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِشَيْئِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] .

وكان ابن عمر يقول : إنني لأخرج وما لي حاجة إلا أن أسلم على الناس ، ويسلمون على^(١) .. حب في الله .. يحب المسلمين ويحب رؤيتهم .

قال الأوزاعي : كتب إلى قنادة من البصرة : إن كانت الدار فرقٌ بيننا وبينك ؛ فإن ألفة الإسلام بين أهلها جامعة^(٢) .

(١) آخرجه : الديلمي في «الفردوس» (٣٣٩/٥) .

(٢) تحفة العلماء بترتيب سير أعلام النبلاء ، جمع وترتيب : أحمد سليمان وأم صفية بنت محمد صفوات نور الدين - رحم الله تعالى والدها رحمة سابغة - (٤٧١ - ٤٧٧) .

الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ ، والموالاة في اللهِ والمعاداة في اللهِ ..
 الحبُّ في اللهِ أن تُحِبَّ اللهَ - تعالى - ورسولَهُ ﷺ وتحبَّ بِحَبِّهِما
 المؤمنين؟ قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا وَلِيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الَّذِينَ يُقْيمُونَ
 الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكُوَةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

والبغضُ في اللهِ أن تكرهَ الكفرَ والكافرينَ والشركَ والمسركينَ والفسقَ
 والفاسقينَ ، حتى ولو كانوا من أقربِ الأقربينَ إليكِ؛ قال - تعالى - :
 ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، إِذْ قَاتَلُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا مُرِئْنَا مِنْكُمْ
 وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبِدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدُوُّ وَالْبَعْضُ أَبَدًا حَتَّى
 تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [المتحنة: ٤].

وأبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح . ألم يُؤكِّدُ هذا الأصلُ العظيمُ يومَ بدري . أصل المعاودة في اللهِ والمعاداة في اللهِ .
هذا الأصلُ الذي يقولُ عنه العلماءُ : الولاءُ والبراءُ هو المقياسُ العمليُّ
وال حقيقيُّ للتوحيدِ الخالصِ .

«عاش أبو عبيدة تجربة المسلمين القاسية في مكةً منذ بدايتها إلى
 نهايتها ، وعاني مع المسلمين السابقين من عنفها وضرارتها ، وألامها
 وأحزانها ما لم يُعانيه أتباعُ دينٍ على ظهر الأرض؛ فثبتت للابتلاء ، وصدقَ
 اللهُ ورسولُه ﷺ في كلٍ موقفٍ .

لكنَّ محنَّ أبي عبيدة يوم «بدري» فاقتُ في عنفها حسابَ الحاسبين
 وتجاوزَتْ خيالَ المتخيلينِ .

انطلقَ أبو عبيدة يوم بدري يصولُ بين الصفوفِ صولةَ مَنْ لا يهابُ

الرَّدِي ، فهابَه المشركون ، ويَجُولُ جَوْلَةً مَنْ لَا يَحْذِرُ الموت ، فَحَذَرَه فُرْسَانُ قَرِيش ، وجعلوا يَتَنَحَّوْنَ عَنْهُ كَلَمًا واجهَهُم . . .

لَكَنَ رَجَلًا واحِدًا مِنْهُمْ جَعَلَ يَبْرُزُ لَأَبِي عَبِيدَةَ فِي كُلِّ اتِّجَاهٍ ، فَكَانَ أَبُو عَبِيدَةَ يَتَحَرَّفُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَتَحَشَّى لِقَاءَهُ .

وَلَجَّ الرَّجُلُ فِي الْهَجُومِ وَأَكْثَرَ أَبُو عَبِيدَةَ مِنَ التَّنَحِيِّ ، وَسَدَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي عَبِيدَةَ الْمَسَالِكَ وَوَقَفَ حائِلًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ قِتَالِ أَعْدَاءِ اللَّهِ .

فَلَمَّا ضَاقَ بِهِ ذَرْعًا ضَرَبَ رَأْسَهُ بِالسِّيفِ ضَرَبَهُ فَلَقْتُ هَامَتَهُ فَلَقْتَيْنِ ؛
فَخَرَّ الرَّجُلُ صَرِيعًا بَيْنَ يَدِيهِ .

لَا تُحَاوِلْ - أَيُّهَا الْقَارِئُ الْكَرِيمُ - أَنْ تُخْمِنَ مَنْ يَكُونُ الرَّجُلُ الصَّرِيعُ .. أَمَا قُلْتُ لَكَ : إِنْ عُنْفَ التَّجْرِيبِ فَاقْ حِسْبَانَ الْحَاسِبِينَ وَجَاوَزَ خِيَالَ الْمُتَخَيَّلِينَ؟ . . .

وَلَقَدْ يَتَصَدَّعُ رَأْسُكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّرِيعَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الْجَرَاحِ وَالْدُّ أَبِي عَبِيدَةَ .

لم يقتل أبو عبيدة أباه، وإنما قتل الشرك في شخص أبيه.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ - سَبَحَانَهُ - فِي شَأنِ أَبِي عَبِيدَةَ وَشَأنِ أَبِيهِ قُرْآنًا ؛ فَقَالَ - عَلَتْ كَلْمَتُهُ - : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُونَ مَنْ حَادَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا أَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِحْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّتِ نَجْرِي مِنْ تَحْنِهَا الْأَنَهَرُ خَلِيلِنَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

لم يكن ذلك عجياً من أبي عبيدة ، فقد بلغَ من قُوَّة إيمانِه بالله ونصيحةِ لدینه ، والأمانةِ على أُمَّةِ محمدٍ ﷺ مبلغًا طمَحَتْ إليه نفوسٌ كبيرةٌ عند الله»^(١).

فاختاروا - إخوتاه - مَن يسْرُكُم في القيامةِ أن يكونوا معكم وتكونوا معهم ، وابتعدوا عن طريق الصادِينَ عن سبيلِ اللهِ الذين يُحبُّونَ أن تشيع الفاحشةُ في الدينِ آمنوا .. تبرعوا من الفسقةِ الفجَرَة حتى لا يجمعُكم اللهُ بهم .. اتركوا الاختلاطَ بهم ، واتركوا التشبهَ بهم في الأعيادِ والاحتفالاتِ ، والمَلَبسِ والهيئةِ ، واستعمالِ كلماتهم التي يكرهُها اللهُ.

قال - تعالى - : ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلَيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣] .. فالآية : «فيها دليلٌ على وجوبِ هُجرانِ أهلِ الكفرِ والمعاصي ، وأهلِ البدعِ والأهواءِ؛ فإنَّ صحبَتْهُمْ كُفْرٌ أو معصيةٌ؛ إذ الصُّحبةُ، لا تكون إلا عن موْدَةٍ»^(٢).

إخوتاه ، الطريقُ إلى اللهِ لا بدَّ فيها من البعدِ عن المثبِطينَ المُقْعِدينَ الذين ركنا إلى حُبِّ الدنيا والتَّذُّدوا بها ، فأحِبُّوا المؤمنينَ الطائعينَ الطاهرينَ يُعينوكُم على الوصولِ ، ويُهُونُوا عليكم مشاقَ الطريقِ .

أخي في الله ، حبيبي في اللهِ ، أحبِّ اللهِ ، واكرهُ للهِ ، فبهذا الأصلِ اختَرْ حبيبكِ من ها هنا ، واعلم أنَّ المسافرَ إلى اللهِ يحتاجُ

(١) صور من حياة الصحابة ، لعبد الرحمن رأفت البasha - رحمه الله تعالى - (٩٢ - ٩٣).

(٢) أيسر التفاسير ، لأبي بكرِ الجزائري - حفظه الله تعالى - (٥٨٤/٢).

ولابد إلى رفقة صالحة وصحبة طيبة .. يحتاج أن يعيش في مجتمع تسوده المحبة والأخوة^(١).

أخي في الله ، المرأة مع من أحب ؟ فمن تحب ولماذا ؟

اللَّهُمَّ ارزقنا حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ أَحِبَّكَ ، وَحُبَّ كُلِّ عَبْدٍ صَالِحٍ يَحْبُّكَ ،
وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يَقْرِبُنَا إِلَى حُبِّكَ .. اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنْ
أَنفُسِنَا وَأَهْلِنَا وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَاءِ .. اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنَا مَمَّنْ أَحَبَبْتَهُمْ
فَرَضَيْتَ عَنْهُم .. اللَّهُمَّ وَكَمَا جَمَعْنَا عَلَى حُبِّكَ فِي الدُّنْيَا ، اجْمَعْنَا فِي
جَنَّاتِكَ جَنَّاتِ التَّنَعِيمِ عَلَى سُرُورِ مُتَقَابِلِينَ مَعَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ
وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسْنَ أُولئِكَ رَفِيقًا .. اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمنَا رَوْيَةَ الصَّالِحِينَ ،
وَلَا تَحْرِمنَا - اللَّهُمَّ - مِنَ النَّظَرِ إِلَى وجْهِكَ الْكَرِيمِ ..

آمين .. آمين .. آمين ..

* * *

(١) راجع مزيداً من الكلام عن الأخوة والمتاخرين في كتابنا « الأخوة أيها الإخوة »؛ فإنه مهم لكل أخ مسلم، وملزם على الخصوص.

الخاتمة

صَحِبْتُكَ - أَيُّهَا الْحَبِيبُ - رُبْعَ الْطَّرِيقِ .. وَهَكُذَا تَكُونُ الْمُسَاعِدَةُ حَقْيَقَةً ؛ فَإِنَّ مَنْ يَتَعَطَّلُ فِي بَعْضِ الْطَّرِيقِ أَوْ يَسْأَلُ عَنْ طَرِيقٍ ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ لَا يَسِيرُ مَعَهُ كُلَّ الْطَّرِيقِ .. وَكَذَلِكَ مَنْ يُقَدِّمُ لَنَا الْمُسَاعِدَةَ لَا يُتَمَّ بِهِ .

السَّفَرَةُ هَذِهِ سَبْعُ وَعِشْرُونَ مِنْ مِئَةِ ، تُسْتَكْمِلُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَدَرَ ..

وَلَكُنِّي أَجْرِبُكَ : هَلْ تَصْلُحُ لِهَذَا الْطَّرِيقِ أَمْ لَا؟!

لَا تَتَنَظِّرُ .. اسْلُكْ وَانْطَلِقْ .. وَسِيَّاتِيكَ الْمَدَدُ مِنَ الْمَلِكِ .. وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَأَخَّرَ أَوْ تَلْتَفِتَ .. وَبَعْدَ أَنْ سِرْتَ مَعِي أَوَّلَ الْطَّرِيقِ إِيَّاكَ أَنْ تَنْقُطِعَ .

وَيُذَكِّرُكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ تَعَالَى عَنْهُ .. وَيُحَذِّرُكَ فِي قَوْلِ :

«يَا أَخِي ، إِنَّكَ قَدْ قَطَعْتَ عَظِيمَ السَّفَرِ ، وَبَقَيَ أَقْلُهُ ، فَادْكُرْ - يَا أَخِي -
الْمَصَادِرَ وَالْمَوَارِدِ ؛ فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ بِكِتَابِ فِي الْقُرْآنِ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ
الْوَرَودِ ، وَلَمْ يُخْبِرْ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الصِّدُورِ وَالْخُرُوجِ ، وَإِيَّاكَ وَأَنْ تَغْرِكَ
الْدُّنْيَا ؛ فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارٌ مَنْ لَا دَارَ لَهُ ، وَمَالٌ مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، يَا أَخِي ، إِنَّ
أَجْلَكَ قَدْ دَنَا ؛ فَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ ، وَلَا تَجْعَلِ الرِّجَالَ أَوْ صِيَاءَكَ»^(١) .

وَأَخْطَرُ مِنْ ذَلِكَ : تَهْدِيُدُ ابْنِ الْقِيمِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ :

«وَمَنْ ذاقَ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ وَعَرَفَ طَرِيقاً مُوَصَّلَةً إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تَرَكَهَا وَأَقْبَلَ

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي (٢٧٠) .

على إرادته وراحاته وشهواته ولذاته؛ وقع في آثار المعااطب وأودع قلبه سُجونَ المضايق وعذبَ في حياته عذاباً لم يُعذب به أحدٌ من العالمين؛ فَحِيَاتُه عَجْزٌ وَغَمٌ وَحُزْنٌ ، وموته كَدْرٌ وَحَسْرَةٌ ، وَمَعَادُه أَسْفٌ وَنَدَامَةٌ ، قد فرطَ عليه أمره وشتتَ عليه شمله ، وأحضرَ نفسه الغمومَ والأحزانِ؛ فلا لذةَ الجاهلين ولا راحةَ العارفين ، يستغيثُ فلا يُعاث ويستكبي فلا يُستكبي ، فقد ترحلَتْ أَفْرَاحُه ، وسروره مُدبرة ، وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته ، فقد أبدلَ بائسيه وحشةً ، وبعزه دللاً ، وبغناه فقرًا وبجمعيته تشتيتاً ، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ، وأبدلواه مكانَ الأنسِ إيحاشاً؛ ذلك بأنه عَرَفَ طريقه إلى الله ثم تركها ناكباً عنها مُكبباً على وجهه؛ فأبصرَ ثم عَيَّ ، وعَرَفَ ثم أنكر ، وأقبلَ ثم أدرَر ، ودُعِيَّ بما أحب ، وفُتحَ له فولى ظهرَ الباب ، قد تركَ طريقَ مولاه وأقبلَ بُكليته على هواه ، فلو نالَ بعضَ حضوظه وتلذذَ براحاته وشئونه؛ فهو مُقيَّد القلب عن انطلاقه في فسيح التَّوْحِيد ، وميادينِ الأنس ، ورياضِ المَحَبَّة ، وموائدِ الْقُرْبِ .

قد احيطَ بسببِ إعراضِه عن إلهِ الحقِّ إلى أسفلِ سافلين ، وحصلَ في عِدادِ الهالكين؛ فنارُ الحجابِ تطلُّعُ كُلَّ وقتٍ على فؤادِه ، وإعراضُ الكونِ عنه - إذا أعرضَ عن ربِّه - حائلٌ بينه وبين مَرَادِه ، فهو قَبْرٌ يمشي على وجهِ الأرض ، ورُوحُه في وحشةٍ من جسمِه ، وقلبهُ في مَلَأِ من حياتهِ ، يتمنى الموتَ ويستهيه ولو كان فيه ما فيه ، حتى إذا جاءه الموت على تلك الحال - والعياذ بالله - فلا تسألَ عما يَحْلُّ به مِن العذابِ الأليم ، بسببِ وقوعِ الحجابِ بينه وبين مولاهِ الحقِّ ، وإحراقِه بنارِ البُعدِ عن قربِه والإعراضِ عنه ، وقد حِيلَ بينه وبين سعادَتِه وأمنِيَّته .

فلو توهمَ العبدُ المُسْكِنُ هذه الحال وصوَرَتْها له نفسه وأرْتَهُ إِيَّاهَا على حقيقتها؛ لتقطعَ - واللهِ - قلبه ، ولم يلتدَّ بطعم ولا شراب ، ولخرج إلى الصُّعُدَاتِ يجأُ إلى الله ويستغيثُ به ويستعيثُ في زمِن الاستعتاب ، هذا مع أنه إذا آثرَ شهواته ولذاته الفانية التي هي كخيال طيف أو مُزْنَة صيف ؛ نَغَضَتْ عليه لذتها أحوج ما كان إليها ، وحيلَ بينه وبينها أقدر ما كان عليها ، وتلك سُنَّةُ الله في خلقه كما قال - تعالى - : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْتِ الْأَرْضَ مُرْخُفًا وَأَزَّيْتَ وَظَرَّ أَهْلَهَا أَنْهَمْ فَتَرُوْكَ عَلَيْهَا أَتَنَّهَا أَمْرَنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَانَ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِنْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَنْفَكَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤] .

وهذا هو غُبُّ إعراضِه وإشارِ شهوته على مرضاته ربه ، يعوقُ القدرُ عليه أسبابَ مُرادِه فيخسرُ الأمرين جميعاً ، فيكون مُعذبًا في الدنيا بتتغيصِ شهواته وشدة اهتمامِه بطلب ما لم يُقسم له ، وإن قُسِّم له منه شيء فَحَسُوهُ الخوفُ والحزنُ والنكدُ والألم؛ فهم لا ينقطع ، وحسرة لا تنقضي ، وحرص لا ينفَذ ، وذل لا يتنهي ، وطماع لا يُقلِع .. **هذا في هذه الدار**.

وَأَمَّا فِي الْبَرْزَخِ فَأَصْعَافُ أَصْعَافِ ذَلِكَ : قد حيلَ بينه وبين ما يشهي ، وفاته ما كان يتمناه من قُرْبِ ربِّه وكرامته ونيلِ ثوابِه ، وأحْضَرَ جميعَ غمومِه وأحزانِه . **وَأَمَّا فِي دَارِ الْجَزَاءِ :** فسجينُ أمثالِه من المَبْعُودِينَ المطرودِين . واغوثاه ثمَّ واغوثاه بغياثِ المستغيثين وأرحمِ الرَّاحمِين .

فَمَنْ أَعْرَضَ عن الله بالكُلِّية أعرضَ الله عنه بالكُلِّية ، ومن أعرضَ الله عنه لزمهُ الشقاءُ والبُؤسُ والبُخْسُ في أحوالِه وأعمالِه ، وقارنهُ سوءُ

الحال ، وفساده في دينه وما له ، فإنَّ الرَّبِّ إِذَا أَعْرَضَ عن جِهَتِهِ ؛ دارتُ بها التُّحُوسُ ، وأَظْلَمْتُ أَرْجَاؤُهَا ، وانكَسَفْتُ أَنوارُهَا ، وظَهَرَتْ عَلَيْهَا وحشَةُ الأَعْرَاضِ ، وصَارَتْ مَأْوَى لِلشَّيَاطِينِ ، وَهَدَفَ لِلشُّرُورِ ، وَمَصَبًا لِلْبَلَاءِ .

فَالْمَحْرُومُ كُلُّ الْمَحْرُومِ مِنْ عَرَفَ طَرِيقًا إِلَيْهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ، أَوْ وَجَدَ بارقةً مِنْ حُبِّهِ ثُمَّ سَلَبَهَا لَمْ يَنْقَدِ إِلَى رَبِّهِ مِنْهَا ، خَصْوَصًا إِذَا مَالَ بِتَلْكَ الإِرَادَةِ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الْلَّذَاتِ ، وَانْصَرَفَ بِجُمْلَتِهِ إِلَى تَحْصِيلِ الْأَغْرَاضِ وَالشَّهَوَاتِ ، عَاكِفًا عَلَى ذَلِكَ فِي لِيلِهِ وَنَهَارِهِ وَغُدُوِّهِ وَرَوَاحِهِ ، هَابِطًا مِنَ الْأَوْجِ الْأَعْلَى إِلَى الْحَضِيضِ الْأَدْنِى ، قَدْ مَضَتْ عَلَيْهِ بُرْهَةٌ مِنْ أَوْقَاتِهِ وَكَانَ هُمُّهُ اللَّهُ وَبُغْيَتُهُ قُرْبُهُ وَرِضَاهُ وَإِثْارُهُ عَلَى كُلِّ مَا سَواهُ ، عَلَى ذَلِكَ يُصْبِحُ وَيُمْسِي وَيَنْظُلُ وَيُضْحِي ، وَكَانَ اللَّهُ فِي تَلْكَ الْحَالِ وَلَيْهِ ؛ لَأَنَّهُ وَلَيْهِ مَنْ تَوَلَّهُ وَحَبِيبُ مِنْ أَحَبَّهُ وَوَالَّهُ ؛ فَأَصْبَحَ فِي سِجْنِ الْهَوَى ثَاوِيًّا وَفِي أَسْرِ الْعُدُوِّ مُقِيمًا وَفِي بَئْرِ الْمَعْصِيَةِ سَاقِطًا ، وَفِي أَوْدِيَةِ الْحَيْرَةِ وَالْتَّفِرْقَةِ هَائِمًا ، مُعْرَضًا عَنِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَّةِ إِلَى الْأَغْرَاضِ الْخَسِيسَةِ الْفَانِيَّةِ ، كَانَ قَلْبُهُ يَحُومُ حَوْلَ الْعَرْشِ ؛ فَأَصْبَحَ مَحْبُوسًا فِي أَسْفَلِ الْحُسْنِ :

فَأَصْبَحَ كَالْبَازِي الْمُتَنَفِّ رِيشَهُ
يَرَى حَسَرَاتٍ كُلَّمَا طَارَ طَائِرُ
وَقَدْ كَانَ دَهْرًا فِي الرِّيَاضِ مُنَعَّمًا
عَلَى كُلِّ مَا يَهْوَى مِنَ الصَّيْدِ قَادِرُ
إِلَى أَنْ أَصَابَتْهُ فِي الدَّهْرِ نَكْبَهُ
إِذَا هُوَ مَقْصُوصُ الْجَنَاحَيْنِ حَاسِرُ

فيامِنْ ذاقَ شَيْئًا مِنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ وَمَحِبَّتِهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا وَاسْتَبَدَّ بِغَيْرِهَا

مِنْهَا ، يَا عَجِبًا لَهُ بِأَيِّ شَيْءٍ تَعَوَّضُ ، وَكَيْفَ قَرَرَ قَرَارُهُ فَمَا طَلَبَ الرُّجُوعَ إِلَى أَحْنَيِتِهِ وَمَا تَعَرَّضَ . وَكَيْفَ اتَّخَذَ سَوْيَ أَحْنَيِتِهِ سَكَنًا ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ لِمَنْ

عاده مولاه من أجله وطننا . أم كيف طاوَعه قلبه على الاصطبار ، ووافقه على مسأكنته الأغيار .

في معرضًا عن حياته الدائمة ونعمته المقيم ، ويابائعاً سعاداته العظمى

بالعذاب الأليم وياباسخطاً من حياته وراحته وفوزه في رضاه ، وطالباً رضي من سعادته في إرضاء سواه ؛ إنما هي لذة فانية وشهوة مُنفَضية تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها ، فرُحْ ساعة لا شهر ، وغم سنّة بل دهر ، طعام لذيذ مسموم أو له لذة وآخره هلاك ، فالعامل عليها والداعي في تحصيلها كدودة القرز يُسدد على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطِب ، فيندم حين لا تنفع الندامة ، ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة .

فطوبى لمن أقبل على الله بكلتِه وعَكَفَ عليه بإرادته ومَحِبَّته ؛ فإنَّ

الله يُقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته ، وأنَّ الله - سبحانه - إذا

أقبل على عبد استنارت جهاته ، وأشرقت ساحته ، وتنورت ظلماته ،

وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال ، وتوجه إليه أهل

الملايين الأعلى بالمحبة والمُوالاة لأنهم تبع لمولاهم ، فإذا أحَبَ عبداً

أحبُوه ، وإذا والى ولِيَ والوه ، إذا أحَبَ الله العبد نادى : يا جبرائيل إني

أحبُ فلاناً فأحِبَّه ، فينادي جبرائيل في السماء : إنَّ الله يُحِبُّ فلاناً

فأحِبُّوه . فيُحِبُّه أهل السماء ثم يُحِبُّه أهل الأرض ، فيُوضع له القبولُ

(١) ، ويَجْعَلُ الله قلوب أوليائه تَقْدُّم إليه باللُّؤْد والمَحَبَّة والرَّحْمَة ،

ونَاهِيكَ بِمَنْ يتوجَّهُ إليه مالِكُ الْمُلْكِ ذُو الْجَلَالِ والإِكْرَامِ بمَحِبَّته ، ويُقْبِلُ

(١) متفق عليه : البخاري (٣٢٠٩) ، ومسلم (٢٦٣٧) .

عليه بأنواع كرامته ، ويُلْحَظُهُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى وَأَهْلُ الْأَرْضِ بِالتَّبَّجِيلِ
وَالْتَّكْرِيمِ ، وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتَيْهِ مَنْ يُشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ »^(١).

أخي الحبيب .. إِنَّهُ لِتَهْدِيدٍ رَعِيبٍ .. يَذْكُرُهُ لَكَ ابْنُ الْقِيمِ الْأَرِيبِ ..
وَأَنْتَ مِمَّنْ يَنْفَعُهُ التَّهْدِيدُ .. فَإِنَّهُ صَوْتٌ يَسُوقُكَ إِلَى اللَّهِ - تَعَالَى .
اسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَانْطَلِقْ .. وَلَنْ أَدْعُكْ .. اطْمَئِنْ ؛ فَإِنَا أَحِبُّكَ فِي اللَّهِ ،
وَسَأَعُودُ إِلَيْكَ قَرِيبًا ؛ لِنَوَاصِلَ السَّيْرِ ..

وصيتي : احْفَظِ اللَّهَ تَجْدُهُ تِجَاهَكَ .. أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهُ الَّذِي لَا تَضِيَعُ
عِنْهُ الْوَدَائِعُ .. وَلِقَاؤُنَا قَرِيبٌ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَقَدَرَ ..

والسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِيمَانٍ وَإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ
وَآخِرُ دُعَوَانَا أَنِّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

* * *

(١) طريق الهجرتين (١٧١ - ١٧٤).

مِسْكُ الْخِتَام

يَا وَاهِبَ الْمَوَاهِبِ ، وَمُجْزِلَ الرَّعَائِبِ .. أَعُوذُ بِكَ مِنَ النُّزُولِ
بَعْدَ الْوُصُولِ .. وَمِنَ الْكَدْرِ بَعْدَ الصَّفَا .. وَمِنَ الشَّوْقِ بَعْدِ
الْأُنْسِ .. وَمِنْ طَائِفِ الْحَسْرَةِ لِعَارِضِ الْفَتْرَةِ .. وَمِنْ تَغْيِيرِ
الرِّضَا .. وَمِنَ التَّخَلُّفِ عَنِ الْحَادِي لِحُظَّةِ .. أَوْ إِلِيمَانِ دُونَ
الْعِلْمِ .. وَمِنْ مَوْقِعِ حَدَرٍ يُوجَبُ لِلْعَقْلِ بُطْئًا - يَا رَبَّ - حَتَّى
تَكُمُلَ النِّعَمُ عِنْدِي .. وَرَقٌ فِي ذَرَى الْكَرَامَةِ مُهْجَتِي .. وَنَضَرْ
اللَّهُمَّ بِالْكَمَالِ لَذِيَكَ بَهْجَتِي .. وَعَزْفُنِي عَنِ الدُّونِ .. وَوَارِ
عِلْمِي عَنِ الْخَاطِرِ .. يَا مَنْ مَنَحَ الْأَصْفِيَاءَ مَنَازِلَ الْحَقِّ وَمَدَى
الْغَايَاتِ .. أَصْفِ هِدَائِي مِنْ دَنَسِ الْعَارِضِ .. وَاحْسِنْ عَدُوِّي
عَنْ مُلَاحَظَتِي .. وَأَخْلِصْنِي بِكَمَالِ رَغْبَتِي .. وَبِمَا لَا يَبْلُغُهُ
سُؤَالِي .. إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ .

* * *

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٥	مقدمة الطبعة الثانية
٩	مقدمة الطبعة الأولى
١١	تمهيد
١١	■ وَمَضَاتُ عَلَى طَرِيقِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ :
١٦	الوَمْضَةُ الْأُولَى : شُرُوطُ الطَّرِيقِ :
١٦	أوَّلًا : الدَّلِيلُ
١٧	- طبيعة الطريق
٢٣	ثانيًا : الصَّاحِبُ
٢٥	- رُفْقَةُ الطَّرِيقِ
٢٧	الوَمْضَةُ الثَّانِيَةُ : حَدَّدْ هَدْفَكُ
٢٩	الوَمْضَةُ الثَّالِثَةُ : مُقَوِّمَاتُ السَّفَرِ
٣٢	الوَمْضَةُ الرَّابِعَةُ : وَتَزَوَّدُوا
٣٣	- سَيِّلُ التَّرُودِ :
٣٣	١ - التَّوْحِيدُ وَالإِيمَانُ
٣٤	٢ - الْيَقِينُ
٣٥	٣ - التَّقْوَى
٣٦	٤ - الإِخْلَاصُ

٣٦	٥ - الخَيْثَة
٣٧	٦ - الصَّبْر
٣٩	■ آفَاتُ عَلَى الْطَّرِيقِ :
٤٠	الآفَةُ الْأُولَى : الْخَوْفُ مِنْ وَحْشَةِ التَّقْرُدِ
٤١	الآفَةُ الثَّانِيَةُ : فُضُولُ الْكَلَامِ وَالْخُلْطَةِ
٤١	الآفَةُ الثَّالِثَةُ : النَّفَقُ الْمُظْلِمِ
٤٢	الآفَةُ الرَّابِعَةُ : جِسْرُ عَلَى الْطَّرِيقِ
٤٩	■ اسْتِرَاحَةُ الْمُسَافِرِ :
٥٢	● تَرْوِيَحَاتُ عَلَى جَنَبَاتِ الْطَّرِيقِ :
٥٢	* عِلْمُ لِيُسْتَ في الْكِتَابِ
٥٢	* الْمُدَارَأَةُ .. وَالسُّتُّرُ
٥٢	* اخْتِيَاراتُ
٥٤	* وَيْحَكَ .. وَيْحَكَ
٥٥	* أَدْمَى دِينَه بِأَظْفَارِ شَكْوَاهِ
٥٦	* سِيَاطُ الْمَوَاعِظِ
٥٧	* اطْلُبُونِي فِي الْمَقَابِرِ
٥٨	* مِنْ شِعْرِ الْعَصْرِ الْذَّهَبِيِّ
٥٩	* الْأَخْطَرُ
٥٩	* قِصَّةُ الْحَيَاةِ وَالسَّكْرَانِ
٦٠	* دِيكُ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ
٦٢	■ كَلِمَةُ أَخِيرَةٍ
٦٧	أَهْوَلُ الْوَصْوَلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

٦٩	الأصل الأول : عليك البداية وعليه التمام
٧٦	الأصل الثاني : كن واحداً لواحد على طريق واحد
٨٨	الأصل الثالث : ما لا يكون بالله لا يكون ، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم
١٠٠	الأصل الرابع : الشكر أساس المزيد
١٠٨	الأصل الخامس : املُك عصَا التَّحْوِيَة
١١٠	الأصل السادس : يَوْمَكَ يَوْمَكَ
١١٨	الأصل السابع : وَلَيْسَعُكَ بَيْتُكَ
١٢٤	الأصل الثامن : الصَّادِقُ حَبِيبُ اللَّهِ
١٣٦	الأصل التاسع : دَوْمًا في المعاملة السَّخْبُ من الرَّصِيدِ
١٤١	الأصل العاشر : القرآن قائدٌ وسائقٌ وحَادٍ
١٥٠	الأصل الحادي عشر : لا تَلْبِسْ ثيابَ الفراغِ أثناء العمل
١٥٥	الأصل الثاني عشر : في الطريق موافق للتميز
١٥٩	الأصل الثالث عشر : الاعتصام بالله عقيدةً وعملً ودعاً
١٦٦	الأصل الرابع عشر : مَنِ استطالَ الطَّرِيقَ ضَعْفَ مَشِيهِ
١٧٢	الأصل الخامس عشر : السُّرُّ الدَّفِينِ لِعدَمِ القَبُولِ وجوْدُ حَظٌ لِلنَّفَسِ فِي الْعَمَلِ
١٧٧	الأصل السادس عشر : الْأَمْرُ كُلُّهُ بِيَدِ اللَّهِ؛ فَسَلِّمْ تَسْلِمْ
١٨٤	الأصل السابع عشر : دليل عدم رضاه عنك عدم رضاك عنه
١٩٣	الأصل الثامن عشر : إِيَّاكَ أَنْ تَمْكُرَ به فَيَمْكُرَ بكَ
٢٠٦	الأصل التاسع عشر : اجْنِ العَسَلَ وَلَا تُكْسِرِ الْخَلَيَةَ

الأصل العشرون : «وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجِينِ لِعِلْكِمْ تَذَكَّرُونَ فَقِرُّوا إِلَى اللَّهِ» ٢٣٨	
الأصل الحادي والعشرون : مَنْ صَفَّيْ صُفَّيْ لَهُ ، وَمَنْ كَدَّرَ كَدَّرَ عَلَيْهِ ٢٦٤	
الأصل الثاني والعشرون : لَا تَتَجَاهَلْ جَانِبًا وَاحِدًا مِنْ جُوانِبِ الدِّين ٢٦٩	
الأصل الثالث والعشرون : أَنْجِزْ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا جَدِيدًا ٢٨٢	
الأصل الرابع والعشرون : كُفَّ عَنِ الشَّكُوكِ وَابْدِعِ الْعَلاجَ ٢٨٦	
الأصل الخامس والعشرون : لَيْسَ الشَّائُنُ أَنْ تُحِبَّهُ ؛ إِنَّمَا الشَّائُنُ أَنْ يُحِبَّكَ ٢٩١	
الأصل السادس والعشرون : كُلُّ مَتَاعٍ فِي الدُّنْيَا يَسْحَبُ مِنْ رَصِيدِكَ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ ٣٠٦	
الأصل السابع والعشرون : الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ ؛ فَاخْتَرْ حَبِيبَكَ مِنْ هَاهُنَا ٣١٧	
	الْخَاتِمَة
٣٢٥	
٣٣١	مِسْكُ الْخِتَام
٣٣٢	الفِهْرِس

* * *